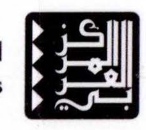
أحمد العَدوي

الطاعون في العصر الأموي

صفحات مجهولة من تاريخ الخلافة الأموية



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الطاعون في العصر الأموي

صفحات مجهولة من تاريخ الخلافة الأموية

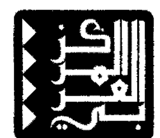


الطاعون في العصر الأموي

صفحات مجهولة من تاريخ الخلافة الأموية

أحمد العَدوي

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

العدوي، أحمد

الطاعون في العصر الأموي: صفحات مجهولة من تاريخ الخلافة الأموية/ أحمد العدوي.

184 ص.؛ 24 سم.

يشتمل على ببليوغرافية (ص. 145-167) وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-183-0

1. التاريخ الإسلامي - العصر الأموي، 661-750. 2. الدولة الأموية، 661-750. 3. البلدان العربية - تاريخ - العصر الأموي. 4. الطاعون - البلدان العربية - تاريخ. 5. الأوبئة - تاريخ. 6. الجغرافيا البشرية - البلدان العربية - تاريخ. أ. العنوان.

909.09767

العنوان بالإنكليزية

The Plague in the Umayyad Era: Unknown Pages from the History of the Umayyad Caliphate

by Ahmed Al-Adawi

الناشر



شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر
هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 1991839 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى
بيروت، كانون الثاني/ يناير 2018

إهداء

إلى أبي أدهم عُبَادة كُحِيلة

عزيزٌ عليّ يا سيّدي أن يقرع سَمعي نعيُك، أو ينطق لساني برثائك، أو تَخُط يدي تعزيةً عنك، أو تُشرق عيني بدمعةٍ عليك، وأن يُؤخرني الأجل إلى أن أعْرى من ظِلّك، وأستوحش لفقدك. فصبرٌ جميل.



المحتويات

قائمة الأشكال



مقدمة

«إنَّ الطواعين لم تنقطع في زمن بني أميَّة، ثم خفَّ الطاعون في الدولة العباسية».

ابن حجر العسقلاني[1]

كَتبَ كثير من المؤرخين عن اضمحلال الدولة الأموية وإسقاط الثوار العباسيين لها، في آخر المطاف، وتأسيسهم دولتهم على أنقاضِها. وتناولوا مُطولًا تلك الممارسات التمييزية في النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي اعتمدتها الدولة الأموية. كما أنهم تناولوا العرب والموالي والعصبية والصراعات القبلية التي لم تكن تخمد حتى تندلع مجددًا، ولا سيما بين القيسية واليمنية، والدور الذي قام به هذا الصراع في تمزيق اللُّحمة بين السادة العرب الفاتحين. وعرضوا لكُل من الحروب والصراعات التي خاضتها الدولة ضد مناوئيها، والثورات والفتن التي اندلعت في العصر الأموي، واشتداد شوكة الخوارج، وثورات آل البيت، والمختار الثَّقفي، وخِلافة ابن الزّبير، وثورة ابن الأشعث، ونشاط دُعاة بني العباس ...إلخ.

لا يسعني إنكار أثر تلك العوامل، مجتمعةً، في إحداث الصدع بعد الصدع في بنيان الدولة التي انهارت قبل أن تُكمل قرنًا واحدًا من الزمان. بيد أن هذه الدراسة تطمح إلى الوقوف على دور عامل خفي، كثيرًا ما مثَّل ظلًا باهتًا في الخلفية، ومن

---

(1) أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **بذل الماعون في فضل الطاعون**، تصنيف أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب (الرياض: دار العاصمة، 1990)، ص 363-364.

ثم قلما انتبه إليه أحد: إنه الطاعون، ذلك الوباء الذي شكل إيقاعًا منتظمًا، ضاعت ملامحه في خضم الجلبة التي واكبت قيام الدولة الأموية وانهيارها، ولم تُروَ قصته بعدُ، لذا تسلط هذه الدراسة الضوء على جوانب منه، مع العلم أن جمع مادة الدراسة لم يكن عملًا سَهلًا على الإطلاق.

كان «الموتان» في الطاعون هو الطاقة القصوى للإبادة الجماعية التي عرفتها العصور الوسطى على وجه الخصوص، وكان رعب الناس منه، آنذاك، يماثل رعب الناس اليوم من أسلحة الدمار الشامل. وكانت آثاره، على الرغم من خلوها من التدمير، تتفوق على الآثار التي تخلّفها هجمات الشعوب الهمجية على مراكز الحضارة في العصور الوسطى؛ إذ دأب الطاعون على اجتثاث البشر، من دون رحمةٍ أو تمييز. وقام جهل الناس بأسبابه وطرائق الوقاية منه بالدور الأكبر في انتشاره وامتداده إلى مساحات شاسعة؛ فكثيرًا ما رصدت هذه الدراسة ظهوره في أقصى جنوب العراق وامتداده إلى الشام ومصر وشمال أفريقيا، مخلّفًا وراءه اختلالات ديموغرافية عظيمة، امتدت آثارها سنوات وسنوات بعد حدوثها.

إن ما ضاعف من آثار الطاعون أن عرب شبه الجزيرة لم يعرفوا الطاعون قبل الإسلام، ولا سيما في بيئتهم الصحراوية الجافة، ذات المناخ المتطرف الذي لم يوفر بيئةً ملائمة لتكاثر القوارض، وهي العائل الرئيس للحشرات الطفيلية. وعندما دخلوا مناطق السهول الفيضية الخصبة في العراق والشام ومصر فاتحين، استوطنوا بها، واستطابوا العيش هناك. بيد أنهم دفعوا الثمن غاليًا؛ إذ سُرعان ما أعمل الطاعون، ذلك المرض المتوطن في تلك البقاع[2]، منجله فيهم، حتى أفنى منهم عشائر وقبائل عن آخرها[3]. واستغرق الأمر نحو أربعة أجيال حتى توارثت

---

(2) أبو الحسن علي بن محمد بن عبد اللّه بن أبي سيف المدائني، **التعازي**، تحقيق إبراهيم صالح (دمشق: دار البشائر، 2003)، ص 96.

(3) ذكر السُّرَّمرِّي، في مصنفه عن الطاعون، حديثًا عن النبي يقول فيه: «ستهاجرون إلى أرض الشام، فتُفتح عليكم، ويكون فيكم داء كالدُّمَّل أو كالحَرَّة، يأخذ بمَرَاق الرجل، يستشهد الله به أنفسهم، أو يزكي بها أعمالهم». يُنظر: أبو المظفر يوسف بن محمد السرمري، **كتاب فيه ذكر الوباء والطاعون**، علّق عليه وخرّج أحاديثه شوكت بن رفقي بن شوكت (عمّان: الدار الأثرية؛ دمشق: دار المحبة، 2005)، ص 25.

أجسادهم الجينات المقاومة للبكتيريا المسببة للمرض، فتساووا مع أهالي تلك البقاع والمستوطنين بها منذ القِدم في مستوى المناعة، فقلّت، وعلى نحو ملحوظ، تلك المعدلات المذهلة لفتك المرض بالناس مع بدايات العصر العباسي.

كان الخلفاء العباسيون أنفسهم أول من لاحظ ذلك، فعملوا على استغلاله في الدعاية السياسية لهم؛ إذ خطبوا في رعيتهم، وكذلك حضّوا الأئمة والخطباء على أن يخطبوا في الناس على المنابر، أنّ من بركة ولاية آل العباس على الناس ارتفاع الطاعون عنهم[4].

هكذا، كان قدر الدولة الأموية أن تحكم العالم الإسلامي في ذروة فتك ذلك الوباء الخطِر بالناس، وأن يفتك ذلك الوباء، أكثر ما يفتك، بالقبائل العربية المهاجرة والمستوطنة حديثًا بالأمصار المفتوحة، وكانوا عماد تلك الدولة. بعبارة أخرى، كان الطاعون هو النمل الأبيض، وكان العرب هم عصَا سُليمان التي اتكأت عليها الدولة الأموية، حيث صاحَب الوباء الدولة الأموية مصاحبة المرض المزمن لصاحبه، تغالبه حينًا بتشجيع مزيد من القبائل على الهجرة من شبه الجزيرة العربية واليمن إلى المناطق الخصبة المنكوبة، أو جلب مزيد من سَبي الأقطار المفتوحة إلى تلك المناطق، أو تشجيع الناس على الإنجاب بفرض العطاء للأطفال، أو التهجير القسري لشعوب وقبائل من الأقطار المفتوحة. ثم يعاود الطاعون الكرَّة فيغالب الدولة باختلالات ديموغرافية فادحة.

كان للفراغ الديموغرافي الذي تسببت به الطواعين المتتالية آثار تعدت كثيرًا نطاق قضايا الحياة والموت والمرض والصحة والوقاية والعلاج؛ ذلك أن التغييرات الديموغرافية التي أحدثها الطاعون آنذاك سرعان ما امتدت إلى البنية الاجتماعية والنظم الاقتصادية، بل وإلى التخريجات الفقهية، وفي الأخير إلى الحياة السياسية.

يكفي أن نذكر هنا أن ثمة تغييرات واضحة على صعيد المِلْكية والإرث والانتفاع بالأرض جرت في العصر الأموي، وكان الطاعون هو السبب المباشر

---

(4) ابن حجر العسقلاني، ص 364.

لها. كما أن نتائج معارك كبرى جرت في العصر الأموي حسمها الطاعون قبل أن تقع، ومنها ذلك الاجتياح المظفَّر للإمبراطور جستنيان الثاني لأرمينيا وأعالي الشام في خلافة عبد الملك بن مروان. ومنها أيضًا تلك المعركة الفاصلة التي كتبت الفصل الختامي للدولة الأموية على ضفاف نهر الزاب؛ إذ اختار الثوار العباسيون توقيتًا أكثر من ملائم لإعلان ثورتهم عقب طاعون غراب الذي وقع في العراق والشام في عام 127هـ/ 744م وامتد إلى مصر وأفريقيا، ثم اختاروا الزحف من خراسان إلى العراق والشام بمجرد ارتفاع طاعون جارف، لم يُبق ولم يذر، هو طاعون مسلم بن قتيبة الذي ارتفع عن الناس في شوَّال 131هـ/ 748م بعد أن حصدَ أرواح سكان آسيا الصغرى والجزيرة والعراق والشام ومصر حصدًا.

في التحليل الأخير، من شأن فهمنا دور الطاعون في العصر الأموي أن يُظهر تفصيلات ربما كانت ضبابية وغامضة ومشوشة في ما مضى، ولا سيما في نهايات العصر الأموي؛ ففي ضوء الطاعون وآثاره الديموغرافية، نُصبح أكثر تفهمًا لبعض سياسات الدولة الأموية، كفرض عقوبة القتل على المتخلفين عن الخروج مع البعوث، واللجوء إلى تجنيد الأطفال، وجباية الجزية ممن أسلم من أهل الذمة، والأمر بإعادة تسجيل الأطفال في الديوان وفرض العطاء لهم. وكذلك إعادة الفلاحين الهاربين من القرى والمناطق الموبوءة قسرًا، بل ووسمهم بأسماء قراهم وتحويلهم إلى أقنان. كما أننا نصبح أكثر تفهمًا لأهداف سياسة التهجير القسري التي اتبعتها الدولة مع قبائل الزنج ومع قبائل حوض نهر السند، بغرض توطينهم في بلاد ما بين النهرين، ثم الأمر بتهجيرهم إلى أعالي الشام لاتخاذهم دروعًا بشرية في الثغور. وفي الأخير، نصبح أكثر تفهمًا وتقديرًا للأحوال والملابسات التي أحاطت بسقوط الخلافة الأموية.

تندرج هذه الدراسة في إطار دراسات الديموغرافيا التاريخية، وهو حقل مهمَّش ومهمَل من الباحثين والدارسين في التاريخ الإسلامي الذين سَلَّم أكثرهم بأن طبيعة المصادر الأدبية تحول دون تقديم مادة يُوثق بها حيث تُعين على النهوض بمثل تلك الدراسات. كما جرى التبرير وإضفاء الشرعية على القعود عن القيام بمثل تلك الدراسات التي تهتم بالنبش والحفر بحثًا عما من شأنه كله

أن يشكل رقمًا أو تقديرًا أو مؤشرًا متعلقًا بالديموغرافيا التاريخية في العصور الإسلامية، بدعوى ندرتها تارةً، أو عدم صدقيتها وتسلسلها وشموليتها في حال توافرها تارةً أخرى، مع أن من البدهي أن تكون حصيلة البحوث واستنتاجاتها افتراضية ونسبية عادةً، بل وقابلةً للمراجعة وللنقض أيضًا[5]، أيًا يكن الحقل المعرفي الذي تنتمي إليه.

على أي حال، تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على آثار الطاعون في العصر الأموي، من خلال دراسة أثره في الأوضاع الديموغرافية في ذلك العصر، ومن ثم انعكاساتها على النظم والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في بلدان الدولة وأقاليمها، ولا سيما في الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا، وهي البقاع التي تُعَدّ خاصرة الخلافة التي شهدت، من دون غيرها، موجات كارثية عظمى من الطاعون، أبرزها طاعون ابن الزبير الجارف، وطاعون مُسلم بن قتيبة الذي قُدِّر له أن يتصدر المشهد الختامي للدولة الأموية.

تقسم هذه الدراسة ثلاثة فصول وخاتمة. يحمل **الفصل الأول** عنوان «الطاعون وعالم العصور الوسطى»، وهو بمنزلة مدخل أو فصل تمهيدي، ويناقش مكانة الطاعون في عالم العصور الوسطى، وتأثيره في أوجه الحياة في العصر الوسيط، وكذلك يشتمل على نُبذة عن هذا الوباء القاتل، وأسباب فتكه بالناس على ذلك النحو المأساوي الذي تحدثت عنه المصادر القديمة. وفي المحور الثاني من الفصل نفسه، حديث عن الطاعون الذي احتل مكانة مرموقة في التراث العربي الإسلامي بصفة عامة؛ إذ استدعى بوصفه كارثة إنسانية كبرى، الكثير من التساؤلات الدينية والفلسفية العميقة التي تعدت النطاق الضيق للطب والمرض والوقاية. ومن ثم شكّل الطاعون مبحثًا علميًا تقاطعت فيه حقول الحديث والفقه والفلسفة والتاريخ، فضلًا عن الطب، وهو مجال الاختصاص الأصيل.

تحت عنوان «فورات الطواعين في العصر الأموي»، يهدف **الفصل الثاني** إلى

---

(5) حسين بوجرة، «الطاعون وبدع الطاعون: الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب بين الفقيه والطبيب والأمير (1350-1800م)»، **المستقبل العربي**، العدد 383 (كانون الثاني/ يناير 2011)، ص 39.

إحصاء الطواعين الواقعة في عصر بني أمية، وضبط تعاقبها كرونولوجيًا، تمهيدًا لدراسة آثارها. كما أنه يعرض لأخبار الطواعين في صدر الإسلام عند الرواة والأخباريين والمؤرخين، ويناقش الإشكالات التي تُحيط بها، وأبرزها اضطراب الرواة والأخباريين في إحصاء الطواعين في العصر الأموي، والخلط بينها أحيانًا، وكذلك الاضطراب في التأريخ لها على نحو دقيق. كما أنه يتضمن تقويمًا إحصائيًا لفورات الطواعين في عصر بني أميَّة منذ عهد معاوية بن أبي سفيان إلى عهد مروان بن محمد.

يبدأ **الفصل الثالث**، «الآثار الديموغرافية للطواعين وانعكاساتها على المجتمع والدولة في العصر الأموي»، بمناقشة الكوارث الديموغرافية العنيفة التي تسبب بها الطاعون؛ فعلى الرغم من أننا نفتقر كليًا إلى الوثائق المتعلقة بهذا العصر، فإن تحليل بعض الأخبار الموثوقة التي وردت في بعض المصادر الأدبية أعانني على رسم صورة تقريبية لمعدلات الناجين نسبة إلى الضحايا في طواعين العصر الأموي؛ فبناء على المعطيات المتوافرة من خلال المصادر الأدبية، أُقَدّر نسبة الناجين إلى الضحايا بـ 1: 14 ضحيةً في المتوسط، وهي نسبة كارثية بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ. كما يناقش الفصل هذا أثر الوباء على صعيد الهياكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في العصر الأموي.

أحمد عبد المنعم العدوي

جناق قلعة (Çanakkle) – تركيا، 2015.

مصادر الدراسة

«إن الجارف وقع وعبيد الله بن معمر على البصْرَة، فماتت أمه في الجارف، فما وجدُوا لها من يحملها، حتى استأجرُوا لها أربعةَ علوجٍ فحملوها إلى حُفرتها، وهو الأمير يومئذ!»

الطبري[1]

من شأن ذلك العدد الغزير من المصادر الأدبية، مع ذلك التنوع المدهش في الموضوعات التي عالجتها، تعويض الباحث جزئيًا عن غياب الوثائق. وفي ما يتعلق بموضوع هذه الدراسة، أفرد كثير من الكتّاب المسلمين مصنفات ورسائل خاصة بالطاعون وأخباره في الإسلام، فُقد أغلبها، في حين لم يجد بعضها الآخر حظه من النشر فقبع مخطوطًا في انتظار الكشف عنه. من أبرز تلك المصنفات والرسائل المفقودة كتاب **الطواعين** لابن أبي الدنيا (المتوفى في عام 281هـ/ 894م)، وكذلك رسالة ابن الجزار (المتوفى في عام 395هـ/ 1004م) التي وضعها بعنوان **نعت الأسباب المولدة للوباء في مصر**، ورسالة لأبي عيسى الجرجاني (المتوفى في عام 401هـ/ 1010م) بعنوان **رسالة في الوباء**[2].

(1) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك**، 10 ج (بيروت: دار التراث، 1967)، ج 5، ص 529.

(2) يُنظر: محمد حسن، «صفة الطاعون في مصنفات العصر الوسيط»، في: لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي بن الخطيب، **ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف** (749هـ/ 1348م)، تحقيق ودراسة محمد حسن، سلسلة التاريخ (تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة)، 2013)، ص 27.

بيد أن التصنيف في أخبار الطاعون شهد إقبالًا من الكتّاب، ولا سيما في عقب الطاعون الجارف الذي ضرب الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ثم امتد إلى أوروبا بين عامي 748هـ/ 1347م و753هـ/ 1352م، حيث صنف ابن أبي حجلة (المتوفى في عام 766هـ/ 1374م) كتابه المسمّى **دفع النقمة في الصلاة على نبي الرحمة**، وذلك في إثر ظهور الطاعون في مصر عام 764هـ/ 1372م، وأورد فيه بعض الأحاديث الحاضّة على الاستغفار والتوبة، وكذلك أفرد فيه بابًا مهمًا للطواعين الواقعة من أول الإسلام إلى عصره، ثم أعقب ذلك بتصنيف كتابه **الطب المسنُون في دفع الطاعون**.

في الأندلس، صنف الطبيب الأندلسي أحمد بن خاتمة الأنصاري (المتوفى في عام 770هـ/ 1368م) رسالته المسماة **تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد**، وهي واحدة من أهم الرسائل التي كُتبت في الطاعون في تاريخ التراث العربي، حيث أقر بحتمية العدوى، داحضًا حجج الفقهاء والمحدثين في ما يتعلق بمسببات المرض. وحذا لسان الدين بن الخطيب حذوه في رسالته التي صنفها في عقب ظهور رسالة ابن خاتمة، والتي عنونها بـ **مقنعة السائل عن المرض الهائل**.

إبّان ذلك، كان المحدث يوسف بن محمد بن مسعود السُّرمري (المتوفى في عام 776هـ/ 1364م) قد انتهى من تصنيف كتاب في الطاعون، جاء بعنوان **كتاب فيه ذكر الوباء والطاعون**، عارضًا أسباب المرض من وجهة نظر عالِم في الحديث النبوي. وتزامن ظهور عمله مع رسالة الطبيب الأندلسي محمد بن علي الشقوري (المتوفى بعد عام 776هـ/ 1374م)، وهي المسماة **النصيحة** والتي قدم في خلالها بعض التصورات الطبية حول ما يُصلح الأبدان ويحول دون استشراء الوباء.

أما ابن حجر العسقلاني (المتوفى في عام 852هـ/ 1448م)، فأظهر شغفًا واهتمامًا غير اعتياديين بأخبار الطواعين في الإسلام؛ إذ حرص على تتبّع أخبار الطواعين والتأريخ لها في كتاباته على تنوعها، فنجد مادة نفيسة عن الطواعين في الإسلام تناثرت هنا وهناك في مؤلفاته، ولا سيما في **فتح الباري بشرح صحيح**

البخاري و**الإصابة في تمييز الصحابة** و**المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**، وفي عمليه **تقريب التهذيب** و**تهذيب التهذيب** اللذين شرح واختصر بهما **تهذيب الكمال** للحافظ المزي (المتوفى في عام 742هـ/ 1341م). ومن ثم، لا عجب في أن ينتبه ابن حجر نفسه، في أواخر أيامه، إلى تلك المادة عن الطاعون والمتناثرة في ثنايا مؤلفاته، فجمعها ليسوّد بها صفحات مُصنفه المسمى **بذل الماعون في فضل الطاعون**.

فوق شغف ابن حجر الواضح بأخبار الطواعين في الإسلام، هناك داع آخر دعاه ليفرد هذا الكتاب في أخبار الطاعون؛ ذلك أن ابن حجر فقد ابنتيه في طاعونٍ وقع في عام 819هـ/ 1416م، كما أنه عاصر طاعونًا جارفًا ضرب القاهرة في رمضان 849هـ/ 1445م، وارتفع عن الناس في شوَّال من العام نفسه. ويبدو أن ذلك الطاعون ترك تأثيرًا قويًّا في نفسه، فشرع في جمع مادة هذا الكتاب وتبويبها، وانتهى منه قُبيل وفاته مباشرة، أي قبل أن يتمكن من تبييض نسخته، ففي الكتاب مواضع بياض متعددة تخص أخبار ذلك الطاعون على وجه التحديد[3].

اختصر الحافظ جلال الدين السيوطي (المتوفى في عام 911هـ/ 1505م) كتاب **بذل الماعون** لابن حجر، وزاد عليه زيادات يسيرة، منها مقامتا ابن الوردي والصفدي في الطاعون، ومقامته المسماة الدرية. أما شيخ الإسلام زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري (المتوفى في عام 926هـ/ 1520م)، فصنف كتابه **تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين**، مُتضمنًا خاتمةً مهمة جاءت بعنوان «ذكر الطواعين الواقعة في الإسلام». واختصر ابن نجيم المصري (المتوفى في عام 970هـ/ 1562م) كتاب الأنصاري في رسالته التي سمّاها **رسالة في الطاعون ووصفه**. وهناك أيضًا الياس بن إبراهيم الإسباني اليهودي (المتوفى بعد عام 986هـ/ 1578م)، الذي ألّف رسالته **مجنة الطاعون والوباء** خصيصًا للسلطان العثماني بايزيد الثاني. وفي وقت لاحق دوّن مرعي الكرمي الحنبلي (المتوفى

---

(3) أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **بذل الماعون في فضل الطاعون**، تصنيف أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب (الرياض: دار العاصمة، 1990)، ص 370.

في عام 1033هـ/ 1623م) رسالته المسماة **ما يفعله الأطباء والداعون بدفع شر الطاعون**، ودوَّن برهان الدين إبراهيم بن أبي بكر العوفي (المتوفى في عام 1094هـ/ 1682م) كتابه **حدائق العيون الباصرة في أخبار أحوال الطاعون والآخرة**.

اعتمدت الدراسة أيضًا على كتب التاريخ بطبيعة الحال؛ فالمؤرخون أمدونا بأخبار فورات الطاعون التي وقعت في خلال العصر الأموي، جاء أغلبها نقلًا عن الرواة والأخباريين، نذكر منهم على وجه الخصوص، الواقدي (المتوفى في عام 207هـ/ 823م) وأبو الحسن المدائني (المتوفى في عام 225هـ/ 840م). ولم يخلُ التعامل مع كتب التاريخ من بعض الصعوبات؛ فكثيرًا ما أهملت ذكر أخبار طاعون وقع هنا أو هناك، ومن ذلك طاعون وقع في الكوفة في مستهل خلافة عثمان بن عفان وولاية أبي موسى الأشعري بين عامي 23هـ و 24هـ/ 643م و644م، أي بعد أقل من خمس سنوات من وقوع طاعون عَمَواس، الطاعون الأشهر في تاريخ الإسلام. ولم تأتِنا أخبار ذلك الطاعون إلا من خلال دواوين الشعر وكتب الجرح والتعديل.

كثيرًا ما تضاربت كتب التاريخ في ما أوردته من أخبار عن تلك الطواعين التي ذكرتها، ونتج ذلك من تضارب مرويات سيف بن عمر والواقدي والأصمعي والمدائني في أغلب الأحيان، فاختلفت في التأريخ لوقوع طاعون بعينه، وكذلك في اسم ذلك الطاعون، كما حدث في الخلط بين طاعوني الفتيات والأشراف اللذين وقعا في إبّان خلافة عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك على التوالي، بين عامي 86 و87هـ/ 704م و705م. ولم يستطع بعض المؤرخين إخفاء اضطراب مصادره في أخبار هذين الطاعونين، فتعامل بعضهم معهما على أنهما طاعون واحد عُرف باسمين مختلفين، في حين انقسم آخرون بين القول إنهما طاعونان منفصلان أصابا العراق والشام على التوالي، والجمع بين القولين في تناقض واضح.

على كل حال، إن من أهم تلك المصادر التاريخية كتاب خليفة بن خياط العصفري (المتوفى في عام 240هـ/ 854م) **تاريخ خليفة بن خياط**، وكتاب

المؤرخ المصري ابن عبد الحكم (المتوفى في عام 257هـ/ 870م) **فتوح مصر والمغرب** الذي ذكر عددًا من الطواعين التي وقعت في مصر في العصر الأموي. كما أن كتابات ابن قتيبة الدينوري (المتوفى في عام 276هـ/ 889م) تتّسم بأهمية كبيرة في هذا الصدد، ومن أهمها كتاب **عيون الأخبار** وكتاب **المعارف**. هذا إضافةً إلى كتاب الفسوي (المتوفى في عام 277هـ/ 851م) **المعرفة والتاريخ**، وكتاب البلاذري (المتوفى في عام 279هـ/ 892م) **أنساب الأشراف**، وكتاب الطبري (المتوفى في عام 310هـ/ 922م) **تاريخ الطبري**.

بيد أنني أدين كثيرًا لمحمد بن سعيد بن عبد الرحمن القشيري (المتوفى في عام 334هـ/ 945م) الذي حفظ فحوى رسالة جوابية من أحد فقهاء الرقة، ويدعى ميمُون بن مهران الجزري (المتوفى بعد عام 110هـ/ 728م)، في كتابه **تاريخ الرقة ومن نزلها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم والتابعين والفقهاء والمحدثين**؛ إذ ذكر فقيه الرقة في رده هذا معلومات بالغة الأهمية عن حاله وحال ذويه بعد الطاعون، ما مكنني في الأخير من تتبّع آثار طواعين العصر الأموي على الصعيد الديموغرافي إحصائيًا.

لم تخلُ كتب التاريخ المتأخرة نسبيًا من فائدة للدراسة، ومن أهمها **تاريخ دمشق** لابن عساكر (المتوفى في عام 571هـ/ 1175م)، و**المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** لابن الجوزي (المتوفى في عام 597هـ/ 1200م)، و**الكامل في التاريخ** لابن الأثير (المتوفى في عام 630هـ/ 1232م)، و**البداية والنهاية** لابن كثير الدمشقي (المتوفى في عام 774هـ/ 1372م). وآخر تلك السلسلة من حيث الأهمية كتاب **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** لابن تغري بردي (المتوفى في عام 874هـ/ 1469م).

خارج نطاق المصادر العربية، صنّف أحد الرهبان السريان، وهو راهب بدير زُقنين في نواحي ديار بكر، كتابًا في التاريخ انتهى منه قرابة عام 159هـ/ 775م، ونُشر منحولًا للبطريرك ديونسيوس التلمحري (المتوفى نحو عام 231هـ/ 845م) بعنوان **تاريخ الأزمنة**. وتعود أهمية تاريخ هذا الراهب إلى أنه كان شاهد عيان على طاعون مسلم بن قتيبة الذي ضرب مدن الجزيرة والعراق والشام ومصر في عام

131هـ/ 748م، فأورد في تأريخه لهذا الطاعون معلومات دقيقة عن أحوال الناس في مدن الجزيرة، خصوصًا في ظل ذلك الطاعون الجارف.

ثمة معين يكاد لا ينضب من المعلومات المهمة عن الطواعين في العصر الأموي، تضمها مصادر لا تخطر على بال المؤرخ عادة، كمتُون الحديث وكتب الرجال؛ إذ إن قومًا لا بأس فيهم من المحدثين وعلماء التابعين قضوا نحبهم في موجات الطاعون المتتالية. وأوردت تلك المصادر، عَرضًا، لبعض المعلومات القيّمة عن تلك الطواعين، وتواريخ وقوعها، والغريب أن بعضًا منها لم تأت كتب التاريخ إلى ذكره كما سبق بيانه. من أهم تلك المصادر مسند أبي داود الطيالسي (المتوفى في عام 204هـ/ 819م)، وكذلك مسند ابن أبي شيبة (المتوفى في عام 235هـ/ 849م)، ومسند اسحق بن راهويه (المتوفى في عام 238هـ/ 852م)، وكتاب **الطبقات الكبرى** لابن سعد كاتب الواقدي (المتوفى في عام 230هـ/ 941م)، وكتاب **الطبقات** لخليفة بن خياط العصفري، وكتاب **التاريخ الكبير** للإمام البخاري (المتوفى في عام 256هـ/ 869م)، واختصاره المسمى **التاريخ الأوسط**، ومسند أبي يعلى الموصلي (المتوفى في عام 307هـ/ 919م)، وكذلك كتاب **مشاهير علماء الأمصار والثقات** لابن حبان البُستي (المتوفى في عام 354هـ/ 965م)، و**معجم** الطبراني (المتوفى في عام 360هـ/ 970م) **المعجم الأوسط**، وكتاب ابن بطة العكبري (المتوفى في عام 387هـ/ 997م) **الإبانة الكبرى**، وكتاب **رجال صحيح البخاري المسمى الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد** لأبي نصر الكلاباذي (المتوفى في عام 398هـ/ 1007م). وكذلك **أمالي ابن بشران** لابن بشران (المتوفى في عام 430هـ/ 1038م)، و**شُعب الإيمان** و**السنن الكبرى** لأبي بكر البيهقي (المتوفى في عام 458هـ/ 1065م)، وكذلك **أمالي ابن الشجري** لابن الشجري (المتوفى في عام 542هـ/ 1060م)، و**شرح النووي على صحيح مسلم** و**الأذكار** للإمام النووي (المتوفى في عام 676هـ/ 1277م). وهناك أيضًا **تهذيب الكمال في أسماء الرجال** للمِزي (المتوفى في عام 742هـ/ 1341م)، و**ذيل** مغلطاي (المتوفى في عام 762هـ/ 1360م) عليه تحت عنوان **إكمال تهذيب الكمال**، وكتاب **التوضيح لشرح الجامع الصحيح** لابن الملقن (المتوفى في عام 804هـ/ 1401م).

كما تحفل كتب التراجم، على اختلاف مشاربها، بمعلومات مهمة حقًّا، وذلك من خلال نصّها على أعيان الناس الذين لقوا حتفهم في الطواعين في خلال العصر الأموي، حيث تُعَدّ كثرتهم مؤشرًا واضحًا على شدة فتك هذا الطاعون أو ذاك بالناس حينئذ، ومن جملتها **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء** لأبي نعيم الأصفهاني (المتوفى في عام 430هـ/ 1038م)، و**تاريخ مولد العلماء ووفياتهم** للربعي (المتوفى في عام 466هـ/ 1073م)، و**نزهة الألباء في طبقات الأدباء** للأنباري (المتوفى في عام 577هـ/ 1181م)، ومعجم الأدباء، المسمى **إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب** لياقوت الحموي (المتوفى في عام 626هـ/ 1228م).

كذلك أفادت الدراسة من كتابَي القفطي (المتوفى في عام 646هـ/ 1248م) **إنباه الرواة على أنباه النحاة وإخبار العلماء بأخبار الحكماء**، ومن **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** لابن خلكان (المتوفى في عام 681هـ/ 1282م)، و**معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار** للذهبي (المتوفى في عام 748هـ/ 1347م)، و**الوافي بالوفيات** للصفدي (المتوفى في عام 764هـ/ 1362م)، و**غاية النهاية في طبقات القراء** لابن الجزري (المتوفى في عام 833هـ/ 1429م).

وبالمثل، تُعتبر كتب الأدب معينًا نافعًا لا يكاد المؤرخ يستغني عنه، فخرجتُ منها بمعلومات كثيرة عن الطواعين، وحال الناس عند وقوع الوباء، ومن أهمها كتب الجاحظ (المتوفى في عام 255هـ/ 868م) **رسائل الجاحظ** و**البيان والتبيين** و**الحيوان**، وكتاب **بلاغات النساء** لابن طيفور (المتوفى في عام 280هـ/ 893م)، و**التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا** للمبرد (المتوفى في عام 285هـ/ 898م) الذي حفظ لنا مقتطفات بالغة الندرة والأهمية مما روي من أخبار الطواعين في خلافة بني أمية، وكان لهذه المقتطفات فضل كبير في تتبّعي آثار الطواعين على الصعيد الديموغرافي.

كما أن كتاب **العقد الفريد** لابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى في عام 328هـ/ 939م) يُعتبر مهمًّا جدًّا في هذا السياق، وكذلك كتاب **نثر الدر في المحاضرات** لأبي سعد الآبي (المتوفى في 421هـ/ 1030م)، إلى جانب **زهر الآداب وثمر الألباب** لأبي اسحاق القيرواني (المتوفى في عام 453هـ/ 1061م)،

والمستخرج من كتب الناس للتذكرة والمستطرف من أحوال الرجال للمعرفة لابن مندة العبدي (المتوفى في عام 470هـ/ 1077م)، و**محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء** للراغب الأصفهاني (المتوفى في عام 502هـ/ 1108م)، و**التذكرة الحمدونية** لابن حمدون (المتوفى في عام 562هـ/ 1166م).

أما كتب الزهديات والرقائق، فإني أفدت منها أيّما إفادة؛ إذ إن طبيعتها وأهدافها جعلتاها تورد الكثير من أخبار المحن والمصائب بغرض التأسي، ويعد ابن أبي الدنيا (المتوفى في عام 281هـ/ 894م) سيد هذا النوع من التصنيف بلا منازع. وسبق لي أن أشرت إلى أنه صنف كتابًا سمّاه **الطواعين**، وهو في عداد الكتب المفقودة، إلا أن بعضًا من مادة هذا الكتاب تناثر في مؤلفاته الأخرى، وعلى رأسها **الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان وقصر الأمل ومن عاش بعد الموت والعقوبات**. وفي هذا الصَّدد أيضًا أفدت كثيرًا من كتاب القاضي التنوخي (المتوفى في عام 384هـ/ 994م) **الفرج بعد الشدة**.

استخلصت هذه الدراسة أيضًا إفادة من كتب الطب، ولا سيما في الفصل التمهيدي الذي تناول التعريف بالمرض وأسبابه، ومساهمات الطب الإسلامي في مجال التعرف إلى هذا المرض الفتَّاك. ومن أهم تلك الكتب **الحاوي في الطب** لأبي بكر الرازي (المتوفى في عام 313هـ/ 925م)، و**القانون في الطب** لابن سينا (المتوفى في عام 428هـ/ 1036م).

أما بالنسبة إلى الدراسات الحديثة عن الطاعون وآثاره الديموغرافية وانعكاساتها على النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الشرق الأوسط، فإن اهتمامها انصبّ على سلسلة الطواعين الجارفة التي ضربت الشرق الأوسط بين عامي 748هـ/ 1347م و753هـ/ 1352م. ومن أبرزها ما كتبه مايكل دولز: *The Black Death in the Middle East* (**الطاعون في الشرق الأوسط**) الذي ظهر في برنستون في عام 1997. وثمة دراسات أخرى تناولت أثر الطاعون في العصر العثماني، ومن أهمها ما كتبه رونالد جنينغز (R. C. Jennings) عن الطاعون في طرابزون تحت عنوان: «Plague in Trabzon and Reactions to it According to Judicial Registers in the 16th and 17th Century» في سلسلة *Studies on Ottoman Social History*

في اسطنبول في عام 1999. كما كتب هيث لوري مقالة مهمة عن الطاعون الدَّبْلي وأثره في العمران في العصر العثماني في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، جاءت بعنوان: «Pushing the Stone Uphill: The Impact of Bubonic Plague on Ottoman Urban Society in the Fifteenth and Sixteenth Centuries»، في: *Osmanlı Araştırmaları XXIII* (2003). وناقشت جيزيل مارين (G. Marien) أطروحتها للماجستير عن الطواعين: «The Black Death in Early Ottoman Territories, 1347-1550»، في جامعة بيلكنت في أنقرة في عام 2009. وثمة دراسة مهمة لروزنبرجي برنار - التريكي حميد عن المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين السادس عشر والسابع عشر[4].

أما بالنسبة إلى المكتبة العربية، فنجد أن الطبيب الفرنسي الأصل كلوت بك (المتوفى في عام 1303هـ/ 1868م) ألّف رسالته التي شرح فيها للأطباء في المارستان الأميري تلك الإجراءات الطبية المتعلقة باستقبال حالات الإصابة المؤكدة بالطاعون[5]. وما عدا ذلك، فإن المكتبة العربية تفتقر بشدة إلى الدراسات التي تعنى بدراسة الطاعون وآثاره على الصعيد الديموغرافي، وامتداداتها على صعيد الهياكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية، بل والعلمية والدينية أيضًا. وذلك على الرغم من ظهور بعض المحاولات الجادة مؤخرًا، أبرزها دراسة حسين بوجرة التي جاءت بعنوان: «الطاعون وبدع الطاعون بين الفقيه والطبيب والأمير» وعنيت بدراسة الطواعين التي ضربت المغرب في الفترة من منتصف القرن الرابع عشر إلى بدايات القرن التاسع عشر. وهناك تلك المقدمة النفيسة التي كتبها محمد حسن بعنوان «صفة الطاعون في مصنفات العصر الوسيط»، وذلك في ثنايا تحقيقه ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف، وظهرت في تونس في عام 2013.

---

(4) وهو في الأصل مقالتهما الموسعة المنشورة في: Hamid Triki et Bernard Rosenberger: «Famines et épidémies au Maroc aux XVIe et XVIIe siècles (1ère partie),» *Hespéris Tamuda*, vol. 14 (1973), pp. 76-109, et «Famines et épidémies au Maroc aux XVIe et XVIIe siècles (2ème partie),» *Hespéris Tamuda*, vol. 15 (1974), pp. 103-105.

وقد تُرجمت إلى العربية في الرباط في عام 2010.

(5) أنطوان كلوت [كلوت بك]، **تنبيه في ما يخص الطاعون للأطباء ورؤساء المارستانات** (القاهرة: مطبعة ديوان الجهادية، 1885).

وهي من أهم ما كُتب عن الطاعون الجارف الذي ضرب الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وأوروبا بين عامي 748هـ/ 1347م و753هـ/ 1352م[6].

أما عن الطاعون في العصور الإسلامية الباكرة، فليس ثمة دراسة علمية مُعتبرة يمكن الإشارة إليها في هذا المقام. بناء على هذا، أرجو أن تُساهم هذه الدراسة بنصيب في رأب تلك الثغرة في المكتبة العربية.

(6) هناك أيضًا دراسة عن الطواعين التي ضربت المغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، يُنظر: محمد الأمين البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب العربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر** (الرباط: جامعة محمد الخامس - كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1992)، وهي في الأصل أطروحته للدكتوراه. كما أن هناك عددًا من المقالات التي كُتبت في هذا الصدد، منها: عبد المجيد الصغير، «الطاعون الأسود بين الواقع والتأويل في المغرب العربي: أحمد بن عجيبة وحمدان خواجة نموذجًا»، **دراسات فلسفية** (الرباط) (1993)؛ فلة القشاعي موساوي، «وباء الطاعون في الجزائر العثمانية: دوراته وسلم حدته وطرق انتشاره»، **مجلة دراسات إنسانية** (كلية العلوم الإنسانية - جامعة الجزائر)، العدد 1 (2001)، وحسام مختار العبادي، «وباء الطاعون في بلاد المشرق»، في: **ابن خلدون: البحر المتوسط في القرن الرابع عشر: قيام وسقوط إمبراطوريات، معرض بالقصر الملكي في إشبيلية، مايو - سبتمبر 2006: دراسات**، تنسيق ماريا خيسوس فيجيرا مولينز، تقديم النسخة العربية إسماعيل سراج الدين، المنجي بو سنينة ومشعل بن جاسم آل ثاني (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية للنشر والتوزيع، 2007).

الفصل الأول

الطاعون وعالم العصور الوسطى

وإذا المَنِيّةُ أَنشبَتْ أظفارَها   أَلْفَيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تَنفَعُ!

أبو ذؤيب الهذلي يرثي خمسة من أبنائه قضَوا في طاعون ضرب مصر نحو عام 24هـ/ 644م.

(ديوان الشعراء الهذليين)[1]

---

(1) الشعراء الهذليون، **ديوان الهذليين**، تحقيق أحمد الزين ومحمود أبو الوفا، 3 ج (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1965)، ج 1، ص 3.



مقدمة

شكَّل مرض الطاعون تهديدًا جديًا للحضارة في العصور الوسطى، فاقت آثاره بمراحل آثار هجمات الشعوب والقبائل الهمجية على مراكز الحضارة في الصين والشرق الأدنى وأوروبا آنذاك؛ ذلك أن موجات الطاعون التي ضربت المدن هنا وهناك، حصَدت أرواح الناس حصدًا، مخلِّفة وراءها ما يمكن وصفه بكوارث ديموغرافية كبرى، تركت بدورها آثارًا سلبية بالغة القسوة على الصعد الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية، ومن ثم السياسية في نهاية المطاف، فكانت موجات متتالية من وباء الطاعون قد ضربت منذ العصر البيزنطي الشرق الأوسط وصولًا إلى شمال أفريقيا، ومن ثم أوروبا، حتى إنه لم يخل قرن من طاعون جارف[2] واحد أو أكثر، تاركًا آثاره المدمرة في أوجه الحياة آنذاك.

«الطاعون» هو الاسم الذي أطلقه العرب على مرض قاتل غامض، كان ينتشر في الناس انتشار النار في الهشيم، مخلِّفًا عددًا ضخمًا من الموتى في أيام قلائل، حتى ساوى اللغويون تقريبًا بين كلمتي طاعون ووباء، والكلمة الأخيرة مصطلح يُطلق على المرض المستشري الذي يصيب الناس فجأة، ويرتفع عنهم فجأة، فقالوا كل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعونًا[3]. وكلمة طاعون زِنة فاعُول،

(2) «الطاعون الجارف» اصطلاح أطلقه المسلمون على فورة الطاعون الكبرى التي كانت تستمر بضعة أيام في المتوسط، وتتسبب في هلاك مئات الآلاف من البشر. وسُمي جارفًا لجرفه الناس كما يجرف السيل ما على وجه الأرض، والجرف لغةً: الغرف من فوق الأرض واكتساح ما عليها. يُنظر: شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **بذل الماعون في فضل الطاعون**، تصنيف أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب (الرياض: دار العاصمة، 1990)، ص 223.

(3) عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري بن الملقن، **التوضيح لشرح الجامع الصحيح**، =

وهو وزن دال بذاته على المبالغة والكثرة، وهي من طعن يطعن طعنًا، غير أنه عُدل بها عن أصلها، فوُضِعت دالةً على المَوْتان (الموت العام) في الوباء. والمطعون والطعين عند أهل اللغة هو من طُعن، في موضع بجسده بآلة كالرمح، وكذلك من أصيب بالطاعون سواءً بسواء[4].

يُسبب الطاعون نوعٌ من البكتيريا القاتلة تسمى «يرسينيا بيستس» (Yersenia pestis) نسبةً إلى أول من اكتشفها، وهو ألكسندر يرسين (A. Yersin) الذي نجح في عزلها في عام 1894م[5]. بيد أن العلماء ظلوا يتساءلون عن الكيفية التي تنتقل بها تلك البكتيريا إلى أجساد البشر. ولم يطل انتظار البشرية كثيرًا بعد اكتشاف عُصيّات الطاعون؛ فبعد أقل من أربع سنوات، أعلن بول لويس سيمون (P.- L. Simond) اكتشافه المثير لدور حشرة البرغوث (Flea)، كوسيط بين القوارض والبشر، فحلَّ بذلك الحلقة المفقودة والأخيرة من لغز كبير حارت فيه البشرية قرونًا طويلة[6].

تعيش بكتيريا «يرسينيا بيستس» وتتكاثر في معدة البرغوث أو القمل أو البق، وغيرها من الحشرات الطفيلية، ومن ثم تنتقل إلى القوارض، كالفئران والسّناجب والقطط والكلاب المستأنسة، وكذلك الأرانب والجمال والماعز، وهي العائل الذي تعيش عليه تلك الحشرات الحاملة للمرض. فما إن يصاب البرغوث بتلك البكتيريا المميتة حتى تتكاثر في معدته بأعداد كبيرة، ثم تبدأ في التسرب إلى المريء، حيث تسد مجرى المريء تمامًا، وتتسبب بمنع وصول الدماء التي

= تحقيق دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث (دمشق: دار النوادر، 2008)، ج 19، ص 652.

(4) ابن حجر العسقلاني، ص 95.

(5) ثمّة شكوك في أن يكون الطبيب الياباني كيتاساتو شيباسابورو الذي كان يجري بحوثًا بشأن البكتيريا المسببة للطاعون في اليابان، قد سبق يرسين في اكتشاف العصية المسؤولة عن الإصابة بالمرض وعزلها. تفصيلًا يُنظر: Norman Howard-Jones, «Was Shibasaburo Kitasato the Co-Discoverer of the Plague Bacillus?,» *Perspectives in Biology and Medicine*, vol. 16, no. 2 (Winter 1973), pp. 292-307, and Joseph P. Byrne, *Encyclopedia of the Black Death* (California: ABC, CLIOU, 2012), p. xxii.

(6) M. Simond, M. L. Godley and P. D. Mouriquand, «Paul-Louis Simond and His Discovery of Plague Transmission by Rat Fleas: A Centenary,» *Journal of the Royal Society of Medicine*, vol. 91, no. 2 (February 1998), pp. 101-104.

تمتصها الحشرة من عائلها إلى معدتها. ومن ثم يُصاب البرغوث بهياج وجوع شديدين، يتسببان في شرهه إلى مزيد من الدماء. وما إن يلدغ البرغوث المصاب الفأر للحصول على دمه، فإنه سرعان ما يتقيأ تلك الدماء التي لا تجد لمعدته سبيلًا، فيعود دم الضحية محقونًا في وريدها، وملوثًا بأعداد كبيرة من تلك البكتيريا القاتلة، ومن ثم تنتقل العدوى من قارضٍ إلى آخر[7].

في أوقات فورة الوباء يقضي المرض سريعًا على القوارض في بقعة انتشاره، فيتطفل البرغوث المصاب الذي يفقد عائله الطبيعي، على أقرب عائلٍ يعوضه ندرة القوارض، ألا وهو الإنسان، فتبدأ البراغيث بلدغ البشر، ومن ثم يبدأ طور جديد للمرض، فتلك البكتيريا قادرة على الانتقال من إنسان إلى آخر عن طريق الاحتكاك اليومي، ومسِّ الأماكن المصابة والمصافحة والسعال، وغيرها من وسائل العدوى المعروفة. وتتراوح فترة الحضانة من التقاط العدوى إلى ظهور الأعراض المرضية بين يومين إلى ستة أيام، بحسب نوع الطاعون، وهي فترة لا تعطي الناجين من الإصابة بالطاعون كبير مجال للهرب من المدن التي يضربها الوباء. لذا، كان الوباء في فوراته الكبرى، وقبل اكتشاف العلاج، قادرًا على القضاء على نسبة 40-70 في المئة من سكان المدن الكبرى في غضون بضعة أيام فحسب! مُسببًا بذلك تغيرات عميقة على صعيد التنوع السكاني والكثافة السكانية وتنوع النشاط السكاني، وسرعان ما تُرخي تلك التغيرات بظلالها على العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين الناجين من الوباء.

أولًا: أنواع الطواعين

يعتقد علماء الميكروبيولوجيا أن بكتيريا «يرسينيا بيستس» المسببة للمرض حظيت بطفرة جينية طفيفة غير معروفة السبب، مكّنتها من غزو الخلايا الليمفاوية في أجساد الحيوانات ومن ثم البشر بنجاح، ويرجحون حدوث تلك الطفرة الجينية

---

(7) Lars Walloe, «Medieval and Modern Bubonic Plague: Some Clinical Continuities,» in: *Pestilential Complexities: Understanding Medieval Plague*, Vivian Nutton (ed.) (London: Wellcome Trust Centre for the History of Medicine at UCL, 2008), p. 69.

قبل 1500 إلى 2000 عام على أقصى تقدير[8]، ومن ثم رفعت تلك الطفرة الجينية تصنيف مرض الطاعون من مرض متوسط الخطورة إلى مرض خطِر جدًّا، فبدأت موجات الطاعون تلاحق البشر وتحصد أرواحهم أينما وجدوا مع بدايات العصور الوسطى[9].

كما أن العلماء يعتقدون أن أول موجة محققة من الطاعون الذي أصاب وعُرف لاحقًا باسم «الموت الأسود»، كانت موجة طاعون جستينيان الذي ضرب القسطنطينية نحو عام 541م، وأدى إلى تراجع عدد سكان الإمبراطورية البيزنطية إلى الربع[10]. وهو أول طاعون حقيقي موثق؛ إذ وصفت المصادر البيزنطية المعاصرة أعراض المرض على نحو لا يحتمل الجدل[11]. أما الأوبئة التي أصابت البشر وتسببت بالإبادة الجماعية للبشر هنا وهناك في بقاع المعمورة في العصور القديمة قبل طاعون جستينيان، فلا يمكن الجزم بشأنها؛ فأعراضها، كما تحدثت عنها مصادرها، تتشابه على الدارس بين أعراض أمراض وبائية أخرى، كالحصبة والجدري والكوليرا والجذام[12]، ولم يتعرف العلماء إلا إلى ثلاثة أنواع من الطاعون:

---

(8) Mark Achtman [et al.], «Microevolution and History of the Plague Bacillus, Yersinia Pestis,» *PNAS*, vol. 101, no. 51 (December 2004), p. 17837.

(9) ظلّ الأوروبيون، في العصور الوسطى، يعتقدون أن منشأ الطاعون هو بلاد الحبشة وأعالي النيل، اعتمادًا على إيماءة غامضة وردت عند أبقراط. يُنظر: Michael W. Dols, *The Black Death in the Middle East* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1978), pp. 40-41.

(10) محمد حسن، «صفة الطاعون في مصنفات العصر الوسيط»، في: لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي بن الخطيب، **ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف** (749هـ/ 1348م)، تحقيق ودراسة محمد حسن، سلسلة التاريخ (تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة)، 2013)، ص 26.

(11) عن طاعون جستينيان والكارثة الديموغرافية التي تسبب بها، يُنظر: Ronald Findlay and Mats Lundahl, «Demographic Shocks and the Factor Proportion, Model from the Plague of Justinian to the Black Death,» in: Ronald Findlay [et al.] (eds.), *Eli Heckscher: International Trade, and Economic History* (Cambridge, MA: MIT Press, 2006), pp. 176-178.

(12) تفصيلًا، يُنظر: Joseph P. Byrne, *The Black Death, Greenwood Guides to Historic Events of the Medieval World* (London: Greenwood Publishing Group, 2004), p. 45, and Ole Jorgen Benedictow, *The Black Death, 1346-1353: The Complete History* (Woodbridge: Boydell & Brewer, 2004), p. 158.

أ - طاعون الغدد الليمفاوية

يسمّى أيضًا الطاعون الدَّيْلي أو الدملي (Bubonic)، ويحدث عندما يلدغ البرغوث المصاب بالمرض الإنسان، ناقلًا إليه البكتيريا التي لا تلبث أن تتكاثر وتنتشر في مكان اللدغة، ثم تغزو الغدد الليمفاوية الموجودة في هذه المنطقة عن طريق السائل الليمفاوي. ويستغرق تطور المرض منذ وقت الإصابة وحتى وفاة الضحية ما متوسطه ستة أيام، يبدأ في خلالها كيس قيح أسود بالظهور في موضع لدغة البرغوث، مصحوبًا بأعراض أبرزها ارتفاع ملحوظ في درجة الحرارة، مع شعور المصاب بآلام مبرحة، ثم لا تلبث العقد الليمفاوية أن تتضخم في الإبط أو مفصل الفخذ أو العنق، لتتخذ في الأخير شكل دبل أو دمل كبير. ثم يحدث النزف عقب ذلك، مسببًا لطخًا أرجوانية قاتمة تحت سطح الجلد، ويتسبب هذا النزف في تسمم الجهاز العصبي، ما يؤدي إلى اعتلالات نفسية وعصبية تحدث قبيل الوفاة. وعلى الرغم من أن الطاعون الدبلي هو الأقل فتكًا وشراسة بين أشكال الطاعون، فإنه لا يزال، حتى أيامنا هذه، يقتل ما بين 50 إلى 60 في المئة من ضحاياه[13].

ب - الطاعون الرئوي

الطاعون الرئوي (Pneumonic Plague) أخطر أنواع الطاعون على الإطلاق، وتنتقل عدواه بين البشر عن طريق استنشاق الرذاذ في أثناء العطس والسعال من إنسان مصاب إلى إنسان آخر على نحو مباشر، ومن ثم تغزو البكتيريا الجهاز التنفسي مباشرة، وهذا أخطر بمراحل من غزو البكتيريا جسد الإنسان عن طريق الدم. وتراوح فترة حضانة الضحية لهذا النوع من الإصابة ما بين يوم واحد وأربعة أيام، وليس لهذا النوع من الطواعين علاج ولا لقاح مضاد حتى يومنا هذا، بل إنه يُستخدم في عالمنا المعاصر كسلاح بيولوجي. وأعراضه تتمثّل في ارتفاع شديد

(13) Rebecca Totaro, *Suffering in Paradise: The Bubonic Plague in English Literature from More to Milton*, Medieval & Renaissance Literary Studies (Pittsburgh: Duquesne University Press, 2005), p. 26.

في درجة الحرارة مع إحساس بالصداع والضعف والهزال، مصحوب بسُعال مستمر مع ضيق شديد في التنفس[14].

ج - طاعون تلوث الدم

يَحدث طاعون تلوث الدم (Septicemic Plague) نتيجة المضاعفات التي تنجم عن النوعين الآخرين من الطاعون، حيث تسبب العدوى البكتيرية تلوثًا في الدم، وتبدأ البكتيريا بإفراز السموم في الدم التي تتسبب بدورها في تجلطه داخل الأوعية الدموية، ومن ثم تبدأ تلك البقع النزفية القاتمة تحت الجلد (وهو ما أعطى المرض ذلك الاسم المرعب الذي اشتهر به في التاريخ، أي «الموت الأسود»)[15]، وتبدأ أعراضه بالقيء المراري المستمر الناتج من الإصابة بالتسمم[16].

من بين أقسى فورات الطاعون الكبرى التي تركت أثرًا بارزًا في مسيرة الحضارة الإنسانية، فورة الطاعون الجارف الذي أصاب الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بين عامي 748هـ/ 1347م و753هـ/ 1352م، ثم امتد إلى أنحاء قارة أوروبا المختلفة، على الأرجح عن طريق الموانئ الإيطالية، حتى اجتاح الأراضي المنخفضة ووصل إلى إنكلترا، فاجتث ثُلثي سكان القارة آنذاك.

دار جدل جانبي طويل بين العلماء والأطباء حول ما إذا كانت بكيتريا «يرسينيا بيستس» هي المسؤولة عن اجتثاث البشر في هذا الوباء، ولا سيما أن تلك البكتيريا تبدو أكثر سلمية في عصرنا هذا، مقارنة بأسلافها التي كانت أكثر شراسة في ما يتعلق بحصد أرواح البشر[17]. ومن ثم، اعتمد بعض العلماء فرضية تقضي بأن

---

(14) Byrne, *The Black Death*, p. 8.

(15) باللاتينية (Mors Nigra). استُخدم ذلك التعبير أوّل مرّة علمًا على الطاعون في بيت شعر في قصيدة نُظمت باللاتينية في عام 1350م لسيمون دو كوفينوس. يُنظر: Ibid., p. 2.

(16) المرجع نفسه.

(17) تُعد جزيرة مدغشقر الأفريقية أنشط حاضنات الطاعون على وجه الأرض في يومنا هذا. وتراقب منظمة الصحة العالمية نشاط الوباء هناك عن كثب؛ ذلك أن التقارير الطبية الواردة من هناك مؤخرًا بدأت في إثارة قلق المجتمع الدولي، حيث بدأت النشرات الدورية الطبية تدقّ ناقوس الخطر عندما تنبّه العلماء هناك إلى أن سلالة البراغيث الناقلة للمرض أضحت تبدي مقاومة ملحوظة للمبيدات =

هذه البكتيريا بريئة من الإبادة الجماعية للبشر في العصور الوسطى، وأن أعراض «الموت الأسود» التي تحدثت عنها مصادر العصور الوسطى تتشابه مع عدد آخر من أعراض الأمراض الوبائية. واشتبه الباحثون القائلون بتلك النظرية في أوبئة الجمرة الخبيثة والإيبولا والجذام الوبائي خصوصًا، ودام هذا الجدل طويلًا في الأوساط العلمية. ولم يُحسم الأمر إلا عندما عثر علماء الآثار، مؤخرًا، على مقبرة جماعية أسفل محطة قطارات لندن، دُفن فيها عدد من ضحايا الطاعون في عام 847هـ/ 1347م، ووجدوا عينة كافية من الأسنان، ونجحوا في استخلاص الحمض النووي (DNA) منها، وأسفر تحليلها عن الجزم بأن وفاة أصحاب تلك الأسنان كانت جراء إصابة مؤكدة وقاتلة ببكتيريا «يرسينيا بيستس»، فانقطع الجدل في هذا الشأن[18].

في أي حال، ترك طاعون العصور الوسطى أثرًا لا يمحوه الزمن في الذهنية الأوروبية؛ فحتى الآن ما انفك مؤرخو أوروبا يدرسون أثر موجات الطاعون المتلاحقة على أوجه الحياة في العصور الوسطى، حيث أسفر الطاعون عن تغيرات عميقة على صعد الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بل والعلمية أيضًا. ويكفي أن يراجع المرء عناوين الكتب التي تصدر هنا وهناك في أنحاء أوروبا المختلفة، ويتصدرها مصطلح Black death ليدرك من فوره عمق الأثر الذي خلفه الطاعون في الذهنية الأوروبية. ويجادل بعض المؤرخين الأوروبيين في أن الطاعون كان واحدًا من أهم أسباب الثورة الصناعية؛ إذ إن قلة الأيدي العاملة، جراء موجات الطاعون المتلاحقة، وما ترتب عنها من ارتفاع أجور الناجين بسبب زيادة الطلب وقلة المتاح من الأيدي العاملة، كانت من أهم أسباب لجوء الإنسان

= التي كانت تقضي عليها في السابق. وكذلك فإن عصيات بكتيريا «يرسينيا بيستس» أضحت تبدي مقاومة متنامية للمضادات الحيوية التي استُعملت للعلاج منها على مدى أجيال. وتخشى منظمة الصحة العالمية من ظهور سلالة جديدة من تلك البكتيريا التي تتسبب بـ «الموت الأسود»، مقاومة للعلاجات التي استخدمها الإنسان بنجاح على مدى قرن من الزمان كان كافيًا لينظر فيه الإنسان إلى الطاعون على أنه حادث من التاريخ. يُنظر: A. Guiyoule [et al.], «Recent Emergence of New Variants of Yersinia Pestis in Madagascar,» *Journal of Clinical Microbiology*, vol. 35, no. 11 (November 1997), pp. 2826-2833.

(18) Michel Drancourt and Didier Raoult, «Molecular Detection of Yersinia Pestis in Dental Pulp,» *Microbiology*, vol. 150, no. 2 (2004), pp. 263-264.

إلى الآلة. كما أنهم يجادلون في أنه لولا الطاعون لما بزغ فجر الرأسمالية وانتهى عصر الإقطاع على النحو الذي شهدته العصور الوسطى المتأخرة[19]؛ ذلك أن موجات الطاعون حصدت أرواح عدد كبير من أقنان الأرض، وهم عماد النظام الإقطاعي، فتسبب ذلك في زيادة انتفاضات الفلاحين الذين طُلب منهم القيام بالعمل نفسه في ظل ذلك النقص العددي الحاد، وفي الأخير أُجبر الملّاك على استئجارهم، وهو الأمر الذي أوجد بُعدًا آخر في العلاقات الاقتصادية في أوروبا في نهايات الحقبة الوسيطة[20].

ثانيًا: الطاعون والعالم الإسلامي

1 - الطاعون في التراث العربي

احتل الطاعون مكانة مرموقة في التراث العربي بصفة عامة؛ إذ استدعى بتوصيفه كارثة إنسانية كبرى، الكثير من التساؤلات الدينية والفلسفية العميقة التي تعدت النطاق الضيّق للطب والمرض والوقاية، من قبيل هل كان الوباء الذي يصيب الناس بلا تمييز، عقابًا جماعيًا من الله للبشر على خطاياهم؟ وهل ثمة عدوى؟ فإذا كان هناك عدوى، فهل يُعدي المرض بذاته، أم لعلة خلقها الله فيه؟ ومن ثم، لا غرابة في أن يشكل الطاعون مبحثًا علميًا تقاطعت فيه حقول الحديث والفقه والفلسفة، فضلًا عن مجال الاختصاص الأصيل وهو الطب. ولا أبالغ في الاستدلال على ذلك بأن مُطالع أمهات كتب الحديث

---

(19) حسام مختار العبادي، «وباء الطاعون في بلاد المشرق»، في: ابن خلدون: **البحر المتوسط في القرن الرابع عشر: قيام وسقوط إمبراطوريات، معرض بالقصر الملكي في إشبيلية، مايو - سبتمبر 2006**: دراسات، تنسيق ماريا خيسوس فيجيرا مولينز، تقديم النسخة العربية إسماعيل سراج الدين، المنجي بو سنينة ومشعل بن جاسم آل ثاني (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية للنشر والتوزيع، 2007)، ص 263.

(20) يُنظر على سبيل المثال: Beatrice Gottlieb, *The Family in the Western World from the Black Death to the Industrial Age* (Oxford: Oxford University Press, 1993), p. 234; David Herlihy, *The Black Death and the Transformation of the West*, Samuel Kline Cohn (ed. & intr.) (Massachusetts: Harvard University Press, 1997), p. 54, and Robert S. Gottfried, *The Black Death: Natural and Human Disaster in Medieval Europe* (New York: Simon and Schuster, 2010), p. 17.

سيجد بابًا ثابتًا فيها، بل وفي غيرها من كتب السُّنن، يضم ما أُثر عن النبي في شأن الطاعون[21].

اعتُبر المطعون شهيدًا؛ إذ رُوي عن النبي أنه قال: «مَن شهداء أمتي؟ قالوا: القتلى قال: إن شهداء أمتي إذًا لقليل. القتل في سبيل الله شهادة، والطاعون شهادة، والبطن شهادة، والمرأة يقتلها ولدها جمعًا شهادة»[22]. وقال أيضًا: «الطاعون شهادة لكل مسلم»[23]. وروي عنه أنه قال: «فناء أمتي بالطعن والطاعون»[24].

---

(21) على سبيل المثال، يُنظر: مالك بن أنس، **موطأ الإمام مالك**، صحّحه ورقّمه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1985)، ج 2، ص 894، «باب ما جاء في الطاعون». وعند البخاري في **صحيحه**: «باب ما ذكر في الطاعون»، يُنظر: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري، المسمى الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه**، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، طبعة مصوّرة عن طبعة بولاق 1312هـ/ 1894م (القاهرة: دار طوق النجاة، 2001)، ج 7، ص 129. وعند مسلم في صحيحه باب «صيانة المدينة من دخول الطاعون، والدجال إليها»، يُنظر: أبو الحسين مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم، المسمّى المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1991)، ج 2، ص 1005، وباب «الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها»، ج 4، ص 1737. وعند الترمذي في **سننه**: «باب ما جاء في كراهية الفرار من الطاعون»، يُنظر: أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، **الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي**، تحقيق أحمد محمد شاكر، محمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة، ط 2 (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1975)، ج 3، ص 369. وعند أبي داود في **سننه**، «باب الخروج من الطاعون»، يُنظر: سليمان بن الأشعث السجستاني أبو داود، **سنن أبي داود**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت: المكتبة العصرية، [د. ت.])، ج 3، ص 186، وباب «في فضل من مات في الطاعون»، ج 3، ص 188. في حين دمج ابن ماجة، في **سننه**، مادة «الطاعون» في بابي «ما يرجى فيه الشهادة»، يُنظر: أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة، **سنن ابن ماجة**، تحقيق شعيب الأرناؤوط [وآخرون] (بيروت: دار الرسالة العالمية، 2009)، ج 4، ص 85، و«العقوبات»، ج 5، ص 150.

(22) أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، **موسوعة الطب النبوي**، دراسة وتحقيق مصطفى خضر دونمز التركي، 2 ج (بيروت: دار ابن حزم، 2006)، ح. 607، ج 2، ص 577.

(23) البخاري، ح. 5732، ج 7، ص 131.

(24) أبو داود سليمان بن داود بن الجارود البصري الطيالسي، **مسند أبي داود الطيالسي**، تحقيق محمد بن عبد المحسن التركي (القاهرة: دار هجر، 1999)، ح. 536، ج 1، ص 430؛ أبو يعقوب اسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي المروزي بن راهويه، **مسند اسحاق بن راهويه**، تحقيق عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي (المدينة المنورة: مكتبة الإيمان، 1991)، ح. 1376، ج 3، ص 761، وعبد الملك بن محمد بن عبد الله بن بشران، **أمالي ابن بشران**، ضبط نصّه أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف العزازي (الرياض: دار الوطن، 1997)، ح. 99، ص 64.

كما نصح النبي لأصحابه بعدم الفرار من الطاعون إذا وقع، أو دخول أرض أصيبت بالطاعون، فقال: «إذا سمعتم بالطاعون وأنتم بأرض فلا تخرجوا فرارًا منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوها»[25]. ليس هذا فحَسب، بل رغّب النبي الصابر في الطاعون أيضًا، وحثَّ المسلمين على عدم الفرار منه بقوله: «الميت فيه شهيد، والقائم المحتسب فيه كالمرابط في سبيل الله، والفار منه كالفار من الزحف»[26].

ركزت المصادر العربية، على اختلاف مشاربها، على ما يعرض للمريض المصاب بالطاعون منذ الإصابة حتى الوفاة؛ إذ وصف الطبيب أبو بكر الرازي الطاعون بقوله: «ورم حار يعرض في الأربيات والإبط ويقتل في أربعة أيام أو خمسة»[27]. كما حدد أعراض المرض على نحو دقيق بقوله: «قال: يعرض مع الطاعُون الوبائي اختلاط العقل وبرد الأطراف، واختلاف المرار ونزفه، ووجع البطن وتمدده، وبراز مري، ونفخ وأبوال مائية رقيقة ومرارية، وسدَد ورعاف وحرارة في الصَّدر، وكرب وسواد اللسان وعطش وسقوط الشهوة، وأشياء أخرى رديئة»[28]. كما وصف ابن سينا الطاعون بأنه مادة سمية، تُحدث ورمًا قتالًا، يحدث في المواضع الرخوة والمغابن من البدن، وأغلب ما يكون تحت الإبط، أو خلف الأذن أو عند الأرنبة. وقد بحث ابن سينا من دون جدوى عن مادة الطاعون في كتب الأطباء الإغريق القدامى، وذكر أنهم اصطلحوا على أمراض وبائية عدة تشبه

---

(25) عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي بن أبي شيبة، **مسند ابن أبي شيبة**، تحقيق عادل بن يوسف العزازي وأحمد فريد المزيدي (الرياض: دار الوطن، 1997)، ح. 147، ج 1، ص 115، وأحمد بن محمد بن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، 50 ج، سلسلة الموسوعة الحديثة 1 (بيروت: مؤسسة الرسالة، 2001)، ح. 1508، ج 3، ص 97.

(26) ابن راهويه، ح. 1376، ج 3، ص 761؛ ابن حنبل، ح. 14478، ج 22، ص 365، وأحمد بن علي بن المثنى بن هلال التميمي أبو يعلى الموصلي، **مسند أبي يعلى الموصلي**، تحقيق حسين سليم أسد (دمشق: دار المأمون للتراث، 1984)، ح. 4408، ج 7، ص 379.

(27) أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، **الحاوي في الطب**، حقّقه واعتنى به هيثم خليفة طعيمي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2002)، ج 5، ص 8.

(28) المرجع نفسه، ج 4، ص 431.

الطاعون مثل: طرفيترس وقوماطا وبوماخلا وبوبوس، وذكر أنه ليس بمقدوره التفصيل في تلك المسميات وعلاقتها بالطاعون[29].

وصف ابن قيم الجوزية (المتوفى في عام 751هـ/ 1350م) أعراض الطاعون وصفًا دقيقًا بقوله: «إذا وقع الخراج في اللحوم الرخوة، والمغابن، وخلف الأذن والأرنبة، وكان من جنس فاسد، سُمِّي طاعونًا، وسببه دم رديء مائل إلى العفونة والفساد، مستحيل إلى جوهر سُمِّي، يفسد العضو ويغير ما يليه، وربما رشح دمًا وصَديدًا، ويؤدي إلى القلب كيفية رديئة، فيحدث القيء والخفقان والغشي»[30]. كما وصف ابن حجر العسقلاني (المتوفى في عام 852هـ/ 1448م) أعراض الطاعون، وركز في توصيفه على تلك القروح التي تخرج في الجسد، فتكون في المراق أو الآباط والبدن جميعه في المواضع اللينة، ويكون معها ورم وألم شديد، وتخرج تلك القروح مع لهب، ويسود ما حولها أو يخضر، أو يحمر حمرة بنفسجية كدرة، ويحصل معه خفقان القلب والقيء[31]. وكان لسان الدين بن الخطيب (المتوفى في عام 776هـ/ 1374م) أدق في توصيف ألوان البقع النزفية التي تصاحب طاعون تلوث الدم، كالخضراء والطاووسية والأسمانجونية (الزرقة الخفيفة) والسوداء[32].

بيد أن طبيبًا لم يصف أعراض الطاعون وتطورها بدقة كما فعل ابن خاتمة (المتوفى في عام 770هـ/ 1368م) في رسالته عن الطاعون؛ إذ إنه اعتمد على ملاحظاته وخبرته الطويلة في متابعة الحالات المصابة، وأجملَ أعراض أنواع الطاعون الثلاثة معًا، حتى إنه يمكن تمييز نوع الطاعون ببساطة من خلال توصيفه

(29) كان طاعون جيستنيان الذي ضرب القسطنطينية في عام 541م، على الأرجح، أوّل وباء طاعوني عرفته البشرية كما ذُكر آنفًا. ومن ثم، لم يتعرّف الأطباء الإغريق القدامى إلى الطاعون. يُنظر: أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، **القانون في الطب**، وضع حواشيه محمد أمين الضناوي (بيروت: دار الكتب العلمية، 1999)، ج 3، ص 164.

(30) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن قيم الجوزية، **زاد المعاد في هدى خير العباد**، ط 27 (بيروت: مؤسسة الرسالة؛ الكويت: مكتبة المنار الإسلامية، 1994)، ج 4، ص 35.

(31) ابن حجر العسقلاني، ج 97، وابن الملقن، ج 19، ص 651-652.

(32) لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي بن الخطيب، «مقنعة السائل عن المرض الهائل»، في: **ثلاث رسائل**، ص 100.

لتلك الأعراض؛ فهو ذكر أن أعراض الطاعون العامة تتمثّل في «حمى خبيثة يتبعها كرب وعرق غير عام لا يعقب راحة، ولا ترتفع عقبه حرارة، وقد توجد لها فتور في اليوم التالي واضطراب في عامة الأوقات، وقد يتبعها تشنج وبرودة في الأطراف مع القيء المراري المستمر، أو ثقل في الصدر مصحوب بضيق في التنفس، أو نفث دم أو نخس في أحد الجانبين مع التهاب شديد وسواد في اللسان، وقد تكون بعض هذه الأعراض من دون غيرها، أو تتداخل معًا، ويكون ذلك مع نتوء عُقَدٍ تحت الإبطين أو في الارْبيّتين أو خلف الأذنين، وقد تحدث قروح سُود في مواضع من الجسد»[33].

2 - الجدل بين الفقيه والطبيب حول أسباب الطاعون

أدى غياب المعرفة العلمية الدقيقة، وكذلك انعدام فرص التجريب إلى تباين آراء الأطباء والفقهاء في شأن أسباب الطاعون. وكان عند العامة أيضًا معتقدات نمت بهدوء بعيدًا عن هؤلاء وهؤلاء؛ فعلى الصعيد الطبي، اعتمد الأطباء المسلمون نظرية الطبيب اليوناني كلاوديوس جالينوس (C. Galenos) (المتوفى في عام 199م) في سبب شيوع الوباء والحمى التي ردت الأوبئة والحميات عمومًا، وليس الطاعون خصوصًا، إلى الرطوبة وفساد الهواء الذي يؤدي إلى فساد الأمزجة والأبدان. من ثم، أكد الأطباء المسلمون أن التوسع في العمران يؤدي إلى إحداث العفن والرطوبات الفاسدة في الجو، وبالتالي يتسبَّب في وقوع الأوبئة، وعلى رأسها الطواعين والحميات المهلكة[34]. استنادًا إلى تلك النظرية، فسَّر ابن خلدون (المتوفى في عام 808هـ/ 1405م) ظهور الأوبئة الناجمة عن كثرة الساكنة وانتشار العمران، وما يصاحبه من كثرة العفن والرطوبات الفاسدة، فإذا اشتد فساد

(33) أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد الأنصاري بن خاتمة الأندلسي، «تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد»، في: ابن الخطيب، **ثلاث رسائل**، ص 130-131.

(34) ابن سينا، ج 1، ص 259؛ ابن خاتمة الأندلسي، ص 132، ومحمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي بن الأزرق الغرناطي، بدائع **السلك في طبائع الملك**، تحقيق علي **سامي النشار** (بغداد: منشورات وزارة الإعلام، 1977)، ج 2، ص 271.

الهواء وقع المرض في الرئة[35]. ولا شك في أن معاينته أعراض الطاعون الرئوي إبان مقامه في تونس كان لها كبير أثر في صوغ تلك الملاحظات[36].

أما ابن النفيس (المتوفى في عام 687هـ/ 1288م)، فربط حدوث الوباء ببعض المسببات الأرضية والسماوية، في منظومةٍ تعمل معًا بعيدًا عن البدن. فأمّا الأرضية منها، فكثرة وجود البرك والمستنقعات، أو ما سمّاه الماء الآسن، في المدن، مع انتشار الجيف الكثيرة. وأمّا السماوية، فكثرة الشهب، وهبوب ريحي الجنوب والصبا في الكانونين (كانون الأول/ ديسمبر وكانون الثاني/ يناير)، مع نُدرة المطر في الشتاء[37].

هذا في حين رأى بعض الأطباء القدامى تأثيرًا بالغًا للفلك وقرانات الأجرام السماوية في حدوث الوباء، وهو رأي ذكره أبقراط (المتوفى في عام 370 ق.م) في كتابه **إفيديميا**. وألمح إليه ابن سينا من دون التخلي عن نظرية جالينوس في أن فساد الهواء هو السبب المباشر للوباء، عندما تحدث عن الأسباب السماوية الخفية التي تؤدي إلى فساد الهواء[38]. وهو رأي رفضه ابن خلدون تمامًا. بيد أن لسان الدين بن الخطيب عدَّ حركات الأجرام السماوية وقراناتها السبب الأقصى المفضي إلى حدوث الوباء[39]. وربط الياس اليهودي المتطبب بين حدوث الوباء وقران المريخ وزُحل بصورة خاصة[40].

في تاريخ الطب الإسلامي نقطة جديرة بالتسجيل أثارها الطبيب ابن سينا عندما تحدث عما سمّاه عوارض الوباء، وذكر من بين العلامات التي تدل على

(35) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **تاريخ ابن خلدون، المسمّى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، تحقيق خليل شحادة (بيروت: دار الفكر، 1988)، ج 1، ص 376.

(36) حسن، ص 64.

(37) ابن حجر العسقلاني، ص 101.

(38) ابن سينا، ج 1، ص 259.

(39) ابن الخطيب، «مقنعة السائل»، ص 108.

(40) الياس بن إبراهيم الإسباني اليهودي، «مجنة الطاعون والوباء»، مخطوط ضمن مجموع بمكتبة تشيستربتي، برقم 3676، ورقة 188 ظ.

قرب وقوعه ما نصه: «أن ترى الحشرات المتولدة من العفونة قد كثرت، وأن ترى الفأر والحيوانات التي تسكن قعر الأرض تهرب إلى ظاهر الأرض»[41]. وعلى الرغم من أن ابن سينا قال بما سبق، وقال به جالينوس، من أن فساد الهواء هو سبب الوباء، فإنه بتلك الملاحظات التي عدها من علامات حدوث الوباء لا من أسبابه، كاد يشير إلى المسببات الحقيقية للطاعون؛ فإشارة ابن سينا إلى علاقة الحشرات والقوارض بالوباء هي، على الأرجح، أقدم إشارة وردت في مرجع طبي تحدثت عن سلوك القوارض والحشرات قبيل وقوع الطاعون.

بعد ابن سينا بقرنين من الزمان، تقريبًا، دوَّن أبو عبد الله زكريا القزويني (المتوفى في عام 628هـ/ 1230م) معجمه الجغرافي المسمى **آثار البلاد وأخبار العباد**، وعندما جاء إلى ذكر مدينة الرُّصافة التي شيدها هشام بن عبد الملك، قصبةً للخلافة بديلًا من دمشق، هربًا من ضرب الطاعون المتكرر لها، أردف ذلك كله بقوله: «وكان هشام بن عبد الملك يفزع إليها من البَقِّ في شاطئ الفرات»[42].

لم يذكر القزويني مصدره في ما ذكره عن هشام بن عبد الملك، وعن استغاثته بالرُّصافة هربًا من حشرة بقِّ الفرات، لكن مصدره المباشر، على الأرجح، كان رسالة كتبها الطبيب البغدادي النصراني أبو الحسن بن عبدون بن سعدون المعروف بابن بطلان (المتوفى في عام 444هـ/ 1052م)، وهي عبارة عن تقرير عن رحلته التي بدأها بزيارة أنطاكية واختتمها بمصر، وكان قد بعث بها إلى صديقه هلال بن المحسن الصابئ (المتوفى في عام 448هـ/ 1056م) ببغداد من باب إطْلاعه على أخباره عقب سفره. نقلها محمد بن هلال بن المحسن الصابئ، الملَقب بغرس

(41) ابن سينا، ج 3، ص 89. وفي هذا السياق أيضًا كتب شاعر مجهول قاصدًا ذم بلد ما قائلًا:
فبالمصر برغوث وحمى وحصبة ... وموم وطاعون وكل شرور
يُنظر: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، رسائل **للجاحظ**، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1964)، ج 2، ص 388.

(42) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ط 2 (بيروت: دار صادر، 1995)، ج 3، ص 48. يُقارن مع: أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود القزويني، **آثار البلاد وأخبار العباد** (بيروت: دار صادر، [د. ت.])، ص 198.

النعمة (المتوفى في عام 480هـ/ 1078م) بنصها في كتابه المسمّى **الربيع**، وهو في عداد الكتب المفقودة، بيد أن القفطي (المتوفى في عام 646هـ/ 1248م) نقل تلك الرسالة بكاملها في كتابه **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**(43). أما في ما يتعلق بمصدر ابن بطلان نفسه في تلك الرسالة عن هشام والرصافة وحشرة بقّ الفرات، فذلك ما لا سبيل إلى إدراكه.

في أي حال، ربما يفتح ما جاء عند القزويني باب الجدل بشأن براءة حشرة البرغوث (المتهم التقليدي بنشر المرض) من التسبب في عدد من الطواعين الكارثية التي ضربت العراق والشام ومصر وشمال أفريقيا في خلال العصر الأموي؛ إذ ربما كانت حشرة البقّ (cimex) هي الفاعل المجهول الذي يجب توجيه أصابع الاتهام إليه(44).

أما مذهب الفقهاء والمحدثين في سبب تمكن الطاعون من الناس وفتكه بهم (على نحو انتقائي)، فيرجع إلى كونه وخزة من وخزات الجن، وذلك اعتمادًا على حديث عائشة عن النبي؛ إذ قالت: «ذُكر الطاعون فذكرت أن النبي قال: وخزة تصيب أمتي من أعدائهم من الجن»(45). وردّ جمهور الفقهاء على مزاعم الأطباء بأن فساد الهواء هو المسبب المباشر للطاعون، مستدلين بأن الطاعون يقع في

---

(43) يُنظر: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، تحقيق إبراهيم شمس الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، 2005)، ص 294، ونُشِرَت في: إحسان عباس، **شذرات من كتب مفقودة في التاريخ** (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988)، ج 2، ص 342-348.

(44) الجدير بالذكر أن البحوث والدراسات الحديثة التي أُجريت عن التغيرات المناخية في أوروبا في العصور الوسطى تميل إلى تبرئة الفأر الأسود من الاتهام بنشر العدوى بين سكان أوروبا؛ إذ استعان الباحثون بطبقات الثلج وجذوع الأشجار في التأريخ للمناخ في العصور الوسطى، ومن ثم درسوا علاقة الأحوال المناخية السائدة بازدهار سلالات القوارض، وخرجوا بأن النتائج التي حصلوا عليها تميل إلى اتهام حيوان اليربوع (Gerbil) بالتسبب في استشراء الوباء الذي أسفر عن فناء ثلثي سكان القارة العجوز. يُنظر: Christopher Duncan and Susan Scott, «What Caused the Black Death?,» *History of Medicine*, vol. 81 (2005), pp. 315-320.

(45) يعقوب بن إبراهيم أبو يوسف، **الآثار** (بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.])، ح. 907، ص 201؛ محمد بن الحسن الشيباني، **كتاب الآثار** (بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.])، ح. 267، ج 2، ص 292؛ ابن حنبل، ح. 19528، ج 32، ص 293، وأبو يعلى الموصلي، ح. 4664، ج 8، ص 125. وفي رواية «طعن أعدائكم من الجن»، يُنظر: الطيالسي، ح. 536، ص 430.

أعدل الفصول، وفي أفسح البلاد وأطيبها هواءً وماءً. ولو كان سببه الهواء لعمّ الناس جميعهم والحيوانات كلها، فالمشاهَد والمُعايَن والمحقق من أخباره أنه يصيب بعض الناس والحيوانات ولا يصيب بعضهم الآخر ممن يتشابه في جنسه ومزاجه، وربما يأخذ أهل بيت من بلد بأجمعهم، ولا يدخل بيتًا مجاورًا لهم أصلًا، أو يدخل بيتًا ولا يصيب منهم إلا بعضهم فحسب(46).

لما كان الطاعون وخزة من وخزات الجن، فإن الأدعية نفسها التي تمنع من مس الجن والشياطين للإنس تعد كافية للوقاية من الطاعون(47)، فضلًا عن أدعية بعينها تمنع من الوباء(48). وتحتوي رسالة البيلوني (المتوفى في عام 1042هـ/ 1632م) في الطاعون على الكثير من الأدعية والوصايا والأحجبة للوقاية من الطاعون، وكانت تعلق على الصدر وفوق الرأس وخلف الباب، والمثير للدهشة أن بعضها كُتب بالعبرية بالحرف العربي(49).

جادل الأطباءُ الفقهاءَ والمحدثين بأن لو كان مبدأ الطاعون وخز الجن، فلمَ

---

(46) مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي، **إخلاص الوداد في صدق الميعاد** ويليه ما يفعله الأطباء والداعون بدفع شر الطاعون، تقديم وتعليق خالد بن العربي مدرك (بيروت: دار البشائر الإسلامية، 2000)، ص 38، «ما يفعله الأطباء والداعون بدفع شر الطاعون».

(47) زكريا بن محمد الأنصاري، «تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين»، مخطوط بمكتبة جامعة الملك سعود، برقم 3113 ز، ورقات 3 و3-ظ.

(48) مثل الدعاء بدعاء يونس: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» وتكراره 136 مرة، أو الدعاء بدعاء السلف عقب النازلة: «اللهم إنا نعوذ بك من عظيم البلاء في النفس والأهل، والمال والولد، الله أكبر (ثلاثًا) ممّا نخاف ونحذر، الله أكبر في عدد ذنوبنا حتى تغفر، اللهم كما شفعت فينا نبينا محمدًا فأمهلنا وعَمِّر بنا منازلنا، ولا تؤاخذنا بسوء أفعالنا، ولا تهلكنا بخطايانا يا رب العالمين». يُنظر: الكرمي الحنبلي، ص 48. وثمة دعاء آخر كان يُكتب ويعلّق في عنق الشخص: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، اللهم سَكِّن هيبة صدمة قهرمان الجبروت بألطافك الخفية الواردة النازلة من باب الملكوت حتى نتشبث بلطفك ونعتصم عن إنزال قدرتك، يا ذا القدرة الكاملة، والرحمة الشاملة، يا ذا الجلال والإكرام». يُنظر ص 48. كما نُصح الناس بتكرار اسم الله المؤمن 136 مرة، والحكيم 88 مرة، والحفيظ 890 مرة، والرقيب 300 مرة يوميًا للوقاية من الطاعون. يُنظر ص 49.

(49) فتح الله بن محمود البيلوني، «خلاصة ما يعول عليه السامعون في أدوية دفع الوباء والطاعون»، مخطوط بمكتبة جامعة الملك سعود، برقم 5065، ورقة 14ظ وما بعدها.

يقع أحيانًا في شهر رمضَان، حيث الجن والشياطين مصفدة في أغلالها، لا تستطيع نفعًا لغيرها ولا ضَرًّا؟[50]. وبلغ من حدة ذلك الجدل أن نَعت السُّرمَري الأطباء بـ «الجُهَّال المتسبين إلى العلم وليسُوا من أهله»[51]، وفي المغرب والأندلس نعت فقهاء المالكية مذهب الأطباء في الطاعون بصيغ شبيهة، كقولهم: «مذهب أهل الطب والجاهلية»، أو «الجاهلية والعقول الطبية»[52]. وكان رأي لسان الدين بن الخطيب القائل إن قرانات الأجرام السماوية هي المسبب الحقيقي للطاعون، وليس وخز الجن، من الأسباب التي دعت خصومه إلى تكفيره والدعوة إلى محاكمته[53].

حاول ابن حجر العسقلاني التخفيف من حدة ذلك الجدل، وذلك بالتوفيق بين مذهب الأطباء والفقهاء في سبب الطاعون، فقال إن للأطباء عذرًا إن لم يذكروا وخز الجن سببًا للمرض في ما يذكرونه من أسبابه، ذلك أن هذا أمر لا يُدرك بالعقل ولا بالتجربة[54]، بل إنه انتهى إلى انعدام التناقض بين ما يقول به الأطباء وبين أهل الحديث بقوله: «وأما كون بعض الأوجاع في الطاعون قد تكون من غلبة الطبائع، لا ينافي كونه من وخز الجن، لاحتمال أن يحصل ذلك التغيير عند وقوع الطعنة، فينزعج بدن المطعون، فيفور به الدم وتحصل له الكيفية الرديئة التي شخَّصَها الأطباء بحسب ما اقتضته قواعدهم، ولا ينافي ذلك أصل سببه الأول»[55].

بعيدًا عن النُّخبة، شاع بين العوام الاعتقاد أن الطاعون هو عقاب إلهي جماعي، يصيب الناس جراء انشغالهم بالدنيا وانهماكهم في اللذات والمعاصي، وإهمالهم الفروض والطاعات[56]. ولهذا الاعتقاد جذور كتابية بلا ريب؛ فمُطالع

(50) الأنصاري، ورقة 2ظ، وجلال الدين أبو بكر عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون»، مخطوط ضمن مجموع بالمكتبة السليمانية، م. إسماعيل لالا برقم 678، ورقة 216 ظ.

(51) أبو المظفر يوسف بن محمد السرمري، **كتاب فيه ذكر الوباء والطاعون**، علّق عليه وخرّج أحاديثه شوكت بن رفقي بن شوكت (عمّان: الدار الأثرية؛ دمشق: دار المحبة، 2005)، ص 44.

(52) حسن، ص 37.

(53) المرجع نفسه، ص 66.

(54) ابن حجر العسقلاني، ص 105.

(55) المرجع نفسه، ص 108، يُقارن مع: الأنصاري، ورقة 3و.

(56) الكرمي الحنبلي، ص 38.

أسفار العهد القديم، ولا سيما نبوءات إرميا وأشعيا على وجه التحديد، سيجد الوباء (وليس بالضرورة الطاعون فحسب) المقترن بالفناء والموت انتقامًا إلهيًا عادلًا جراء المعاصي والكفر والجحود، حتى إن أحد الرهبان السُّريان وصف الطاعون بأنه «معصرة تمتزج فيها النهاية بالعقاب الإلهي»(57)، وفي موضع آخر قال ما نصه: «لقد رَاق إلى الرب ما حدث في المقابر»(58). ومع ذلك، حاول بعض الفقهاء التأصيل لهذا الاعتقاد من خلال تفسيرهم الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30].

من اللافت أن تنتشر تلك المعتقدات بين المسلمين على الرغم من كثرة الأحاديث النبوية التي تصف نزول الطاعون بالرحمة الإلهية للمؤمنين، وبأن المطعون شهيد(59)، حتى إن بعض الفقهاء توقف في مسألة جواز الدعاء بارتفاع الطاعون عن الناس كونه رحمة في جوهره، وليس عذابًا أو عقابًا ابتداءً(60). ومع الوقت ظل هذا الاعتقاد يسري في أوساط الناس في عقب كل طاعون، حتى إن السلطان المملوكي برسباي أمر في عقب طاعون عام 841هـ/ 1438م بمنع

---

(57) ديونسيوس التلمحري، «تاريخ الأزمنة»، في: شادية توفيق حافظ، «ديونسيوس التلمحري ومخطوطته تاريخ الأزمنة: ترجمة ودراسة» (أطروحة دكتوراه غير منشورة، قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب، جامعة القاهرة، 1982)، ص 137. (وهو في الأصل من تأليف راهب سرياني عاش بدير زُقنين بنواحي ديار بكر، صنفه بالسريانية وفرغ منه نحو عام 159هـ/ 775م، ونشره الأب شابو (J. B. Chabot) مترجمًا من السريانية منحولًا للبطريرك ديونسيوس التلمحري في باريس في عام 1895. وحذت شادية توفيق حافظ حذوه في ترجمتها العربية المنصوص عليها أعلاه).

(58) المرجع نفسه، ص 139.

(59) هناك جملة من الأحاديث في هذا الصدد، أبرزها حديث أبي عسيب عن النبي: «الطاعون شهادة لأمتي، ورحمة لهم». وللمزيد، يُنظر مناقشة ابن حجر العسقلاني لهذه المسألة في الباب الثاني من مصنفه عن الطاعون والذي جاء بعنوان «في بيان كون الطاعون شهادة للمسلمين ورحمة»، في: ابن حجر العسقلاني، ص 179 وما بعدها.

(60) رأى الشافعية جواز الدعاء بارتفاعه، لأن الطاعون، في الأخير، من جملة النوازل بالمسلمين، وقال الحنابلة يُكره الدعاء برفعه، لأن الموت غالب فيه، فيتضمن الدعاء رفع الموت، وهو ما لا يجوز أن يدعو به مسلم. ونقل ابن حجر عن الفقيه ولي الدين الملوي فتواه بحرمة الدعاء برفعه مُطلقًا، كونه شهادة ورحمة وثواب جزيل بعقب الصبر عليه، مع كونه قضاءً وقدرًا، مع ثبوت النهي عن الفرار منه عند جملة الفقهاء. تفصيلًا يُنظر: ابن حجر العسقلاني، ص 315-319.

خروج النساء من بيوتهن أيًّا كانت الأسباب، مُتهمًا إياهن بالتسبب في حدوث الطاعون بفجورهن وانغماسهن في إغواء الرجال في الأسواق والطرقات[61].

كما أفرد ابن نجيم المصري (المتوفى في عام 970هـ/ 1562م) فصلًا في كتابه عن الطاعون، ناقش فيه ذلك التناقض بين كون الطاعون شهادةً ورحمة، واعتباره عقابًا على المعصية وشيوع الرذائل في الوقت نفسه[62]. ورُفع سُؤال إلى جلال الدين السُّيوطي في منظومةٍ عن الطاعون بدأها السَّائل بقوله:

أظن الناس بالآثام باؤوا فكان جزاؤهم هذا الوباءُ[63]

كما شاع بين العامة أيضًا أن للحيوانات القدرة على الاستشعار بقرب وقوع الوباء، فإذا عوت الكلاب وجاوبتها الذئاب فإن ذلك علامة قرب وقوع الوباء والموتان الجارف[64]. وشاع بينهم كذلك أن التقلد بالياقوت الأصفر أو التختم بشيء منه في أيام الوباء، يمنع صاحبه الإصابة بالطاعون[65].

3 - الطاعون بين الوقاية والعلاج في طب العصور الوسطى

سلَّم معظم الأطباء المسلمين بأن الطاعون ليس مرضًا يمكن العلاج منه في حال وقوعه، فقالوا باستحالة العلاج منه بالأدوية والعقاقير[66]. وذهب جهدهم

(61) يُنظر: علي بن داود بن إبراهيم نور الدين الخطيب الجوهري بن الصيرفي، **نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان**، تحقيق حسن حبشي، 4 ج (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1970-1994)، ج 2، ص 404-409.

(62) زين الدين إبراهيم بن محمد بن نجيم المصري، «رسالة في ما ضبط أهل النقل في خبر الفصل في حق الطاعون»، مخطوط بمكتبة جامعة الملك سعود، برقم 5935، 2و، وما بعدها.

(63) السيوطي، الورقة 218و، ويُنظر أيضًا منظومة على هيئة سؤال وجواب في الطاعون للسيوطي، وُجدت في آخر كتاب: الأنصاري، ص 7و.

(64) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، **عيون الأخبار** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1997)، ج 1، ص 241.

(65) إبراهيم بن محمد بن محمود بن بدر بن الناجي، **التعليق الرشيق في التختم بالعقيق**، تحقيق جمال عزون (الرياض: دار التوحيد، 2008)، ج 18، وأحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي، **أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل**، تحقيق أحمد بن فريد المزيدي (بيروت: دار الكتب العلمية، 1998)، ص 154.

(66) تداول الأطباء القول إن ثلاثة أشياء ليس لطبيب فيها حيلة، الحماقة والطاعون والهرم. =

إلى طرائق الوقاية منه فحسب، فتناقلوا قولًا مأثورًا عن الإمام الشافعي: «لم أر أنفع للوباء من البنفسج يُدهن به ويُشرب»[67]. وفي سبيل الوقاية من المرض، وقت انتشار الوباء، نصح الأطباء الناس بترك الأطعمة الرطبة، والمداومة على الفصد (إخراج الدم الفاسد بالتشريط)، وحذر الامتلاء عند الطعام والشراب، وكذلك الحد من الجماع، ومن النوم ساعات طويلة، كما نصحُوا بضرورة تناول الطعام ساخنًا، والإكثار من الأطعمة السريعة الهضم التي لا تُثقل على المعدة كالعدس، وكثرة الذهاب إلى الحمام، وتعاهد المطهرات مع الماء والخل، مع المداومة على رش البيت وكنسه وتنظيفه[68].

أما في حالة الإصابة بالمرض، فلم يكن في وسع الطبيب أن يفعل الكثير للمريض سوى العمل على الحد من آلامه بتسكين أعراض المرض، فشاع استخدام دهن نبات يدعى الريباس، كان ينبت في رؤوس الجبال، ولاحظ الأطباء خواصه القابضة والمهدئة، فهو يقطع النزف ويهدئ الحرارة، ومن ثم يحد الكثير من الآثار الجانبية للطاعون[69]. كما استخدموا مرهمًا لدهان الورم الطاعوني كان يدعى مرهم الزنجار، وكان يُصنع من الزنجار والشمع والراتينج وعَلَك الصنوبر[70].

ربما يقرر الطبيب الفصد أو لا يقرره؛ إذ يتوقف هذا على احتمال المريض لتشريط الورم الطاعوني، ويقصد الأطباء من ذلك الإجراء تنقية الدم من السموم، أو «الخلط العفن» على حد تعبيرهم، فكان الطبيب يُشرِّط الورم، إن أمكن، ويُسيل ما فيه، مع تنظيف الجرح على نحو تام، حيث لا يبقى للقيح من أثر في جرح

= يُنظر: أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي، **مفيد العلوم ومبيد الهموم** (بيروت: المكتبة العصرية، 1997)، ص251. يُقارن مع: الكرمي الحنبلي، ص 36.

(67) عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني، **شرح مسند الشافعي**، تحقيق وائل محمد بكر زهران (الدوحة: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2007)، ج 1، ص 19؛ ابن حجر العسقلاني، ص 170؛ الأنصاري، ص 3ظ، والكرمي الحنبلي، ص 44.

(68) الرازي، ج 4، ص 428، يُقارن مع: السرمري، ص 108-109، والكرمي الحنبلي، ص 42-43.

(69) ابن سينا، ج 1، ص 667، والرازي، ج 6، ص 179.

(70) ابن سينا، ج 3، ص 515.

المريض؛ إذ اعتقد الأطباء أن القيح إذا لم يخرج كليًا من الورم الطاعوني فإن الورم يزداد سُمّية[71].

ربما يُشفق المرء على مريض الطاعون من هذا الإجراء الذي لم يكن يقدم أو يؤخر، بل يزيد الطين بلة، فتزداد آلام المريض المبرحة بفتح خراج في جسده يحتل مكانًا كبيرًا من أنسجته، يصل حجمه إلى حجم قبضة اليد تقريبًا. كما تصبح إصابة الطبيب الذي يقوم بالفصد شبه مؤكدة نتيجة تعامله مع دم المصاب على نحو مباشر. من ثم، لا غرو في أن تزخر كتب الطب العربية بنصائح للطبيب بأن يتلطف في امتصاص القيح، وأن يرأف بالمريض حال استخدام المِحْجَمة. وعلى الطبيب أن يتعهد جرح المريض، بعد فصده، بما يقبض الدماء ويبرد الجرح، وذلك عن طريق إسفنجة مغموسة في ماءٍ وخل، أو في دهن الورد أو التفاح أو الآس[72].

لا ريب في أن جمهور الأطباء لاحظوا، مع الزمن، أن فصد المطعُون لا يقدم ولا يؤخر، كما لاحظوا أن ذلك الإجراء يتسبب بإصابة الفاصد بالمرض في التو واللحظة، فأهملوا ذلك الإجراء على صعيد التطبيق الطبي العملي، على الرغم من أن أمهات كتب الطب في التراث العربي نصَّت على ضرورته وعلى حاجة المريض الملحة إليه. وادّعى الأطباء أن لا فائدة ترجى من علاج المطعون بوجه عام، لا بالفصد ولا بغيره، ذلك أن الطاعون مبني على فساد الهواء، وليس فساد الأبدان[73].

من ثم هاجم القاضي زكريا الأنصاري (المتوفى في عام 926هـ/ 1520م) الأطباء بقوله: «قد أغفل الأطباء في عصرنا، وما قبله هذا التدبير (يعني الفصد)، فوقع التفريط الشديد من تواطئهم على عدم التعرض لصاحب الطاعون بإخراج

---

(71) المرجع نفسه، ج 3، ص 165.

(72) المرجع نفسه، ج 3، ص 165. واستمرّت تلك الممارسات الطبية نفسها في علاج الطاعون في أوروبا العصور الوسطى، يُقارن: Byrne, *Encyclopedia*, p. 91; George Huppert, *After the Black Death: A Social History of Early Modern Europe* (Indiana: Indiana University Press, 1998), p. 129, and Joseph Patrick Byrne, *Daily Life during the Black Death* (Westport: Greenwood Publishing Group, 2006), p. 50.

(73) أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي، **الفتاوى الفقهية الكبرى**، جمعها عبد القادر بن أحمد بن علي الفاكهي المكي وعلى هامشه فتاوى الرملي (القاهرة: ملتزم الطبع والنشر عبد الحميد أحمد حنفي، [د. ت.])، ج 4، ص 28.

الدم، حتى شاع ذلك فيهم وذاع، حيث صارت عامتهم تعتقد بتحريم ذلك، وهذا النقل عن رئيسهم [يعني ابن سينا] الذي يخالف ما اعتمدوه، والعقل يوافقه، كما تقدم أن الطعن [يقصد طعن الجن] يثير الدم الكائن فيهيج في البدن فيصل إلى مكان منه ثم يصل أثر ضرره إلى القلب فيقتل، ولذلك قال ابن سينا لما ذكر العلاج بالشرط والفصد «إنه واجب»[74].

على الرغم من أن بتر العضو الذي تظهر به القرحة الطاعونية لم يوصف قط علاجًا للطاعون في كتب الطب في العصور الوسطى، فإنه لا بد من أن تستوقفنا رواية إصابة زياد بن أبيه بالطاعون، وظهور القُرحة في راحة يده اليمنى؛ إذ أشار عليه نفر من الأطباء بقطعها[75].

في أي حال، كان على الطبيب أن يصرف همّه إلى العناية بقلب المريض للتهدئة من آثار الخفقان، وهو أبرز الأعراض الظاهرة للطاعون، فيعمد الأطباء إلى تغطية الصدر بالأطلية المخففة لأثر الخفقان، وقوامها الزيوت العطرية، كأحماض الأترج والليمون والتفاح والسفرجل، التي تعمل على تبريد الصدر. وكذلك أوصى الأطباء المرضى بالإكثار من مضغ الرمان الحامض، وشم الورد والكافور والصندل[76].

4 – إشكالية العدوى ومشروعية العزل الصحي بين الفقيه والطبيب

تميزت قضية العدوى على الصعيد الفقهي بالتعقيد، وذلك في ضوء حديث النهي المضاعف الذي ينهى الناس عن الخروج من أرض ضربها الطاعون إلى أرض سواها، وكذلك نهي الذين يزمعون دخول أرض ضربها الطاعون من

---

(74) الأنصاري، ورقة 6، يُقارن أيضًا: زين الدين إبراهيم بن محمد بن نجيم المصري، **الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة النعمان**، وضع حواشيه وخرج أحاديثه زكريا عميرات (بيروت: دار الكتب العلمية، 1999)، ص 334، والكرمي الحنبلي، ص 43.

(75) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك**، 10 ج (بيروت: دار التراث، 1967)، ج 5، ص 289، وعز الدين بن الأثير، **الكامل في التاريخ**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري (بيروت: دار الكتاب العربي، 1997)، ج 3، ص 383.

(76) ابن حجر الهيتمي، **الفتاوى الفقهية**، ج 4، ص 28.

دخولها، وهو نوع من أنواع الحجر الصِّحي، قصد به منع انتشار الوباء خارج البقعة التي ضربها، ومن ثم احتوى على إشارة مُضمرة إلى العدوى.

بيد أن مسألة العدوى بذاتها احتوت على تعقيدات شرعية كبيرة؛ إذ سوّى الفقهاء والمحدثون بينها وبين العادات الوثنية الأخرى جميعها التي كان العرب يدينون بها في الجاهلية، وذلك اعتمادًا على الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبي: «لاَ عدوى ولا طِيرَة، ولا هامَةَ ولا صَفَر»[77]. كما روى أبو هريرة أيضًا حديثًا ثانيًا عن النبي قال: «قال رسول الله: 'لا يعدي شيء شيئًا' ثلاثًا. فقام أعرابي، فقال: يا رسول الله، إن النقبة تكون بمشفر البعير، أو بعجبه، فتشتمل الإبل جربًا. قال: فسكت ساعةً، ثم قال: 'ما أعدى الأول؟ لا عدوى ولا صفر ولا هامة. خلق الله كل نفس، فكتب حياتها وموتها ومصيباتها ورزقها'»[78].

من ثم، فإن الاعتقاد في العدوى كان مظنة شِرْكٍ ما دام المعتقد فيها أرجع الإصابة بالمرض إلى شيء آخر سوى إرادة الله[79]، وذلك على الرغم من وجود أحاديث أخرى تقضي بوجود العدوى. ومن اللافت أن أبرزها كان أيضًا من حديث أبي هريرة في قوله عن النبي: «لا يورد على المصح»[80]. ومن مراجعة أحد الحاضرين لأبي هريرة في حديثه هذا نفهم أن أبا هريرة روى حديث «لا عَدْوى» أولًا، ثم نَسِيه لاحقًا؛ ففي رواية معمر عن الزُّهْري للحديث نفسه زيادة ذات مغزى: «فراجعه رجل فقال: أليس قد حدّثنا أن النبِي قال: 'لا عدوى، ولا صفر، ولا هامة؟' قال: لم أحدثكموه. قال الزهري: قال أبو سلمة: 'قد حدّث به، وما سمعت أبا هريرة نسي حديثًا قط غيره'»[81].

جمعت الأحاديثُ المتضاربة الرواةَ في هذا الصدد، فأضحت لكل فريق

---

(77) البخاري، ح. 5707، ج 7، ص 126.

(78) ابن حنبل، ح. 8325، ج 8، ص 283.

(79) حسين بوجرة، «الطاعون وبدع الطاعون: الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب بين الفقيه والطبيب والأمير (1350-1800م)»، **المستقبل العربي**، العدد 383 (كانون الثاني/ يناير 2011)، ص 41.

(80) ابن ماجة، ح. 3540، ج 4، ص 562.

(81) أبو داود، ح. 3911، ج 4، ص 17.

حججه من النقل في مسألة إثبات العدوى أو نفيها، وذلك في ظل غياب كامل للأدوات التي تمكن من الحكم بأي القولين أصَح، أو أي القولين نَسَخ الآخر[82]، بيد أن الاتجاه الذي غلب على جمهور الفقهاء هو القول بإبطال العَدوى، وهو ما دعا بعض الدارسين إلى تفسير ذلك الموقف باستشراء ذهنية الصبر على البلاء في مجتمع عدَّ الوباء رحمةً، والموت فيه شهادة[83].

من جهة أخرى، اختلف الفقهاء في حُرمة الخروج من أرض ضربها الطاعون، فقال فريق إن النهي عن الخروج من أرض ضربها الطاعون ثابت، وكذا الأمر بعدم جواز دخول أرض ضربها الطاعون ثابت بحديث النبي. وقال فريق آخر من الفقهاء بجواز الخروج من أرض ضربها الطاعون نجاةً بالنفس، واحتج باضطراب سند الحديث الذي يسوي بين الفرار من الطاعون والفرار من الزحف، لاختلاف نقلته في سنده. كما استشهد بخروج عمر بن الخطاب بالناس من أرض سَرْغ بالشام عند وقوع طاعون عمواس في عام 18هـ/ 639م، وبقول عمر عندما سُئل عن خروجه من أرض ضربها الطاعون، فقال: «أفر من قدر الله إلى قدر الله». وقالوا لو بلغ عُمر أن النبي سوى بين الفرار من الطاعون والفرار من الزحف ما خرج من الشام[84].

في الواقع، لم يحتج الفقهاء القائلون بإبطال العدوى إلى كبير جهد في إثبات وجهة نظرهم من خلالَ النقل، بيد أنهم شعروا بالحاجة الملحة إلى الاستدلال العقلي على صحة مذهبهم في إبطال العدوى، وذلك في مقابل احتجاج الأطباء القائلين بالعدوى بالعيان والاستقراء والملاحظة الدقيقة. ومن ثم، ليس من الغريب أن نجد ابن حجر العسقلاني، وهو من أبرز الفقهاء الذين قالوا ببطلان العدوى، يحتجُّ، بعد أن فرغ من عرض أدلته من النقل، بأن المرض لا يخلو من

(82) بوجرة، ص 47.

(83) حسن، ص 32.

(84) عن ذلك الجدل الفقهي يُنظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تهذيب الآثار**، تحقيق علي رضا بن عبد الله بن علي رضا (دمشق: دار المأمون للتراث، 1995)، ج 1، ص 72؛ علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، **المحلى بالآثار** (بيروت: دار الفكر، [د. ت.])، ج 3، ص 403، وابن حجر العسقلاني، ج 129 وما بعدها.

كونه إمّا عقابًا وإمّا ابتلاءً من الله، ومن ثم فإن المرض يتخَلَّقُ في ذات المريض ابتداءً، ما دام ذلك المريض مقصودًا بالبلاء أو الابتلاء، فمن أراد الله إنزال البلاء، أو الابتلاء، به فهو واقع لا محالة[85]. أما الغريب بالفعل، فكان لجوء محدّث مثل السُّرمري إلى الاحتجاج بأقوال الفلاسفة إن الأفعال الحادثة لا يصحُّ أن تقع بغير مُحدِثٍ لا بد من أن يكون حيًا وقادرًا بديهةً. ولما كان المحدِث لا يستطيع أن يحدث بغيره فعلًا، فإن الداءَ يمتنع أن يكون مُحدِثًا؛ إذ لا يخلو من أن يكون جسمًا أو عرضًا، فإن كان جسمًا لم يجز أن يكون فاعلًا لانعدام الحياة والقدرة، وإن كان عرضًا فهو أبعد من أن يحدث بغيره فعلًا، وذلك لعدم حياته وقدرته[86].

على الصعيد الطبي، تجاهل ابن خاتمة الأندلسي تمامًا الإشارة إلى الأسباب الدينية التي اعتنقها الفقهاء والمحدّثون في حدوث الطاعون، واكتفى بالحديث عن العدوى بتوصيفها أمرًا شهدت به العادة وأحكمته التجربة[87]. أما معاصره لسان الدين بن الخطيب، فكان أكثر جرأةً في أمر حتمية العدوى بتوصيفها أمرًا يقره الاستقراء والحس والمشاهدة والأخبار المتواترة، حتى وإن ورد في الشَّرع ما ينفي ذلك[88]. هذا الأمر استغرق قرابة قرن من الزمن قبل أن تظهر أول مراجعة فقهية لآراء الفقهاء في العدوى، حيث أفتى تاج الدين السبكي (المتوفى في عام 771هـ/ 1369م) بإمكانية حدوث العدوى؛ إذ لا يترتب مع القول بها أي تعارض مع صحيح الاعتقاد؛ ذلك أن المرض لا يُعدي بذاته، وإنما يُعدي لعلة خلقها الله فيه، وما يجري في انتقال العدوى إنما يجري بتقدير الله تعالى وبحسب مشيئته. ليس هذا فحسب، بل أفتى بشرعية الحجر الصحي بقوله: «والذي نقوله في ذلك: إن شهد طبيبان عارفان مسلمان عادلان أن ذلك (يعني مخالطة المريض للصحيح) سبب في أذى المخالط، فالامتناع عن مخالطته جائز، بل وأبلغ من ذلك»[89].

---

(85) ابن حجر العسقلاني، ص 305-306.

(86) السرمري، ص 56-57.

(87) ابن خاتمة، ص 157-160.

(88) ابن الخطيب، «مقنعة السائل»، ص 113-115.

(89) ابن حجر الهيتمي، **الفتاوى الفقهية**، ج 4، ص 28.

مع ذلك، يصر الدارسون الأوروبيون على اعتبار جيرولامو فراكاسترو (G. Fracastoro) مؤسِّسًا للمدرسة القائلة بحدوث العدوى، فهو أول من قال بالعدوى أوروبيًا، على الرغم من أن كتابه صدر في مدينة البندقية في عام 1456م، أي بعد ظهور رسالتي ابن خاتمة وابن الخطيب بنحو مئتي عام تقريبًا[90]، وبعد صدور فتوى السبكي بما يقرب قرنًا من الزمان!

(90) بوجرة، ص 47-48.

الفصل الثاني

فورات الطواعين في العصر الأموي

بنفسي فتية هلكوا جميعًا برابية مجاورة سناما

أقول إذا ذكرت العهد بنفسي تلك أصداء وهاما

فلم أر مثلهم هلكوا جميعًا ولم أر مثل هذا العام عاما

أعرابي مجهول يبكي حاله
ويرثي بنيه الذين قضوا جميعًا في
طاعون ابن الزبير الجارف (69هـ/ 688م).



أولًا: إحصاء الطواعين الواقعة في صدر الإسلام بين الأخباريين والمؤرخين

الهدف الرئيس من هذا الفصل هو إحصاء الطواعين الواقعة في العصر الأموي، وضبط تعاقُبها كرونولوجيًا، وهذا أمر يُعَدّ مهمة محفوفة بالصعوبات الناجمة عن تضارب روايات الأخباريين بشأن أسماء تلك الطواعين والتأريخ لها على نحو دقيق، حيث بلغت فورات الطاعون في العصر الأموي، من الكثرة حدًا إلى درجة أنه لم يخلُ عقد واحد من طواعين عدة، كما سنرى في ما بعد.

إن أقدم ما وردنا عن الطواعين في الإسلام يعود إلى أيوب السختياني (المتوفى في عام 131هـ/ 748م)؛ إذ نقل ابن عساكر (المتوفى في عام 571هـ/ 1175م) بسنده عن حماد بن زيد (المتوفى في عام 179هـ/ 795م) عن أيوب السختياني قوله: لم يكن طاعون أشد من ثلاثة طواعين: طاعون ازدجرد، وطاعون عمواس، وطاعون الجارف[1].

اللافت أن أحدًا من الأخباريين والمؤرخين، من بعده، لم يذكر طاعون ازدجرد هذا، باستثناء البلاذري (المتوفى في عام 279هـ/ 892م) الذي تحدث عن طاعون ضرب فارس في أيام يزدجرد بن شهريار، آخر الأكاسرة، وأن المسلمين اغتنموا فرصة وقوع هذا الطاعون وتوغلوا في أرض فارس وافتتحوا المدائن الشرقية[2]. أما إشارة السختياني إلى الطاعون الجارف، فحمَّالة أوجه؛ فهو إمّا أنه

---

(1) علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر، **تاريخ دمشق**، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي (دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1995)، ج 58، ص 336.

(2) أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري، **فتوح البلدان** (بيروت: مكتبة الهلال، 1988)، ص 385.

يشير إلى طاعون ابن الزبير في عام 69هـ/ 688م، وإمّا إلى الطاعون العام في عام 80هـ/ 699م، أو إلى طاعون الفتيات في عام 87هـ/ 705م، أو إلى طاعون البصرة في عام 119هـ/ 737م؛ إذ حمل كل منها اسم الجارف، كما سنرى. ومن عجائب الأقدار أن يقضي أيوب السختياني نحبه في طاعون حمل اسم الطاعون الجارف أيضًا ، وهو طاعون مسلم بن قتيبة الذي ضرب العراق والشام في عام 131هـ/ 748م، كما سيأتي لاحقًا.

لم ينقل المؤرخون عن سيف بن عمر (المتوفى في عام 200هـ/ 815م) إلا أخبار طاعون عمواس في خلافة عمر بن الخطاب؛ إذ أرَّخ له سيف بمحرم ثم صفر من عام 17هـ/ 638م، ثم ارتفع عن الناس وعاد أشد مما كان في ربيع الآخر من عام 18هـ/ 639م، فيكون قد ضرب الشام، وفقًا له، دفعتين متتاليتين[3]. كما نقل ابن كثير[4] عن سيف خبر طاعون غامض ضرب البصرة في عقب طاعون عمواس، ولم يؤرخ له سيف في عام بعينه.

---

(3) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، **البداية والنهاية**، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي (القاهرة: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، 2003)، ج 10، ص 44؛ أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، **إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع**، تحقيق محمد عبد الحميد النميسي (بيروت: دار الكتب العلمية، 1999)، ج 13، ص 193؛ أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت: دار المعرفة، 1959)، ج 10، ص 184؛ أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني، **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري** (القاهرة: المطبعة الكبرى الأميرية، 1905)، ج 8، ص 384. وطاعون عمواس، أشهر طاعون في تاريخ الإسلام قاطبة، وهو طاعون عظيم، حصد أرواح الجنود المسلمين الفاتحين الذين استقروا لتوهم في **الشام** بعد تمام فتحها، وقُدرت خسائر المسلمين جراء هذا الطاعون بخمسة وعشرين ألف مقاتل بأهلهم وذراريهم. ومات فيه نفر من كبار الصحابة، كأبي عبيدة عامر بن الجراح ومعاذ بن جبل. تفصيلًا يُنظر: أبو عبد الله محمد بن منيع بن سعد، **الطبقات الكبرى**، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر، 1968)، ج 7، ص 388؛ أبو عمرو خليفة بن أبي هبيرة بن خياط العصفري، **تاريخ خليفة بن خياط**، تحقيق أكرم ضياء العمري (دمشق: دار القلم؛ بيروت: مؤسسة الرسالة، 1976)، ص 138؛ أبو يوسف يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي الفسوي، **المعرفة والتاريخ**، تحقيق أكرم ضياء العمري (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1981)، ج 3، ص 306، وأبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك**، 10 ج (بيروت: دار التراث، 1967)، ج 4، ص 60-63.

(4) ابن كثير، ج 10، ص 44.

أما الواقدي (المتوفى في عام 207هـ/ 823م)، فأرخ لطاعون شيرويه بن كسرى بعهد النبي في عام 5هـ/ 626م[5]، ثم لطاعون عمواس في عام 18هـ/ 639م[6]، ثم طاعون المغيرة بن شعبة في عام 49هـ/ 669م[7]، ثم لطاعون مصر في عام 66هـ/ 685م[8]، ثم الطاعون العام في عام 80هـ/ 699م[9]. والخبر الأخير الذي ينقله المؤرخون عن الواقدي في ما يتعلق بالطواعين هو تأريخه لطاعون واسط في عام 114هـ/ 732م[10].

أمَّا ابن قتيبة[11] (المتوفى في عام 276هـ/ 889م)، فنقل عن الأصمعي (المتوفى في عام 216هـ/ 831م) إحصاءه للطواعين في الإسلام المتضمن طاعون عمواس، وطاعون شيرويه بن كسرى، متزامنين في خلافة عمر بن الخطاب من دون أي إيضاحات أخرى، ثم طاعون ابن الزبير في عام 69هـ/ 688م في خلافة عبد الله بن الزبير وولاية عبيد الله بن عبد الله بن معمر على البصرة، ثم طاعون الفَتيات في ولاية الحجاج في خلافة عبد الملك بن مروان الذي عُرف أيضًا بطاعون الأشراف وفقًا له، ولم يؤرخ له بعام بعينه، ثم طاعون عدي بن أرطأة في خلافة عمر بن عبد العزيز في عام 100هـ/ 718م، ثم طاعون غراب في عام 127هـ/ 744م في خلافة يزيد بن عبد الملك. ثم طاعون مسلم بن قتيبة في عام 131هـ/ 748م في خلافة مروان بن محمد.

---

(5) المقريزي، ج 12، ص 133. وقَدَّر المسعودي عدد الهالكين في هذا الطاعون بمئتي ألف، فالمكثر يقول: هلك نصف الناس، والمقل يقول: الثلث. يُنظر: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق أسعد داغر (قم: دار الهجرة، 1989)، ج 1، ص 309.

(6) أبو علي عبد الجبار بن عبد الله عبد الجبار الخولاني، **تاريخ داريا**، باعتناء سعيد الأفغاني (دمشق: مطبعة البرقي، 1950)، ص 112.

(7) الطبري، ج 5، ص 232.

(8) ابن كثير، ج 12، ص 40.

(9) الطبري، ج 6، ص 325.

(10) المرجع نفسه، ج 7، ص 90.

(11) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، **المعارف**، تحقيق ثروت عكاشة (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992)، ص 601، وأبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي، **المسالك في شرح موطأ مالك**، تحقيق محمد بن الحسين السليماني وعائشة بنت الحسين السليماني (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2007)، ج 7، ص 206-207.

من ثم، فإن الأصمعي خالف الواقدي في التأريخ لطاعون شيرويه في خلافة عمر بن الخطاب، والراجح عندي أن الأصمعي أراد طاعون يزدجرد الذي ذكره السختياني والبلاذري كما سبق بيانه، ذلك الطاعون الذي وقع متزامنًا أو بُعيد طاعون عمواس أو ربما قُبيله، وليس طاعون شيرويه بن كسرى الذي اتفق الأخباريون على وقوعه في عام 5 أو 6 من الهجرة. ويبدو أن ابن قتيبة فطن إلى هذا الخلط، فعقّب على رواية الأصمعي بقوله: «وكانت بين طاعونَي شيرويه بن كسرى وعمواس مدة طويلة!»[12].

كما يلاحَظ أن الأصمعي يؤرخ لطاعون ابن الزبير في عام 69هـ/ 688م، ويجعله في ولاية عبيد الله بن عبد الله بن معمر (وليس مصعب بن الزبير الذي تولى البصرة من أخيه عبد الله بن الزبير في نهايات عام 67هـ/ 686م خلفًا للحارث بن عبد الله الأزدي). ونفهم من هذا ضمنًا أن الأصمعي ينسب ذلك الطاعون إلى عبد الله بن الزبير نفسه لا إلى أخيه مصعب، كما اتفق الرواة والأخباريون. ويلاحَظ أيضًا أن الأصمعي اعتبر طاعونَي الفتيات والأشراف طاعونًا واحدًا عُرف بالاسمين معًا، وهو الأمر الذي سيُصيب المؤرخين في ما بعد بارتباك ملحوظ.

أما أبو الحسن المدائني[13] (المتوفى في عام 235هـ/ 840م)، فتناقل المؤرخون إحصاءه الطواعين الكبرى في الإسلام بخمسة فحسب، هي: طاعون شيرويه، ثم طاعون عمواس، ثم طاعون ابن الزبير مؤرخًا له في عام 69هـ/ 688م، ثم طاعون الفتيات في عام 87هـ/ 705م، ثم طاعون مسلم بن قتيبة في عام 131هـ/ 748م[14]، الذي أطلق المدائني عليه اسم «الطاعون العظيم».

---

(12) ابن قتيبة، **المعارف**، ص 601.

(13) محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي: **شرح النووي على مسلم المسمى المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1972)، ج 1، ص 106؛ **الأذكار**، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1994)، ص 153؛ أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل سبط ابن العجمي الحلبي، **كنوز الذهب في تاريخ حلب**، تحقيق شوقي شعث وفالح البكور (حلب: دار القلم العربي، 1996)، ج 1، ص 169، وجلال الدين أبو بكر عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون»، مخطوط ضمن مجموع بالمكتبة السليمانية، م. إسماعيل لالا برقم 678، ورقة 166ظ.

(14) ابن سعد، ج 5، ص 483؛ أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، **التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا**، تحقيق إبراهيم محمد حسن الجمل (القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، [د. ت.])، =

من الملاحَظ أن المدائني أرّخ لطواعين أُخر لم يُضمِّنها تلك الرواية التي تناقلها عنه المؤرخون؛ فالمبرد (المتوفى في عام 285هـ/ 898م) ينقل عنه خبر طاعون المغيرة بن شعبة الذي ضرب الكوفة في عام 50هـ/ 670م[15]، وكذلك فعل النووي (المتوفى في عام 676هـ/ 1277م)[16]. كما أن ابن حجر العسقلاني ينقل عنه أخبار طاعون مصر في ولاية عبد العزيز بن مروان[17]، وهما طاعونان لم يشر إليهما المدائني قط في روايته، وهو ما يحملنا على القول إن المدائني لم يقصد إحصاءها في تلك الرواية، بل قصد حصر الطواعين الكبرى من بينها فحسب، فأهمل ما دونها، وفق تقديره.

أما خليفة بن خياط العصفري (المتوفى في عام 240هـ/ 854م)، فأرّخ لطاعون شيرويه بن كسرى في عام 6هـ/ 627م[18]، ثم طاعون عمواس في عام 18هـ/ 639م[19]، ثم طاعون مصر في عام 66هـ/ 686م[20]، ثم طاعون ابن الزبير في عام 69هـ/ 688م[21]، ثم الطاعون العام في عام 80هـ/ 699م[22]، ثم طاعون الفتيات بالبصرة في عام 85هـ/ 704م[23]، ثم طاعون الشام في عام

= ص 215؛ أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء** (بيروت: دار الأرقم بن أبي الأرقم، 1999)، ج 2، ص 522؛ النووي: **شرح النووي على مسلم**، ج 1، ص 106؛ **الأذكار**، ص 153، وحسين بن محمد بن الحسن الديار بكري، **تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس** (بيروت: دار صادر، [د. ت.])، ج 2، ص 304.

(15) المبرد، ص 220.

(16) النووي، **شرح النووي على مسلم**، ج 1، ص 106.

(17) شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **بذل الماعون في فضل الطاعون**، تصنيف أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب (الرياض: دار العاصمة، 1990)، ص 362.

(18) ابن خياط العصفري، **تاريخ خليفة**، ص 79.

(19) المرجع نفسه، ص 138.

(20) المرجع نفسه، ص 263.

(21) المرجع نفسه، ص 265. وفي طبقاته يناقض نفسه ويؤرخه في عام 67هـ/ 686م. يُنظر: أبو عمرو **خليفة** بن أبي هبيرة بن خياط العصفري، **طبقات خليفة بن خياط**، تحقيق سهيل زكار (دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1993)، ص 331.

(22) ابن خياط العصفري، **تاريخ خليفة**، ص 279.

(23) المرجع نفسه، ص 301.

107هـ/ 725م[24]، ثم طاعون البصرة (أي طاعون مسلم بن قتيبة) في عام 131هـ/ 748م[25].

من الملاحَظ أن خليفة ينص على أن طاعونًا ضرب مصر في عام 66هـ/ 685م، وهو يجعله قبل طاعون ابن الزبير الذي يؤرخه بعام 69هـ/ 688م، فيتفق في ذلك مع الواقدي والأصمعي والمدائني. بيد أنه يذكر أيضًا الطاعون العام متفقًا مع الواقدي في التأريخ له بعام 80هـ/ 699م، ويؤرخ لطاعون الفتيات بعام 85هـ/ 704م، مختلفًا بذلك مع المدائني الذي يؤرخه بعام 87هـ/ 705م. أما الأصمعي، فلم يبتعد كثيرًا عن هذا التقدير؛ إذ أرّخ لهذا الطاعون بموت عبد الملك بن مروان أو بعده بقليل، أي بين عامي 86-87هـ/ 704-705م.

على صعيد آخر، أغفل خليفة الإشارة إلى طاعون عدي بن أرطأة الذي ضرب العراق والشام في عام 100هـ/ 718م، إبان خلافة عمر بن عبد العزيز (بحسب الأصمعي). وكذلك فعل الواقدي والمدائني، على الأقل في ما وصلنا مرويًّا عنهما. إلا أن خليفة بن خياط، في المقابل، ينفرد بذكر طاعون ضرب الشام في عام 107هـ/ 725م، ولم يأت الواقدي أو الأصمعي أو المدائني إلى ذكره. ثم يقفز فجأة إلى طاعون البصرة المسمى طاعون مسلم بن قتيبة الذي ضرب البصرة في أخريات أيام بني أمية، والذي يتفق الجميع على التأريخ له بعام 131هـ/ 748م.

أشار ابن حجر العسقلاني إلى أن ابن أبي الدنيا (المتوفى في عام 281هـ/ 894م) أحصى الطواعين في الإسلام، حتى زمنه، في كتابه **الطواعين**[26]، وهو كتاب مفقود، ولم ينقل ابن حجر عنه، ولم يقدم مزيدًا من التفصيلات في هذا الصدد، بل عمد إلى النقل عن المدائني وابن قتيبة (نقلًا عن الأصمعي)[27]. ولم

---

(24) المرجع نفسه، ص 337.

(25) المرجع نفسه، ص 398. وفي طبقاته يؤرخه بعام 132هـ/ 749م. يُنظر أيضًا: ابن خياط العصفري، **طبقات خليفة**، ص 373.

(26) ابن حجر العسقلاني، **بذل الماعون**، ص 361.

(27) المرجع نفسه، ص 366.

يصلنا من لائحة ابن أبي الدنيا سوى تأريخه لطاعون مصعب بن الزبير في عام 70هـ/ 689م[28].

في ما يتعلق بالمؤرخين المتأخرين نسبيًا، يقدم الخوارزمي (المتوفى في عام 387هـ/ 997م) إحصاءً صمت عن مصدره، يتضمن طاعون عمواس، ثم طاعون شيرويه بن كسرى (كذا على الترتيب!)، ثم طاعون ابن الزبير، ثم طاعون الفتيات الذي لقّبه بطاعون الأشراف أيضًا، ثم طاعون غراب، من دون التأريخ لهذه الطواعين بالأعوام. وفي ما يتعلق بلائحته، فإن المرءَ يكاد يجزم أنها عينها رواية ابن قتيبة عن الأصمعي، باستثناء تقديمه طاعون عمواس على طاعون شيرويه بن كسرى[29].

كما عقد ابن الجوزي (المتوفى في عام 597هـ/ 1200م) فصلًا في كتابه **المدهش** بعنوان: «فصل في الجدوب وعموم الموت»، قدَّم فيه مادة فقيرة جدًّا عن الطواعين في الإسلام، ولم يُحصَ فيه إلا طاعون البصرة في عام 64هـ/ 683م، ثم طاعون في عام 96هـ/ 714م (كذا) ثم طاعون مسلم بن قتيبة في عام 131هـ/ 748م[30].

على الرغم من أن هناك طاعونًا ضرب الشام في عام 96هـ/ 714م بالفعل، فإن ابن الجوزي لم يقصد الإشارة إليه مطلقًا، وإنما أراد طاعون ابن الزبير 69هـ/ 688م، ووقع التحريف من تسع وستين إلى ست وتسعين؛ إذ ذكر من أخبار هذا الطاعون هلاك ثمانين ولدًا لأنس بن مالك، وهو خبر متعلق بأخبار طاعون ابن الزبير من دون غيره، كما سيأتي.

---

(28) عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن أبي الدنيا، **الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان**، تحقيق نجم عبد الرحمن خلف (عمّان: دار البشير، 1993)، ص 58.

(29) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب الخوارزمي، **مفاتيح العلوم**، تحقيق فان فلوتن (ليدن: مطبعة بريل، 1895)، ص 127.

(30) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، **المدهش في علوم القرآن والحديث واللغة وعيون التاريخ والوعظ**، تحقيق مروان قباني (بيروت: دار الكتب العلمية، 1985)، ص 70.

أما ابن حجر العسقلاني، فقدّم إحصاءً للطواعين حتى أيامه، ضَمّنه طاعون شيرويه بن كسرى، ثم طاعون عمواس، ثم طاعون وقع بالكوفة في ولاية أبي موسى الأشعري، ولم يؤرخ له في عام بعينه، ثم طاعون المغيرة بن شعبة في عام 50هـ/ 670م، ثم طاعون زياد بن أبيه 53هـ/ 762-763م، ثم طاعون مصر 66هـ/ 685م، ثم طاعون ابن الزبير 69هـ/ 688م، ثم طاعون مصر 86هـ/ 705م، ثم طاعون الفتيات 87هـ/ 705-706م، ثم طاعون الأشراف في واسط (لم يؤرخه)، ثم طاعون عدي بن أرطأة 100هـ/ 718م، ثم طاعون الشام 107هـ/ 725م، ثم طاعون الشام 115هـ/ 733م، ثم طاعون غراب 127هـ/ 744م، ثم طاعون مسلم بن قتيبة 131هـ/ 748م[31].

ما قام به ابن حجر هو، على الأرجح، تجميع لأخبار الطواعين من المصادر التي توافرت له، منتقدًا الأخباريين والرواة في أنهم لم يذكروا عن الطواعين الأولى إلا يسيرًا[32]. لكن لائحته تختلف عن لائحة الأصمعي في إقحامه طاعون الكوفة الأول في عهد أبي موسى الأشعري، ثم الثاني في عهد المغيرة بن شعبة، ثم الثالث في عهد زياد بن أبيه، وهي روايات وأخبار انفرد بها المدائني من دون غيره. أما الأكثر لفتًا فهو نصه على وقوع طاعون مصر في عام 66هـ/ 685م، وهو هنا يتفق مع الواقدي وخليفة بن خياط والمدائني. وتكرر اسم المدائني في تحليل لائحة ابن حجر، إضافةً إلى تجاهله ذكر الطاعون العام الذي أرّخه كل من الواقدي وخليفة بعام 80هـ/ 699م يجعلني أميل إلى ترجيح أن تلك اللائحة مأخوذة في أصلها عن المدائني، أو بالأحرى عن قراءة دقيقة لروايات المدائني.

(31) ابن حجر العسقلاني، **بذل الماعون**، ص 366. وعنه نقل المؤرخون من بعده. يُقارن مع: أبو العباس أحمد بن يحيى بن أبي بكر التلمساني بن أبي حجلة، «الطب المسنون لدفع الطاعون»، رسالة ضمن مجموع، بدار الكتب المصرية، مجاميع تيمور 266، ورقة 51ظ، 52و؛ زكريا بن محمد الأنصاري، «تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين»، مخطوط بمكتبة جامعة الملك سعود، برقم 3113 ز، ص 6 ظ، وأبو المحاسن يوسف بن عبد الله الظاهري بن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1929-1972)، ج 1، ص 140، 179 و183.

(32) ابن حجر العسقلاني، **بذل الماعون**، ص 366.

الشكل (2-1)

الطواعين الواقعة في صدر الإسلام بين الأخباريين والمؤرخين

<table>
<tr><th>السنة الهجرية</th><th>رواية أيوب السختياني</th><th>رواية سيف بن عمر</th><th>رواية الواقدي</th><th>رواية الأصمعي</th><th>رواية المدائني</th><th>رواية خليفة بن خياط</th><th>رواية ابن حجر</th></tr>
<tr><td>5</td><td></td><td></td><td>طاعون شيرويه</td><td></td><td></td><td></td><td></td></tr>
<tr><td>6</td><td></td><td></td><td></td><td></td><td>طاعون شيرويه بن كسرى</td><td>طاعون شيرويه بن كسرى</td><td>طاعون شيرويه بن كسرى</td></tr>
<tr><td>13</td><td rowspan="7">طاعون يزدجرد طاعون عمواس</td><td></td><td></td><td rowspan="6">طاعون شيرويه بن كسرى / طاعون عمواس (متزامنين)</td><td></td><td></td><td></td></tr>
<tr><td>14</td><td></td><td></td><td></td><td></td><td></td></tr>
<tr><td>15</td><td></td><td></td><td></td><td></td><td></td></tr>
<tr><td>16</td><td></td><td></td><td></td><td></td><td></td></tr>
<tr><td>17</td><td rowspan="2">طاعون عمواس</td><td></td><td></td><td></td><td></td></tr>
<tr><td>18</td><td>طاعون عمواس</td><td></td><td>طاعون عمواس</td><td>طاعون عمواس</td></tr>
<tr><td>؟</td><td>طاعون البصرة (؟!)</td><td colspan="4"></td><td>طاعون أبي موسى الأشعري</td></tr>
<tr><td>49</td><td></td><td></td><td>طاعون المغيرة بن شعبة</td><td></td><td></td><td></td><td></td></tr>
<tr><td>50</td><td rowspan="4">الطاعون الجارف (؟!)</td><td></td><td></td><td></td><td>طاعون المغيرة بن شعبة</td><td></td><td>طاعون المغيرة بن شعبة</td></tr>
<tr><td>53</td><td></td><td></td><td></td><td>طاعون زياد بن أبيه</td><td></td><td>طاعون زياد بن أبيه</td></tr>
<tr><td>65</td><td></td><td></td><td></td><td></td><td></td><td></td></tr>
<tr><td>66</td><td></td><td>طاعون مصر</td><td></td><td>طاعون مصر</td><td>طاعون مصر</td><td>طاعون مصر</td></tr>
</table>

يتبع

تابع

67							
68							
69				طاعون ابن الزبير	طاعون ابن الزبير	طاعون ابن الزبير	طاعون ابن الزبير
70							
79							
80			الطاعون العام			الطاعون العام	
84							
85						طاعون الفتيات	
86				طاعون الفتيات			طاعون مصر الثاني
87	الطاعون الجارف (؟!)				طاعون الفتيات		طاعون الفتيات
							طاعون الأشراف
100				طاعون عدي بن أرطأة			طاعون عدي بن أطأة
106							
107						طاعون الشام	طاعون الشام الأول
114			طاعون واسط				
115							طاعون الشام الثاني

يتبع

تابع

126							
127				طاعون غراب			طاعون غراب
128							
129	الطاعون الجارف (؟!)						
130							
131				طاعون مسلم بن قتيبة	طاعون مسلم بن قتيبة	طاعون مسلم بن قتيبة	طاعون مسلم بن قتيبة
132							

على أن اللافت حقًّا هو إشارة ابن حجر إلى طاعون غامض ضرب الكوفة في ولاية أبي موسى الأشعري، ولم يؤرخ له، كما مر بنا. وفي الواقع، لدينا إشارات وردت هنا وهناك عن طاعون ضرب مصر والشام والعراق في عصر الراشدين، بيد أن كتب التاريخ لا تذكره، ولا تكاد تفصل القول فيه، وإنما تناهى إلينا شيء من أثره؛ فمن خلال نتف تناثرت هنا وهناك في المصادر، يجزم المرء أن ثمة طاعونًا وقع فعلًا في عصر الراشدين بعد طاعون عمواس: لدينا أولًا إشارة سيف بن عمر لطاعون ضرب البصرة في عقب طاعون عمواس[33]، وكذلك إشارة ابن حجر إلى هذا الطاعون (هل كان المدائني مصدره؟!)، وعندنا أيضًا رواية محمد بن سعد كاتب الواقدي (المتوفى في عام 230هـ/ 845م) عن استجداء الناس لأبي موسى الأشعري أن يخرج بهم إلى موضع يسمى «وابق» هربًا من طاعون ألمّ بهم[34]. وكذلك لدينا إفادة من الطبراني (المتوفى في عام 360هـ/ 970م) عن طاعون وقع في ولاية معاوية بن أبي سفيان على الشام[35]، بيد أنه لم يؤرخ له. لكننا نعلم من خلال ابن بطة العكبري (المتوفى في عام 387هـ/ 977م) أن

(33) ابن كثير، ج 10، ص 44.

(34) ابن سعد، ج 4، ص 111.

(35) سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الطبراني، **المعجم الأوسط**، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني (القاهرة: دار الحرمين، [د. ت.])، ج 8، ص 133.

هذا الطاعون اندلع من قرية تسمى داب، وفكر معاوية في إجلاء سكانها عنها، إلا أن الصحابي أبا الدرداء عامر بن عامر الأنصاري حال بينه وبين تنفيذ ذلك[36]. لدينا كذلك إشارات تفيد بامتداد هذا الطاعون إلى حمص[37]، ومنها إلى دمشق، ومن ثم خرج منها معاوية اتقاءً له[38]. وأخيرًا لدينا إشارة إلى امتداد هذا الطاعون من الشام إلى مصر، فثمة قصيدة عينية بديعة رثى فيها أبو ذؤيب الهذلي (المتوفى نحو عام 27هـ/ 647م) خمسة من أبنائه ماتُوا جميعًا في طاعون غامض ضرب مصر[39].

نلاحظ أولًا وقوع ذلك الطاعون في ولاية أبي موسى الأشعري للكوفة، ثم امتداده إلى الشام، وكان معاوية، إذ ذاك، واليًا على الشام. ومن المعروف أن أبا موسى الأشعري تولى الكوفة مرتين، أولاهما في أواخر أيام عُمر في عام 23هـ/ 643م، فلما تولى عثمان بن عفان أقره عليها، ثم لم يلبث أن عزله عنها في عام 24هـ/ 644م[40]. ثم أعاد عثمان ولاية الكوفة إليه مجددًا خلفًا لسعيد بن العاص في عام 34هـ/ 654م[41]، واستمر واليًا عليها حتى عزله علي بن أبي طالب عنها في عام 37هـ/ 657م. والمعروف أن معاوية عاصره واليًا على الشام في كلتا الولايتين، ففي أيٍّ منهما وقع ذلك الطاعون؟ سنستبعد الولاية الثانية منهما، لأننا

---

(36) عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان بن بطة العكبري، **الإبانة الكبرى** (الرياض: دار الراية للنشر والتوزيع، 1994-2005)، ج 4، ص 226.

(37) أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر بن طيفور، **بلاغات النساء**، صحّحه وشرحه أحمد الألفي (القاهرة: مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، 1908)، ص 66.

(38) أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري، **أنساب الأشراف**، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي (بيروت: دار الفكر، 1996)، ج 5، ص 69-70.

(39) يُنظر تلك القصيدة في: الشعراء الهذليون، **ديوان الهذليين**، تحقيق أحمد الزين ومحمود أبو الوفا، 3 ج (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، 1965)، ج 1، ص 1-21؛ ابن عساكر، ج 17، ص 59؛ خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، **الوافي بالوفيات**، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى (بيروت: دار إحياء التراث، 2000)، ج 13، ص 274، وأبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض (بيروت: دار الكتب العلمية، 1994)، ج 7، ص 111.

(40) الطبري، ج 4، ص 241.

(41) ابن خياط العصفري، **تاريخ خليفة**، ص 168.

نعرف أن الصحابي أبا الدرداء توفي قبل عام 32هـ/ 652م، أي قبل ولاية أبي موسى الأشعري الثانية على الكوفة بأكثر من عامين، وكذلك لأن الحياة لم تمتد بأبي ذؤيب الهذلي ليشهد العقد الرابع، فتوفي قبل عام 27هـ/ 647م، فيكون ذلك الطاعون قد وقع بالكوفة، وفقًا لذلك التقدير بين عامي 23-24هـ/ 643-644م، أي في أوائل خلافة عثمان بن عفان، وبعد خمسة إلى ستة أعوام على الأكثر، من طاعون عمواس.

مثلما اختلف الرواة والأخباريون في إحصاء الطواعين الكبرى والتأريخ لها، اختلفوا في أي منها حمل اسم الجارف، وهو طاعون عنيف من بينها، لم يُبق ولم يذر، كما يبدو من اسمه، وأرخ به المتقدمون ميلاد قوم من عُلماء ومحدثي التابعين ووفيات قوم آخرين منهم، فقالوا «وُلد قبل الطاعون الجارف»، أو «مات بعد الطاعون الجارف»[42]. ولمّا لم يكن ذلك الطاعون الغامض محددًا في عام بعينه، فقد تباين المؤرخون المتأخرون في تحديده من بين جملة تلك الطواعين تباينًا كبيرًا، فعلى الأقل حملت ستة طواعين من جملة تلك الطواعين هذا اللقب المريع كما سيأتي[43].

ثانيًا: فورات الطاعون في العصر الأموي

1 - طاعونا المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه

وقع أول طاعون نسمع عنه في العصر الأموي في خلافة معاوية بن أبي سفيان، فضرب الكوفة بين عامي 49هـ/ 669م، 50هـ/ 670م، وبلغ من الضراوة أن توفي

(42) على سبيل المثال، يُنظر: علي بن الجعد بن عبيد الجوهري بن الجعد، **مسند ابن الجعد**، رواية وجمع أبي القاسم عبد الله بن محمد البغوي، تحقيق عامر أحمد حيدر (بيروت: مؤسسة نادر، 1990)، ص 187، وعبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي بن أبي شيبة، **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**، تحقيق كمال يوسف الحوت (الرياض: مكتبة الرشد، 1988)، ج 7، ص 21.

(43) رأى الإمام النووي، أن كلًا منها لقب بالجارف، ولا يختص واحد منها دون غيره بهذا اللقب؛ لأن معنى الجرف موجود في جميعها، يُنظر: النووي، **شرح النووي على مسلم**، ج 1، ص 105-106.

فيه والي الكوفة المغيرة بن شعبة[44] الذي أمر سكان الكوفة بالجلاء عنها عندما رأى تفشي الوباء، فنادى في الناس «هذا العذاب قد وقع، فاخرجوا عنه»[45]. وخرج بالفعل في زمن اشتداد الطاعون، فلما خفت حدة الوباء رأى العودة إلى الكوفة، فما إن بلغ خُصاص بني عوف حتى مات مطعونًا من فوره[46].

اختلف الأخباريون في تاريخ وفاة المغيرة بن شعبة بين عامي 49هـ/ 669م و51 هـ/ 671م، وضبْط تاريخ وفاة المغيرة بن شعبة على قدر ما من الأهمية؛ إذ إنه يوقت بدقة لهذا الطاعون، فالواقدي والمدائني يؤرخان وفاة المغيرة في عام 50هـ/ 670م[47]، وعلى هذا يُحتمل أن هذا الطاعون ضرب الكوفة في أواخر عام

---

(44) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 5، ص 285؛ المبرد، ص 220؛ المطهر بن طاهر المقدسي، **البدء والتاريخ** (بورسعيد: مكتبة الثقافة الدينية، [د. ت.])، ج 3، وج 5-6، ص 104؛ المسعودي، ج 3، ص 24؛ هبة الله بن علي بن حمزة بن الشجري، **أمالي ابن الشجري**، تحقيق محمود محمد الطناحي (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1991)، ج 2، ص 451؛ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992)، ج 5، ص 224؛ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب** (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، 1923)، ج 20، ص 324؛ ابن كثير، ج 11، ص 180؛ محمد بن يوسف بن علي بن سعيد الكرماني، **الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري**، ط 2 (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1981)، ج 1، ص 220؛ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **تاريخ ابن خلدون، المسمّى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، تحقيق خليل شحادة (بيروت: دار الفكر، 1988)، ج 3، ص 12؛ ابن حجر العسقلاني، **بذل الماعون**، ص 223؛ ابن تغري بردي، ج 1، ص 140؛ الأنصاري، 6 ظ، وعبد القادر بن عمر البغدادي، **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1997)، ج 7، ص 70.

(45) ابن قتيبة، **المعارف**، ج 1، ص 295؛ عز الدين بن الأثير، **الكامل في التاريخ**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري (بيروت: دار الكتاب العربي، 1997)، ج 3، ص 59، وأبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**، تحقيق مجموعة من الباحثين في 17 رسالة جامعية، تنسيق سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشثري (الرياض: دار العاصمة للنشر والتوزيع، 1998؛ دار الغيث للنشر والتوزيع، 2000)، ج 18، ص 34.

(46) الطبري، ج 5، ص 232؛ عبد الرحمن بن محمد بن اسحاق الأصبهاني بن منده العبدي، **المستخرج من كتب الناس للتذكرة والمستطرف من أحوال الرجال للمعرفة**، تحقيق عامر حسن صبري التميمي (المنامة: وزارة العدل والشؤون الإسلامية، [د. ت.])، ج 2، ص 613.

(47) الطبري، ج 5، ص 234.

49هـ/ 669م، فخرج المغيرة منها، وعاد إليها بعد شهور عدة بعد أن خفّت حدته بحلول عام 50هـ/ 670م. أما تأريخ عوانة بن الحكم الكوفي الأخباري (المتوفى في عام 158هـ/ 774م) لوفاة المغيرة بن شعبة في عام 51هـ/ 671م[48]، فلا يبدو دقيقًا، ذلك أن الكوفة شهدت في ذلك العام فتنة حُجر بن عدي، والحوادث التي أعقبت وقوع تلك الفتنة لا يرد فيها ذكر للمغيرة بن شعبة[49]، وعلى ذلك فإن الأرجح أن المغيرة توفي مطعونًا في مستهل عام 50هـ/ 670م.

في أي حال، سرعان ما تجدد طاعون الكوفة في عام 53هـ/ 672م، أي بعد أقل من ثلاثة أعوام من فورته الأولى، ليصاب به والي المدينة زياد بن أبيه الذي مات به هناك[50]. ولا يبدو أن هذا الطاعون كان عظيمًا بدليل أنه لم يمتد من العراق إلى الشام؛ فالبلاذري يذكر أن زياد بن أبيه كان عند الخليفة معاوية في الشام قبل موته بشهر واحد، وأن معاوية رغب في إبقائه عنده وحذَّره من الوباء. وربما يشير هذا إلى خروج زياد عندما استعر الوباء أسوة بالمغيرة من قبل، ومن ثم يمَّمَ باتجاه دمشق ليكون ضيفًا على الخليفة ريثما يرتفع الوباء عن الناس. وعندما عاد زياد إلى الكوفة ما لبث إلا شهرًا واحدًا ومات جراء الطاعون[51]. وكذلك مات فيه ابنه

---

(48) المرجع نفسه، ج 5، ص 324.

(49) يُنظر: المرجع نفسه، ج 5، ص 253، وما بعدها.

(50) المرجع نفسه، ج 5، ص 289؛ الراغب الأصفهاني، ج 1، ص 46؛ ابن الجوزي، **المنتظم**، ج 5، ص 255؛ ابن الأثير، ج 3، ص 88؛ النويري، ج 20، ص 343؛ أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** (أبو ظبي: منشورات المجمع الثقافي، 2002)، ج 5، ص 602؛ عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، تحقيق خليل المنصور (بيروت: دار الكتب العلمية، 1997)، ج 1، ص 128؛ ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، ج 3، ص 17؛ أبو البقاء كمال الدين محمد بن موسى الدميري، **حياة الحيوان الكبرى** (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003)، ج 1، ص 39؛ الأنصاري، ص 6 ظ، وعبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق محمود الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط (دمشق: دار ابن كثير، 1986)، ج 1، ص 321.

(51) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 5، ص 288. وابن واضح لا يذكر شيئًا عن ذلك، إلا أن زياد طُعن في إصبعه، وأن أعراض المرض ظهرت عليه فجأة فسقط من على المنبر مغشيًّا عليه. يُنظر أيضاً: أحمد بن اسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي: وهو تاريخ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي** (ليدن: مطبعة بريل، 1883)، ج 2، ص 280-281.

أبو سفيان بن زياد، على الرغم من أنه كان قد فرَّ بنفسه من الكوفة إلى الصحراء هربًا من الوباء[52].

2 - من الطاعون الجارف إلى الطاعون العام

ما إن قارب العقد السابع منتصفه، حتى ضربت سلسلة من الطواعين العظمى أرجاءَ الشام والعراق، لتمتد إلى مصر، حاصدةً أرواح مئات الآلاف من البشر.

اندلعت الفورة الأولى من تلك الطواعين في البصرة في عام 64هـ/ 683م، وكانت من الشدة حيث تروي المصادر أن أم أمير البصرة عبيد الله بن معمر ماتت فيه، فما وجدوا لها من يحملها ليدفنها، وبالكاد قبل أربعة أنفار أن يحملوها إلى حُفرتها[53]. ومن جملة من مات في هذا الطاعون الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وكان مرشحًا للخلافة[54]، كما مات فيه هند بن هند بن أبي هالة بن زرارة التميمي، حفيد خديجة بنت خويلد وابن ربيب رسول الله.[55]. ويُقال إن اليوم الذي مات فيه هند مات فيه سبعون ألفًا من أهل البصرة، فشغل الناس بجنائزهم عن جنازته فلم يجدوا من يحملها، فصاحت نادبته واهند بن هنداه، وربيب رسول الله، فلم تبق جنازة إلا وتُركت، وحُملت جنازته، على أطراف الأصابع إعظامًا لرسول الله[56].

---

(52) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 5، ص 398.

(53) المرجع نفسه، ج 6، ص 38؛ الطبري، ج 5، ص 612؛ ابن منده العبدي، ج 3، ص 71؛ ابن الجوزي: **المدهش**، ص 70؛ **المنتظم**، ج 6، ص 25؛ ابن الأثير، ج 3، ص 289؛ النويري، ج 21، ص 63، وأبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، **العبر في خبر من غبر**، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول (بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.])، ج 1، ص 56، وابن كثير، ج 11، ص 719.

(54) الذهبي: **العبر**، ج 1، ص 52؛ **تاريخ الإسلام**، تحقيق بشار عواد معروف (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2003)، ج 2، ص 729، والديار بكري، ج 2، ص 308.

(55) مات أبو هالة في الجاهلية، وعلى الأرجح قتل الصحابي هند بن أبي هالة يوم الجمل. أما هند بن هند فهو المتوفى في هذا الطاعون الذي وقع بالبصرة. يُنظر: أبو محمد عبد الملك بن هشام، **سيرة ابن هشام**، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي (القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1955)، ج 1، ص 187 [حاشية المحقق].

(56) أبو الفضل عياض بن موسى عياض [القاضي]، **الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مذيلًا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء للشمني** (القاهرة: دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، [د. ت.])، ج 1، ص 58؛ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام**، تحقيق عمر عبد السلام السلامي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، =

لا شك في أن ذلك الطاعون امتد في العام التالي ليضرب الشام، على الرغم من أنني أنظر بعين الشك والارتياب إلى الروايات التي تتحدث عن موت الخليفة معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بالطاعون عقب واقعة استعفائه من الخلافة، وتركها شورى في الناس بأقل من أسبوع واحد[57]، وكذلك إلى وفاة الخليفة مروان بن الحكم أيضًا مطعونًا قصره دمشق[58]، لأن البلاذري والمبرد والطبري ينقلون رواية مفادها أن هشام بن عبد الملك عندما أراد أن يبني الرصافة قيل له: لا تخرج، فإن الخلفاء لا يُطعنون، ولم نر خليفةً طُعن، فقال: أتريدون أن تجربوا بي! فنزل الرصافة[59]. إلا أن تلك الروايات عن وفيات الخلفاء جراء الطاعون، وفي هذا التوقيت قرينة قوية على امتداد الطاعون إلى الشام في هذا العام. كما أن ضرب الطاعون لمصر في العام التالي 66هـ/ 685م[60] قرينة أخرى، ولا نملك تفصيلات ضافيَة عن انتشار الوباء في مصر، لكن الذهبي يصف الوباء في مصر،

= 2000)، ج 2، ص 159، ونور الدين علي بن إبراهيم الحلبي، **إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون** (بيروت: دار الكتب العلمية، 2006)، ج 1، ص 204.

(57) المقدسي، **البدء والتاريخ**، ج 6، ص 17؛ ابن الأثير، ج 3، ص 226؛ غريغوريوس بن أهرون بن توما الملطي بن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، تحقيق أنطون صالحاني اليسوعي (بيروت: دار الشرق، 1992)، ج 1، ص 111؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 2، ص 729، وعبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي العصامي، **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي**، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض (بيروت: دار الكتب العلمية، 1998)، ج 3، ص 212. ثم روايات أخرى تؤكّد أن وفاته كانت طبيعية، وأنه توفي بعد أربعين يومًا من البيعة له. يُنظر: الطبري، ج 5، ص 503. والمسعودي يوحي أن ميتته كانت طبيعية، وإن كان لا ينص على ذلك. يُنظر: المسعودي، ج 4، ص 293. وابن سعد ينصّ على مرضه قبيل وفاته من دون أن يفصل القول في مرض موته. يُنظر: ابن سعد، ج 5، ص 38.

(58) النويري، ج 21، ص 96، وأحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، **مآثر الإنافة في معالم الخلافة**، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط 2 (الكويت: مطبعة حكومة الكويت، 1985)، ج 1، ص 125؛ وثمة رواية أخرى تشير إلى أن زوجته أم خالد بن يزيد بن معاوية قتلته بالسم، يُنظر: اليعقوبي، ج 2، ص 307، أو خنقًا، يُنظر: أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، **صُبح الأعشى في صناعة الإنشا** (بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.])، ج 3، ص 267.

(59) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 8، ص 389؛ المبرد، ص 221؛ الطبري، ج 7، ص 207؛ أحمد بن محمد بن مسكويه، **تجارب الأمم وتعاقب الهمم**، تحقيق أبو القاسم إمامي، ط 2 (طهران: سروش، 2000)، ج 3، ص 161؛ ابن الأثير، ج 4، ص 283، والراغب الأصفهاني، ج 2، ص 522.

(60) ابن خياط العصفري، **تاريخ خليفة**، ص 263، وابن حجر العسقلاني، **بذل الماعون**، ص 362.

في ذلك العام، بأنه كان وباءً عظيمًا[61]. وفي الأغلب أن عبارة الذهبي هي إعادة صوغ عبارة الواقدي التي نقلها عنه ابن كثير: «هلك فيه خلق كثير من أهلها»[62]، وهي عند ابن تغري بردي «مات فيه خلائق عظيمة»[63].

أما فورة الطاعون الكبرى التي عرفها المؤرخون باسم طاعون ابن الزبير، فإن الأصمعي والمدائني وخليفة بن خياط (في تاريخه)، فضلًا عن البلاذري[64]، اتفقوا جميعًا على التأريخ لها بعام 69هـ/ 688م. باستثناء ابن أبي الدنيا الذي لم يبتعد كثيرًا، فأرخ لها بعام 70هـ/ 689م[65]. أما خليفة بن خياط، فناقض نفسه في طبقاته، مؤرِّخًا لفورة ذلك الطاعون بعام 67هـ/ 686م. واتفق معه ابن حبان البُستي الذي أرخ لموت قبيصة بن حريث الأنصاري في الطاعون الجارف في عام 67هـ/ 686م[66]. ثم عاد فأرخ وفاة المحدِّث مطرف بن عبد الله بن الشخير العامري في العام عينه وبسبب الطاعون عينه[67]، وعن ابن حبان نقل المحدثون من بعد[68].

لا يخلو الأمر من أن يكون لخليفة وابن حبان مصدر مشترك لم يُفصحَا عنه. على أنني لا أستبعد وقوع التصحيف في بعض نسخ كتاب **طبقات خليفة** من «تسع وستين» إلى «سبع وستين». ويخامرني الشك في أن ابن حبان البستي

---

(61) الذهبي، **العبر**، ج 1، ص 54.

(62) ابن كثير، ج 12، ص 40.

(63) ابن تغري بردي، ج 1، ص 179.

(64) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 6، ص 81، يُقارن أيضًا: الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 2، ص 616، وابن العماد الحنبلي، ج 1، ص 297.

(65) ابن أبي الدنيا، ج 58.

(66) محمد بن حبان بن أحمد التميمي بن حبان البستي: **الثقات** (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، 1973)، ج 5، ص 319، **ومشاهير علماء الأمصار**، تحقيق مرزوق علي إبراهيم (المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 1991)، ص 144.

(67) ابن حبان البستي، **مشاهير علماء الأمصار**، ص 144.

(68) على سبيل المثال، يُنظر: يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف المزي، **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، تحقيق بشار عواد معروف (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1980)، ج 23، ص 476، وأبو محمد محمود بن أحمد العيني، **مغاني الأخيار في شرح أسامي رجال معاني الآثار**، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل (بيروت: دار الكتب العلمية، 2006)، ج 2، ص 472.

الذي تكتم مصدره في ما يتعلق بتاريخ وفاة حريث بن قبيصة العامري، لم يعتمد مصادر حديثية قديمة، وإنما اعتمد على طبقات خليفة بن خياط في التأريخ لوفاة قبيصة؛ ذلك أن تأريخ خليفة لهذا الطاعون في طبقاته إنما جاء في سياق ترجمة حريث بن قبيصة العَامري بالذات[69]. وعلى هذا التاريخ، الذي ورد عند خليفة في وفاة حريث، أرّخ ابن حبَّان، مجتهدًا، لوفاة مطرف الشخير في العام نفسه، وجراء الطاعون نفسه. بيد أن مطرف قضى نحبه في طاعون آخر عُرف بطاعون الفتيات الذي ضرب الشام في عام 87هـ/ 705م. واختلط الأمر على ابن حبان بشأن وفاة مطرف لسبب وجيه، هو أن كلًا من طاعونَي ابن الزبير والفتيات لقِّبَ بالجارف، كما سيأتي في ما بعد.

كيفما كان الأمر، فمن بين روايات الأخباريين يجب، كما أعتقد، أن نأخذ في الحسبان رواية المدائني خصوصًا، لا لأن المدائني أدرك بعضَ من عاصر ذلك الطاعون واستمد مادته من أفواهه مباشرة فحسب[70]، وإنما أيضًا لأن تحركات البيزنطيين العسكرية ترجّح عام 69هـ/ 688م تاريخًا لهذا الطاعون؛ إذ تجرأ الروم في عام 70هـ/ 689م على مهاجمة الشام، واضطر عبد الملك بن مروان إلى دفع جزية قدرها ألف دينار أسبوعيًا ليكف الروم عنه[71]. وكان البيزنطيون ينتهزون فرصة وقوع الطاعون في الشام والعراق ويهاجمون المدن على الثغور ليقينهم التام بضعف المدافعين وانقطاع المَدَد عنهم عقب فورات الوباء الكبرى. وسنرى، في ما بعد، أن ذلك السلوك كرره الروم لاحقًا، ومن ثم لا يسعنا إلا ترجيح وقوع ذلك الطاعون بين عامي 69 و70هـ/ 688 و689م.

في أي حال، نُسبت فورة ذلك الطاعون الكارثي إلى مصعب بن الزبير الذي تولى حكم البصرة في هذا العام من أخيه عبد الله بن الزبير، خلفًا للحارث بن عبد الله بن ربيعة الأزدي[72]. وبلغت شدة الوباء في هذه الفورة حدًّا غير مسبوق؛

---

(69) ابن خياط العصفري، **طبقات خليفة**، ص 331.

(70) الذهبي، **العبر**، ج 1، ص 56، وابن تغري بردي، ج 1، ص 182.

(71) الطبري، ج 6، ص 150.

(72) محمد بن عبد الله بن أحمد بن زبر الربعي، **تاريخ مولد العلماء ووفياتهم**، تحقيق عبد الله أحمد سليمان الحمد (الرياض: دار العاصمة، 1989)، ج 1، ص 189.

إذ استمرت ثلاثة أيام حصدت فيها أرواح الناس حصدًا، بمعدل 70 ألف ضحية للوباء في اليوم الواحد، وفقًا لرواية المدائني التي استمدها من بعض من أدرك هذا الطاعون كما ذُكر آنفًا[73]، فأفنت سكان البصرة أو كادت. أخذًا بالاعتبار أن الوضع الديموغرافي للبصرة ربما تضرر كثيرًا قبيل الطاعون الجارف، ولا سيما في فورة طاعون عام 64هـ/ 683م، كان الجارف ذروة سلسلة من فورات الوباء بدأت بضرب العراق والشام ومصر.

ثمة إشارات وردت في مصادر أخرى تعضد رواية المدائني، فتحدثت عن تراكم جثث الموتى في المدينة[74] وعن تحول البصرة، تلك المدينة الزاهرة، إلى مدينة أشباح، ذلك أنه في الجمعة التالية، كان مسجد البصرة الجامع الذي يغص بالمصلين، خاليًا منهم، ولم يحضر لصلاة الجمعة سوى سبعة رجال وامرأة. وعندما سأل ابن عامر إمام الجامع، المصلين أين الناس، ردت عليه المرأة بقولها: «في التراب»[75].

حضور سبعة أنفار لصلاة الجمعة في جامع المدينة في عقب الطاعون مؤشر فعلي على إبادة ذلك الطاعون شبه التامة لسكان البصرة. ويُروى أن أنس بن مالك مر بالبصرة قبيل الطاعون الجارف، فجعل يمر بالمسجد فيقول: «هذا مسجد أحدثه بنو فلان. فقال: كان يقال: يأتي على الناس زمان يبنون المساجد يتباهون بها، ثم لا يعمرونها إلا قليلًا. فجاء الجارف فجرفهم»[76]. ومن ثم، لا

(73) أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي: **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1997)، ص 31؛ **العبر**، ج 1، ص 56؛ **تاريخ الإسلام**، ج 2، ص 616؛ اليافعي، **مرآة الجنان**، ج 1، ص 116، وابن العماد الحنبلي، ج 1، ص 297.

(74) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 6، ص 81، وابن أبي الدنيا، **الاعتبار**، ص 58.

(75) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، **الشعر والشعراء** (القاهرة: دار الحديث، 2002)، ج 2، ص 719؛ ابن منده العبدي، ج 3، ص 72؛ ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، ج 1، ص 97، والديار بكري، ج 2، ص 309.

(76) ابن حجر العسقلاني، **المطالب العالية**، ج 3، ص 500، وشهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز البوصيري، **إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة**، تحقيق دار المشكاة للبحث العلمي (الرياض: دار الوطن للنشر، 1999)، ج 2، ص 14.

عجب في أن يطلق الناس اسم الطاعون الجارف على تلك الفورة الكارثية من الطاعون ليصبح أول طاعون يُلقب بالجارف في تاريخ الإسلام[77].

إن كثرة عدد أعيان الناس الذين ذكرت كتب الرجال والتراجم وفاتهم في هذا الطاعون مؤشر على أن الرواة والأخباريين لم يبالغوا كثيرًا في تقدير أعداد ضحايا ذلك الطاعون؛ فممن ماتوا في هذا الطاعون من الأعيان ظالم بن عمرو بن سفيان المعروف بأبي الأسود الدؤلي، أحد أعيان التابعين وأول من تكلم في النحو[78]. وكذلك مات فيه قبيصة بن حريث الأنصاري[79]، ويزيد بن زياد بن ربيعة بن مفرغ الحميري البصري الشاعر[80]، وشريك بن الأعور[81]، وحميد البصري[82]،

---

(77) ابن قتيبة، **المعارف**، ج 1، ص 601.

(78) علي بن الحسين أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1994)، ج 12، ص 507؛ ابن منده العبدي، ج 3، ص 70؛ كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري الأنباري، **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، تحقيق إبراهيم السامرائي (عمّان: مكتبة المنار، 1985)، ص 22؛ مجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير الجزري، **جامع الأصول في أحاديث الرسول**، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط وبشير عيون (دمشق: مكتبة الحلواني؛ مطبعة الملاح؛ مكتبة دار البيان، 1969-1972)، ج 12، ص 549؛ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله ياقوت الحموي، **معجم الأدباء المسمى إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993)، ج 4، ص 1465؛ جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار الفكر العربي، 1982)، ج 1، ص 55؛ أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر، 1994)، ج 2، ص 539؛ محمد بن مكرم بن علي بن منظور، **مختصر تاريخ دمشق**، تحقيق روحية النحاس ورياض عبد الحميد مراد ومحمد مطيع (دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، 1984)، ج 11، ص 231؛ الذهبي: **معرفة القراء الكبار**، ص 31؛ **تاريخ الإسلام**، ج 2، ص 737؛ عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري بن الملقن، **التوضيح لشرح الجامع الصحيح**، تحقيق دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث (دمشق: دار النوادر، 2008)، ج 28، ص 369؛ الدميري، ج 1، ص 488؛ ابن تغري بردي، ج 1، ص 184، وابن العماد الحنبلي، ج 1، ص 297.

(79) ابن حبان البستي، **الثقات**، ج 5، ص 319، والعيني، **مغاني الأخيار**، ج 2، ص 472.

(80) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 2، ص 731.

(81) البغدادي، ج 4، ص 334.

(82) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: **التاريخ الأوسط**، تحقيق محمود إبراهيم زايد =

ويعقوب بن بجير بن أسيد، وقيس بن السكن، ومالك بن يخامر السكسكي، والأحنف بن قيس، وحسان بن فائد العبسي، ومالك بن عامر الوادعي[83]، ويحيى بن يعمر[84].

في أي حال، سُرعان ما امتد الوباء إلى مصر في عام 70هـ/ 689م[85]، ويبدو أنه كان وباءً عظيمًا، أصيب به عدد كبير من الناس، وتسبب في هرب عبد العزيز بن مروان من الفسطاط إلى نواحي الشرقية[86]، ثم إلى حُلوان التي اشتراها من القبط بعشرة آلاف دينار، وبنى فيها دارًا للإمارة، وجامعًا، وأنزل بها الجند[87]، مستخلفًا عبد الرحمن بن معاوية بن حديج الكندي، فجمع له القضاء والشرطة بالفسطاط[88].

3 - طواعين العقدين التاسع والعاشر

قرب نهاية العقد الثامن من القرن الأول الهجري، تجدد الوباء في الشام في عام 79هـ/ 698م[89]، أيام عبد الملك بن مروان، وبلغ ذروته في عام

= (حلب: دار الوعي، 1977)، ج 1، ص 188؛ **التاريخ الكبير** (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، [د. ت.])، ج 2، ص 349، وابن منده العبدي، ج 3، ص 68.

(83) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 2، ص 616.

(84) محمد بن محمد بن يوسف بن الجزري، **غاية النهاية في طبقات القراء**، تحقيق ج. برجستراسر (بيروت: دار الكتب العلمية، 2006)، ج 1، ص 346.

(85) الذهبي، **العبر**، ج 1، ص 58، وابن العماد الحنبلي، ج 1، ص 300.

(86) أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي، **كتاب الولاة وكتاب القضاة**، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003)، ص 39، والذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 2، ص 618.

(87) أبو بكر محمد بن خلف وكيع، **أخبار القضاة**، صحّحه وعلّق عليه وخرّج أحاديثه عبد العزيز مصطفى المراغي (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، 1947)، ج 3، ص 226، وابن كثير، ج 12، ص 130.

(88) يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري (الرباط: منشورات وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1967)، ج 6، ص 216.

(89) الذهبي، **العبر**، ج 1، ص 66.

80هـ/ 699م حتى كاد الناس يفنون من شدته[90]. وسرعان ما انتشر وباء الطاعون في أرجاء الدولة، فامتد إلى العراق، فينقل الطبري عن الواقدي أن ذلك الطاعون ضرب البصرة في العام نفسه[91]. ثم امتد إلى مصر لاحقًا[92]، ثم إلى الجزيرة والحجاز[93]. بيد أن المصادر لا تكاد تعطينا تقديرات محددة لعدد الضحايا، لكننا بالتأكيد إزاء طاعون جارف آخر[94]، لم يقِل شدة عن طاعون ابن الزبير الذي لم يمض على وقوعه أكثر من عشرة أعوام، لأن الطبري يتحدث عن فناء أهل الشام فيه، والمسعودي (المتوفى في عام 346هـ/ 860م) يُطلِق عليه اسم الطاعون العام، ويشير إشارة عابرة إلى انتشاره خارج الدائرة التقليدية التي يشير إليها الرواة والكتاب عادة والتي تضم البصرة والكوفة وواسط والشام ومصر؛ فالمسعودي أشار إلى الجزيرة الفراتية، وهو أمر بدهي؛ إذ لا يُعقل أن يضرب الطاعون العراق والشام ولا يصل إلى الجزيرة. أما وصوله إلى الحجاز، وربما إلى اليمن أيضًا، فأمر يبرر تسمية ذلك الوباء بالطاعون العام الذي ترتب عنه أن أحدًا لم يغزُ الروم في ذلك العام بسبب فناء الناس العظيم في الطاعون[95]. والأهم من ذلك أن الروم تحركوا على الفور، كما هو متوقع، وهاجموا أنطاكية[96].

في عام 85هـ/ 704م وقعت في مصر، مجددًا، فورة قاسية من الطاعون في العام الأخير من ولاية عبد العزيز بن مروان[97] الذي دفعته، مرة أخرى، إلى ترك الفسطاط هربًا من الطاعون؛ ففي رواية ابن عبد الحكم عن سعيد بن موسى بن تليد (المتوفى في عام 219هـ/ 834م)، فر عبد العزيز بنفسه إلى حلوان، داخلًا فى الصحراء فى موضع منها يقال له أبو قرقور، حيث كان ابن حديج يرسل

(90) ابن منده العبدي، ج 3، ص 102؛ ابن كثير، ج 12، ص 296، وابن العماد الحنبلي، ج 1، ص 325.

(91) الطبري، ج 6، ص 325، وابن الجوزي، **المنتظم**، ج 6، ص 211.

(92) ابن حجر العسقلاني، **بذل الماعون**، ص 223.

(93) المسعودي، ج 3، ص 167.

(94) الطبري، ج 6، ص 325.

(95) المرجع نفسه، ج 6، ص 325.

(96) المرجع نفسه، ج 6، ص 322.

(97) ابن تغري بردي، ج 1، ص 209.

إلى عبد العزيز كل يوم بخبر ما يحدث في البلد من موت وغيره[98]. وفي رواية للمدائني، فر إلى الصعيد في بلدة يقال لها «سَكر»، ويقال إنه توفي فيها هناك[99]. هنا، أعتقد أن رواية ابن تليد التي نقلها ابن عبد الحكم أصح؛ فالمدائني ربما خلط بين عبد العزيز بن مروان ومحمد بن عبد الملك بن مروان الذي تولى حكم مصر في عام 105هـ/ 723م، وهو عام وباء انتشر فيها الطاعون، فاضطر إلى الهرب إلى الصعيد، كما سنرى في ما بعد.

ما لبث طاعون مصر أن خمد إلى حين، حتى أصابت فورتان عنيفتان منه الشام والعراق؛ ففي دمشق، اندلع طاعون أطلق عليه المؤرخون اسم طاعون الفتيات[100] الذي عُرف بهذا الاسم لأنه بدأ بحصد أرواح العذارى والجواري في البصرة ثم واسط ثم الكوفة فالشام[101]. ووفقًا للمدائني، ضرب هذا الطاعون

---

(98) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، **فتوح مصر والمغرب** (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1994)، ص 264.

(99) أبو الفرج الأصفهاني، ج 1، ص 282؛ ابن عبد البر، ج 6، ص 216. ويسوق بعض المصادر المتأخرة قصة طريفة في وفاة عبد العزيز بن مروان، مؤداها أن معاوية احتاج إلى أن يرسل رسولًا إلى القرية التي فرّ إليها عبد العزيز، فلمّا مثل الرسول بين يدي عبد العزيز سأله الأخير عن اسمه فقال: أبو طالب، فأنكر عليه أن يسأله عن اسمه فيتكنّى، فقال اسمي مدرك، فسأله عبد العزيز عن قومه، فقال من بني لاحق، فتطير به ومرض مرض موته. يُنظر: محمد بن الحسين بن محمد بن خلف أبو يعلى الفراء، **رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة**، تحقيق صلاح الدين المنجد (بيروت: دار الكتاب الجديد، 1972)، ص 86؛ محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، تحقيق إحسان عباس وبكر عباس (بيروت: دار صادر، 1996)، ج 8، ص 18؛ النويري، ج 3، ص 144؛ ابن حجر العسقلاني، **بذل الماعون**، ص 276، وشهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، **المستطرف في كلّ فن مستظرف** (بيروت: عالم الكتب، 1998)، ص 334.

(100) وعند نفر من الكُتّاب «طاعون القينات»، يُنظر: البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 13، ص 412؛ ابن حبان البُستي، **مشاهير علماء الأمصار**، ص 147؛ أبو عبد الله مغلطاي بن قليج، **إكمال تهذيب الكمال**، تحقيق عادل بن محمد وأسامة بن إبراهيم (القاهرة: دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، 1991)، ج 2، ص 269؛ ابن حجر العسقلاني، **بذل الماعون**، ص 363، وابن تغري بردي، ج 1، ص 212.

(101) ابن حبان البستي، **الثقات**، ج 4، ص 40؛ النووي، **الأذكار**، ص 153؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 2، ص 916؛ ابن تغري بردي، ج 1، ص 212، وجلال الدين أبو بكر عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، تحقيق حمدي الدمرداش (مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، 2004)، ص 163.

الشام في شوّال 87هـ/ 706م[102]، أمّا الأصمعي فيؤرخه بموت عبد الملك بن مروان أو بُعيده، معتبرًا إياه طاعونًا واحدًا عُرف باسمين مختلفين، فتارة طاعون الفتيات وتارة أخرى طاعون الأشراف[103]. أما خليفة بن خياط، فيؤرخ هذا الطاعون في عام 85هـ/ 704م.

من ثَمّ، فإن الأخباريين يحصرون وقوع هذا الطاعون بين عامي 85هـ/ 704م و87هـ/ 706م. كما أن ثمة اضطرابًا يعم المصادر في شأن علاقة طاعون الفتيات بطاعون الأشراف، ولا سيما عند من ينقلون عن الأصمعي، ومن بين هؤلاء لا يستوقفنا، ربما، إلا ابن مَنْدَه الأصبهاني (المتوفى في عام 470هـ/ 1077م) الذي يؤرخ لطاعون الفتيات في عام 82هـ/ 701م ويذكر أنه ابتدأ بالبصرة ثم الكوفة فواسط والشام[104]. ثم يعود - نقلًا عن الأصمعي - ليؤرخ له في عام 87هـ/ 705م، مقرًا بأنه عُرف أيضًا بطاعون الأشراف لكثرة وفيات أبناء الأشراف فيه[105]. وفي موضع آخر يعود فينص على أن طاعون الأشراف اندلع في العام نفسه الذي وقع فيه الطاعون الجارف (طاعون الفتيات؟!) في عام 87هـ/ 706م[106]. ولا يذكر الأخباريون والمؤرخون طاعونًا وقع في عام 82هـ/ 701م، ومن الواضح أن ابن منده يخلط بين الطاعون العام الذي ضرب العراق والجزيرة الشام والحجاز ومصر بين عامي 79 و80هـ/ 698 و699م طاعون الفتيات. أما اعتباره طاعون الفتيات والأشراف طاعونًا واحدًا، فإنما وقع لاعتماده رواية الأصمعي دون غيره في أخبار ذلك الطاعون.

في أي حال، نحن إزاء طاعونين منفصلين ضربا مدن الشام والعراق، وذلك لأننا إزاء اسمين مختلفين أُطلقا على الوباء، وكذلك لأننا إزاء خليفتين متتاليين ترك كل منهما دمشق اتقاء للوباء، بين عامي 86هـ/ 705م و87هـ/ 706م، وهما عبد الملك

(102) ابن سعد، ج 7، ص 146؛ ابن خياط العصفري، **تاريخ خليفة**، ص 301؛ النووي، **الأذكار**، ص 153، والأنصاري، ص 6 ظ.

(103) ابن قتيبة، **المعارف**، ص 601، وابن الجوزي، **المنتظم**، ج 6، ص 267.

(104) ابن منده العبدي، ج 3، ص 104.

(105) المرجع نفسه، ج 3، ص 120. يُقارن أيضًا: ابن كثير، ج 12، ص 375.

(106) ابن منده العبدي، ج 3، ص 121.

بن مروان، وهي رواية ابن أبي الدنيا عن الصحابي أبي عتبة الخولاني[107]، والوليد بن عبد الملك، وهي رواية ابن سعد كاتب الواقدي[108]. من ثم، فنحن إزاء فورتين من الطاعون، اندلعت **الأولى** في البصرة عام 86هـ/ 705م، ثم امتدت إلى الكوفة وواسط وصولًا إلى قلب الشام، وكانت تلك الفورة من الطاعون هي التي أطلق عليها الناس طاعون الأشراف، واستعرت **الثانية** في الشام عام 87هـ/ 706م، في خلافة الوليد بن عبد الملك، فارتدّت الكرَّة مجددًا من الشام على مدن العراق ثانية، وأُطلق عليها «طاعون الفتيات»[109]. وربما كان تقارب الطاعونين على هذا النحو مبرر خلط الأخباريين والمؤرخين بينهما، فكلاهما وقع في ولاية الحجاج بن يوسف للعراق، وكلاهما ضرب واسط، قصبة الولاية آنذاك، التي تضررت بشدة ففقدت فيه عددًا عظيمًا من سكانها، حتى قال الناس «لا يكون الطاعون والحَجاج»[110].

يُفهم من سياق حديث الإمام البخاري (المتوفى في عام 256هـ/ 869م) عن وفاة المحدث مطرف بن عبد الله الشخير أن تلك الفورة الثانية من ذلك الطاعون، أي التي وقعت في عهد الوليد بن عبد الملك في عام 87هـ/ 706م، هي التي لقّبها الناس بالطاعون الجارف دون الأولى[111]. ولم يحفظ القدماء لنا

---

(107) جلال الدين أبو بكر عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور**، تحقيق عبد المجيد طعمة حلبي (بيروت: دار المعرفة، 1996)، ص 24. يُقارن أيضًا: الراغب الأصفهاني، ج 2، ص 507.

(108) ابن سعد، ج 7، ص 146؛ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **البيان والتبيين** (بيروت: دار ومكتبة الهلال، 2002)، ج 2، ص 142؛ أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، **العقد الفريد** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1983)، ج 3، ص 142؛ منصور بن الحسين الرازي أبو سعد الآبي، **نثر الدر في المحاضرات**، تحقيق خالد عبد الغني محفوظ (بيروت: دار الكتب العلمية، 2004)، ج 3، ص 38؛ الراغب الأصفهاني، ج 2، ص 203، وأمين الدولة محمد بن محمد بن هبة الله العلوي الأفطسي، **المجموع اللفيف** (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2004)، ص 398.

(109) رأى ابن حجر أن طاعون الأشراف طاعون آخر لا يمتّ بصلة إلى طاعون الفتيات، اللهم إلا وقوعهما في العام نفسه. يُنظر: ابن حجر العسقلاني، **بذل الماعون**، ص 363.

(110) المرجع نفسه، ص 223؛ ابن تغري بردي، ج 1، ص 230، والسيوطي، «ما رواه الواعون»، ص 178و.

(111) البخاري، **التاريخ الأوسط**، ج 1، ص 182. يُقارن أيضًا: ابن حجر العسقلاني، **بذل الماعون**، ص 223.

تقديرات عن عدد الضحايا في هذا الطاعون، وليس لدينا في هذا الصدد إلا رواية ابن أبي الدنيا من أن الأسرة كانت تذهب فيه بكاملها فلا يبقى منها أحد[112]. غير أن هذا الطاعون ربما كان من أسوأ الطواعين في العصر الأموي عنفًا وشراسة؛ إذ حصد أرواح أهل الشام حصدًا، حتى إن الأحياء كانوا يحفرون قبورهم بأيديهم يأسًا من النجاة، فالتابعي بشير بن كعب بن أبي الحميري حفر قبرًا لنفسه وظل يقرأ فيه القرآن حتى مات في حفرته[113]. وفي هذا دلالة على أن هذا الوباء كان كارثيًا إلى درجة تسليم الناجين منه بأنهم مدركون. وممن لقي حتفه في هذا الطاعون من الأعيان أميَّة بن خالد بن عبد الله بن أسيد[114] وعلي بن أصمع وقبيصة بن ذؤيب الخزاعي[115] ومطرف بن عبد الله الشخير[116] وسعيد بن أبي الحسن[117] وصعصعة بن حصن[118]. وسجّل الراهب السرياني المعروف بالزُّقنيني وفاة نحو 72 راهبًا من دير مار سيلا في نواحي سَرُوج، جرّاء هذا الطاعون[119].

ما لبثت فورة أخرى من الطاعون أن اندلعت في الشام وضربت مدنها مجدَّدًا

---

(112) ابن أبي الدنيا، **الاعتبار**، ص 60.

(113) البخاري، **التاريخ الأوسط**، ج 1، ص 193؛ البخاري، **التاريخ الكبير**، ج 2، ص 132؛ ابن عساكر، ج 10، ص 320؛ ابن الأثير الجزري، ج 12، ص 219؛ ابن قليج، **إكمال تهذيب الكمال**، ج 2، ص 321، وابن حجر العسقلاني، **المطالب العالية**، ج 5، ص 310.

(114) ابن قليج، **إكمال تهذيب الكمال**، ج 2، ص 269.

(115) ابن منده العبدي، ج 3، ص 118.

(116) البخاري، **التاريخ الأوسط**، ج 1، ص 182؛ البخاري، **التاريخ الكبير**، ج 7، ص 396؛ ابن حبان البستي، **مشاهير علماء الأمصار**، ص 144؛ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، **صفة الصفوة**، تحقيق أحمد بن علي (القاهرة: دار الحديث، 2000)، ج 2، ص 133؛ ابن الأثير، ج 4، ص 12؛ يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف المزي، **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، تحقيق بشار عواد معروف (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1980)، ج 16، ص 150، وأبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **تقريب التهذيب**، تحقيق محمد عوامة (دمشق: دار الرشيد، 1986)، ص 323.

(117) البخاري، **التاريخ الأوسط**، ج 1، ص 318.

(118) ابن قتيبة، **المعارف**، ج 1، ص 601.

(119) ديونسيوس التلمحري، «تاريخ الأزمنة»، في: شادية توفيق حافظ، «ديونسيوس التلمحري ومخطوطته تاريخ الأزمنة: ترجمة ودراسة»، أطروحة دكتوراه غير منشورة، قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب، جامعة القاهرة، 1982، ص 94.

بعد أقل من عشرة أعوام، وبالتحديد في عام 96هـ/ 714م، لكن المصادر تصمت هذه المرة عن مصدر هذا الطاعون والمدن التي ضربها. ومن الغريب أن الأخباريين لا يشيرون إلى هذا الطاعون أبدًا، على الرغم من تعرض ابن أبي الدنيا لأخباره في كتابه **الطواعين**؛ إذ تسلل إلى قصر الخليفة نفسه، فقتَل ولي عهد سليمان وأحب أبنائه إليه، أيوب بن سليمان بن عبد الملك(120)، بل أهل بيته جميعهم أيضًا، بمن في ذلك الخدم والعبيد. ها هُنا يمكن أن نترك الحديث لابن أبي الدنيا لينقل لنا صورة من صور الإبادة الجماعية لذلك الطاعون:

حدثني عبد الله بن عمرو البلخي، قال: حدثني عبد الله بن الحارث التميمي، قال: أخبرني اسحاق بن حفص المروزي، عن علي بن الحسن بن شقيق، عن عبد الله بن المبارك، عن أبي كنانة، قال: أخبرني بريد ليزيد بن المهلب قال: «حملت حِملين مِسْك من خراسان إلى سليمان بن عبد الملك، فانتهيت إلى باب ابنه أيوب، وهو ولي العهد، فدخلت عليه فإذا دار مُجصَّصة حيطانها وسقوفها، وإذا فيها وصفاء ووصائف، عليهم ثياب صفرة، وحلي الذهب. ثم أدخلت دارًا أخرى، فإذا حيطانها وسقوفها خضر، وإذا وصفاء ووصائف عليهم ثياب خضر، وحُلي الزمرد. قال: فوضعت الحملين بين يدي أيوب وهو قاعد على سرير معه امرأته، لم أعرف أحدهما من صاحبه، فانتُهب المسك من بين يديه، فقلت له: أيها الأمير، اكتب لي براءة، فزَبرني، فخرجت فأتيت سليمان فأخبرته بما كان، فقال: قد عرفنا قصتك، فكتب لي براءة، ثم عدت بعد أحد عشر يومًا، فإذا أيوب ومن كان معه جميعهم في داره قد ماتوا، أصابهم الطاعون(121).

أجبرت حدة ذلك الوباء الخليفة سليمان على ترك دمشق والنجاة بنفسه، فقصد أحد الأديار، وأقام فيه حتى ارتفع الوباء عن الناس(122).

---

(120) ابن أبي الدنيا، **الاعتبار**، ص 40.

(121) المرجع نفسه، ص 44. ويُنظر أيضًا: السيوطي، «ما رواه الواعون»، ص 179و.

(122) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 8، ص 411؛ ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج 5، ص 193؛ أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، **الإعجاز والإيجاز** (القاهرة: مكتبة القرآن، [د. ت.])، ص 79، وأبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، **ربيع الأبرار ونصوص الأخيار** (بيروت: مؤسسة الأعلمي، 1991)، ج 5، ص 42.

4 - الطواعين وبداية النهاية للخلافة الأموية

ضرب الطاعون البصرة مجددًا في عام 100هـ/ 718م، في عهد عمر بن عبد العزيز[123]، وكان على البصرة عدي بن أرطأة، فنُسِبَ ذلك الطاعون إليه[124]. ويؤرخه الأصمعي في عام 100هـ/ 718م، ويتجاهل كلٌّ من المدائني وخليفة بن خياط الإشارة إليه. مع ذلك، فإن تاريخ هذا الطاعون لا يرقى إليه الشك؛ إذ مات فيه عبد الملك بن عُمر بن عبد العزيز[125]، وامتد ذلك الطاعون إلى الشام وصولًا إلى دمشق. ويذكر القاضي زكريا الأنصاري أن محمد بن سيرين (المتوفى في عام 110هـ/ 729م) فَقَد في هذا الطاعون ثلاثين ولدًا، حيث لم يبق له من ذريته إلا ولده عبد الله[126]. وعلى الرغم من ضخامة ذلك العدد الذي يوحي بأننا ربما كنا بإزاء طاعون جارف آخر، فإن المثير للانتباه أن كتب الرجال والتراجم لا تكاد تمدنا باسم واحد لأحد العلماء أو الخواص ممن مات جراءه!

بعد أقل من خمسة أعوام، وتحديدًا في عام 105هـ/ 723م، ضرب الطاعون مصر مجددًا بُعيد تولية محمد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم على مصر بأيام، ففر منها محمد إلى الصعيد لكن لم تطُل مدته هناك. وعاد بعد أيام إلى الفسطاط، ثم طلب النجاة فخرج من مصر إلى الأردن، وما لبث أن استعفى الخليفة هشام بن عبد الملك من الولاية فأعفاه، ولم تدم ولايته على مصر شهرًا واحدًا[127].

يتحدث كلٌّ من خليفة بن خياط واليعقوبي، نقلًا عن هشام بن السائب الكلبي (المتوفى في عام 204هـ/ 819م)، عن طاعون ضرب الشام في أيام هشام بن عبد

---

(123) ابن تغري بردي، ج 1، ص 243.

(124) ابن قتيبة، **المعارف**، ج 1، ص 601؛ ابن منده العبدي، ج 3، ص 159؛ ابن حجر العسقلاني، **بذل الماعون**، ص 363، وابن الجوزي، **المنتظم**، ج 7، ص 57.

(125) المبرد، ص 79؛ أحمد بن عبد الله بن أحمد بن اسحاق بن موسى بن مهران أبو نعيم الأصفهاني، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء** (القاهرة: مطبعة السعادة، 1974)، ج 5، ص 354، والراغب الأصفهاني، ج 2، ص 528.

(126) الأنصاري، ص 6ظ.

(127) الكندي، ص 56، وابن تغري بردي، ج 1، ص 257.

الملك في عام 107هـ/ 725م، فأخاف الناس، وذهبت فيه الدواب والبقر[128]. وعلى الرغم من أن المسلمين برعوا في تمييز الطاعون من غيره من الأوبئة، فإن إشارات المصادر عن خوف الناس فحسب، وترك الحديث عن الخسائر البشرية المعتادة في الطواعين، جنبًا إلى جنب مع ذكر الخسائر في الدواب والبقر، إضافة إلى عدم نص كتب الرجال والتراجم على أسماء أعيان لقوا حتفهم جراء ذلك الطاعون، هذا كله يمكن أن يوحي بأننا لسنا إزاء وباء الطاعون، وإنما أمام وباء كالحمى القلاعية أو الطاعون البقري أو ما شابه من أوبئة الحيوان. بناء على ذلك، فإني إلى الشك أقرب في أن يكون هذا الوباء طاعونًا.

كيفما كان الأمر، فإن الطاعون ما لبث أن أطل بوجهه من جديد، فابتداءً بين عامي 114هـ/ 732م و119هـ/ 737م، وقعت سلسلة من فورات الطاعون، حملت واحدةٌ منها على الأقل ذلك اللقب المخيف «الجارف»؛ إذ نقل الطبري عن الواقدي خبر ضرب الطاعون في أواسط في عام 114هـ/ 732م[129]، ثم امتد إلى الشام في غضون عام 115هـ/ 733م[130]، ثم ما لبث الطاعون أن ثار مرة أخرى في عام 119هـ/ 737م، حين مات فيه أحد أئمة التابعين، وهو قتادة بن دعامة السدوسي[131]. واللافت أن من تَرجم للسّدوسي ذكر وفاته في ما سمّاه

(128) اليعقوبي، ج 2، ص 293؛ ابن خياط العصفري، **تاريخ خليفة**، ص 337؛ الطبري، ج 7، ص 40؛ ابن الجوزي، **المنتظم**، ج 7، ص 117؛ الأنصاري، ص 6ظ، وابن تغري بردي، ج 1، ص 261. وابن الأثير يؤرخه بسنة 108هـ/ 726م. يُنظر: ابن الأثير، ج 4، ص 182.

(129) الطبري، ج 7، ص 90. يُقارن أيضًا: ابن الجوزي، **المنتظم**، ج 7، ص 159؛ ابن الأثير، ج 4، ص 215؛ أبو عبد الله مغلطاي بن قليج، **الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفا**، تحقيق محمد نظام الدين الفتيح (دمشق: الدار الشامية؛ بيروت: دار القلم، 1996)، ص 490؛ ابن كثير، ج 13، ص 22؛ ابن تغري بردي، ج 1، ص 274، والأنصاري، ص 6 ظ.

(130) الطبري، ج 7، ص 92؛ ابن الجوزي، **المنتظم**، ج 7، ص 164؛ ابن الأثير، ج 4، ص 217، وابن تغري بردي، ج 1، ص 275.

(131) أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، **التفسير البسيط**: 15 **رسالة جامعية**، تحقيق مجموعة من الباحثين، إشراف وتنسيق عمادة البحث العلمي في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (الرياض: منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 2008)، ج 1، ص 411؛ علي بن مُفرّج بن حاتم بن المفضل المقدسي، **الأربعون على الطبقات**، تحقيق محمد سالم بن محمد بن جمعان العبادي (الرياض: أضواء السلف، 1993)، ص 134؛ ابن كثير، ج 13، ص 77؛ =

«الطاعون الجارف بالبصرة»، مؤرخًا إياه بعام 119هـ/ 737م[132]، وهو ما يشير بالضرورة إلى شدةِ فتك ذلك الطاعون بالناس في هذه الفورة.

بعد أقل من سبعة أعوام ضربت فورة أخرى من الطاعون الشام بين عامي 125:126هـ و742: 743م، وبلغ من حدته أن بُويع الوليد بن يزيد بالخلافة في البادية بسبب الوباء[133]، ثم توفي جراءه، فيما يروي بعض المؤرخين المتأخرين، الخليفة يزيد بن الوليد الملقب بالناقص[134]. ولا ريب في أن هذا الطاعون امتد إلى مصر، ذلك أنه اجتاح أفريقيا، وهي أول مرة نسمع فيها عن الطاعون في شمال أفريقيا في عهد بني أميَّة. وتشير المصادر إلى أن وباء الطاعون مكث في أهلها سبعة أعوام، ولم يفارق أهلها إلا في أوقات متفرقة مرة في الشتاء ومرة في الصيف، بحسب بعض المؤرخين[135].

في العام التالي 127هـ/ 744م، ضرب الطاعون الشام مجددًا، وسميت هذه الفورة من الطاعون «طاعون غراب»، وغراب هذا رجلٌ من عشيرة تدعى الرباب، وقيل إنه كان أول من مات فيه[136]. ونقل ابن منده عن الأصمعي قوله إنه كان

= محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي بن النجار الحنبلي، **مختصر التحرير: شرح الكوكب المنير**، تحقيق محمد الزحيلي ونزيه حماد (الرياض: مكتبة العبيكان، 1997)، ج 2، ص 143؛ ابن العماد الحنبلي، ج 2، ص 81، والعيني، **مغاني الأخيار**، ج 2، ص 476.

(132) أبو الفضل عياض بن موسى عياض [القاضي]، **إكمال المعلم بفوائد مسلم**، تحقيق يحيى إسماعيل (القاهرة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 1998)، ج 1، ص 146، وإبراهيم بن يوسف بن أدهم بن قرقول، **مطالع الأنوار على صحاح الآثار**، تحقيق دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث (الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2012)، ج 2، ص 109.

(133) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 9، ص 169.

(134) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 3، ص 567، والسيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ص 189. وقيل مات مسمومًا، سمّمه أخوه إبراهيم بن الوليد. يُنظر: اليعقوبي، ج 3، ص 75.

(135) يقال إن ذلك الوباء أصاب أفريقيا بعد دعوة حنظلة بن صفوان على عبد الرحمن بن حبيب وأهل أفريقيا جميعًا، الذين أعانوه على ظلمه. يُنظر تلك الحوادث في: ابن الأثير، ج 4، ص 323؛ أبو عبد الله محمد بن محمد بن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال (بيروت: دار الثقافة، 1983)، ج 1، ص 60، وابن تغري بردي، ج 1، ص 282.

(136) ابن قتيبة، **المعارف**، ج 1، ص 601؛ النووي، **شرح النووي على مسلم**، ج 1، ص 105، وابن حجر العسقلاني، **بذل الماعون**، ص 363.

طاعونًا خفيفًا في بدايته، إلا أنه سرعان ما تحول إلى جارف مدة أربعة أيام[137]، فمات فيه خلق لا يحصى[138]. ولم تمدنا المصادر بأسماء من قضوا نحبهم من الأعيان ضحايا لهذا الوباء خصوصًا.

لم يشأ الطاعون أن يذهب ملك بني أميَّة من دون وداع أخير؛ إذ ضرب الوباء الجارف البصرة في عام 131هـ/ 748م[139]، فعُرف في المصادر تارة بطاعون البصرة الجارف[140] أو طاعون مسلم بن قتيبة[141]، وعُرف تارة بطاعون مروان بن محمد[142]، واستحق هذا الطاعون عن جدارة لقب الجارف؛ فبخلاف فورات الطاعون الأخرى التي كانت تبلغ فيها فورة الوباء من ثلاثة إلى أربعة أيام، دام طاعون البصرة هذا أربعة شهور (من رجب من ذلك العام، وبلغ ذروته في رمضان، وخفت وطأته عن الناس في شوَّال)[143]. يقول خليفة بن خياط: «فكان يموت فيه الجميعة من الناس .... اشتد في شعبان وكانت حمته وشدته في رمضان وشوَّال، ثم سكن فكان كنحو ما بدأ»[144]. وروى أبو الحسن المدائني أنه كان يُحصى في سكة المربد بالبصرة كل يوم نحوٌ من ألف جنازة[145]، وأباد الطاعون سكان البصرة أو كاد يبيدهم[146].

خلافًا للطواعين السابقة على هذا الطاعون، لدينا تصور واضح عن الأماكن التي ضربها ذلك الطاعون والتي امتد إليها في ما بعد، حين بدأ هذا الطاعون،

---

(137) ابن منده العبدي، ج 3، ص 268.

(138) ابن تغري بردي، ج 1، ص 304.

(139) ابن قتيبة، **المعارف**، ج 1، ص 470، والعيني، **مغاني الأخيار**، ج 2، ص 351.

(140) ابن حبان البستي، **الثقات**، ج 5، ص 204.

(141) ابن حجر العسقلاني، **بذل الماعون**، ص 363، والأنصاري، ص 6ظ.

(142) ابن منده العبدي، ج 3، ص 288.

(143) ابن خياط العصفري، **تاريخ خليفة**، ص 398، والنووي، **شرح النووي على مسلم**، ج 1، ص 106. والطبري يؤرخه بعام 130هـ/ 747م. يُنظر: الطبري، ج 7، ص 401؛ يُقارن أيضًا: ابن الأثير، ج 4، ص 387.

(144) ابن خياط العصفري، **تاريخ خليفة**، ص 398.

(145) المبرد، ص 218؛ النووي، **شرح النووي على مسلم**، ج 1، ص 106. وابن الجوزي ينقل عن الأصمعي قوله: كل يوم أحد عشر ألف نعش. يُنظر: ابن الجوزي، **المنتظم**، ج 7، ص 287.

(146) ابن الملقن، ج 27، ص 463.

بضرب مدن الفرات، ثم امتد إلى الجزيرة وآسيا الصغرى والأناضول، ثم الشام وفلسطين وصولًا إلى مصر[147].

تمدنا المصادر بأسماء جملة من الأعيان ممن لقوا حتفهم في ذلك الطاعون. وتجدر الإشارة إلى أنه ما اجتمع في أخبار الطواعين السابقة مثل هذا العدد الكبير من الأعلام الذين ماتوا جراء الإصابة بالطاعون في خلافة بني أميَّة قاطبة؛ إذ مات فيه نفر كثير من العلماء والمحدّثين، منهم: اسحاق بن سويد بن هبيرة العدوي[148]، وأيوب السختياني[149] الذي قيل إن في اليوم الذي مات فيه مات سبعة آلاف شخص[150]. وكذلك مات فيه فرقد بن يعقوب السبخي[151] وعلي بن الحكم البناني[152] وحجاج بن حجاج الباهلي البصري الأحول[153] وحبيب المعلم[154] وعلي بن زيد بن عبد الله بن زهير بن عبد الله[155] وتوبة العنبري[156]

---

(147) التلمحري، «تاريخ الأزمنة»، ص 138.

(148) ابن سعد، ج 7، ص 243؛ ابن حبان البستي، **مشاهير علماء الأمصار**، ص 240، وابن الملقن، ج 13، ص 95.

(149) ابن سعد، ج 7، ص 251؛ ابن خياط العصفري: **طبقات خليفة**، ص 373؛ **تاريخ خليفة**، ص 398؛ ابن قتيبة، **المعارف**، ج 1، ص 471؛ الطبراني، ج 5، ص 308؛ ابن حبان البستي: **الثقات**، ج 6، ص 53؛ **مشاهير علماء الأمصار**، ص 237؛ ابن عبد البر، ج 1، ص 341؛ ابن منده العبدي، ج 3، ص 288؛ أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي، **شرح السنة**، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش (بيروت؛ دمشق: المكتب الإسلامي، 1983)، ج 9، ص 349؛ أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، **سير أعلام النبلاء** (القاهرة: دار الحديث، 2006)، ج 6، ص 202؛ الكرماني، ج 2، ص 195، والعيني، **مغاني الأخيار**، ج 2، ص 351.

(150) ابن قليج، **إكمال تهذيب الكمال**، ج 2، ص 328.

(151) ابن سعد، ج 7، ص 243؛ ابن الجوزي، **صفة الصفوة**، ج 2، ص 162، والعيني، **مغاني الأخيار**، ج 2، ص 449.

(152) ابن منده العبدي، ج 3، ص 289.

(153) المرجع نفسه، ج 3، ص 289، والمزي، **تهذيب الكمال**، ج 5، ص 432.

(154) ابن منده العبدي، ج 3، ص 290.

(155) المرجع نفسه، ج 3، ص 291.

(156) المرجع نفسه، ج 3، ص 292؛ ابن عساكر، ج 10، ص 320؛ أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **تهذيب التهذيب** (حيدر آباد الدكن: مطبعة دائرة المعارف النظامية، 1908)، ج 1، ص 236. والعنبري هو ابن أبي الأسد البصري.

وعلي بن زيد بن جدعان[157] وعلي بن زيد بن سعد بن تيم بن مرة[158] وحماد بن سلمة[159] وجعفر بن أبي وحشية اليشكري[160] وماهان جد اسحاق بن إبراهيم الموصلي[161] وتوبة بن أبي الأسد البصري[162] وكذلك منصور بن زاذان الواسطي الثقفي[163] والأشعث بن أبي الشعثاء سليم بن أسود المحاربي الكوفي[164]. وعندما امتد الوباء إلى حران، قصبة الخلافة الأموية في عصر مروان بن محمد، حصد أرواح العباس بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز[165] وإبراهيم بن محمد بن علي الإمام، جد خلفاء بني العباس، وكان محبوسًا في سجن قصر مروان في حران[166].

تشير جملة أعيان الناس الذين تنص المصادر على أنهم ذهبوا ضحية هذا الوباء، بالضرورة إلى أن هذه الفورة للطاعون كانت كارثية بالفعل، إلى درجة أن ابن منده عقّب على أخبار ذلك الطاعون بقوله: «الطاعون بالبصرة أتى على جُمل أهلها»[167]. كما قيل أيضًا، من باب التهويل، إن البصرة لم تُصب بعد هذا الطاعون بطاعون قط[168].

---

(157) ابن خياط العصفري، **تاريخ خليفة**، ص 398.

(158) ابن خياط العصفري، **طبقات خليفة**، ص 369.

(159) ابن حبان البستي، **الثقات**، ج 6، ص 48.

(160) المرجع نفسه، ج 6، ص 133، وابن حجر العسقلاني، **تهذيب التهذيب**، ج 2، ص 84.

(161) أبو الفرج الأصفهاني، ج 5، ص 106، والقفطي، **إنباه الرواة**، ج 1، ص 55.

(162) أبو محمد محمود بن أحمد العيني، **شرح سنن أبي داود**، تحقيق أبي المنذر خالد بن إبراهيم المصري (**الرياض**: مكتبة الرشد، 1999)، ج 1، ص 452.

(163) ابن سعد، ج 7، ص 311؛ البخاري: **التاريخ الأوسط**، ج 2، ص 30؛ **التاريخ الكبير**، ج 7، ص 346؛ أبو الحسن أسلم بن سهل الرزّاز بَحْشَل الواسطي، **تاريخ واسط**، تحقيق كوركيس عواد (بيروت: عالم الكتب، 1985)، ص 82؛ ابن حبان البستي، **مشاهير علماء الأمصار**، ص 279، والعيني، **شرح سنن أبي داود**، ج 6، ص 357.

(164) ابن قليج، **إكمال تهذيب الكمال**، ج 2، ص 236.

(165) ابن الأثير، ج 5، ص 16، وابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، ج 3، ص 162.

(166) الطبري، ج 7، ص 435؛ ابن مسكويه، ج 3، ص 326؛ ابن الأثير، ج 5، ص 16؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 3، ص 588، وابن تغري بردي، ج 1، ص 321.

(167) ابن منده العبدي، ج 3، ص 292.

(168) ابن قليج، **إكمال تهذيب الكمال**، ج 2، ص 328. الجدير بالذكر أن البصرة أُصيبت لاحقًا بعدد من الطواعين أبرزها طاعون في عام 221هـ/ 836م.

وامتد هذا الطاعون إلى الشام، فمات فيها في اليوم الأول سبعون ألفًا، وفي الثاني نيف وسبعون ألفًا(169). وربما استمرت فورات متتالية بعد هذا الوباء، تضرب هنا وهناك في العراق والشام، وتتراوح بين الشدة والضعف، حتى عام 136هـ/ 753م، أي إلى أوائل خلافة أبي جعفر المنصور(170)؛ إذ حفظت لنا المصادر جدلًا دار بين المنصور وبعض أهل الشام من المتعصبين لخلافة بني أمية، جادل فيه المنصور أهل الشام بأن من بركة ولايته عليهم أن رفع الله الطاعون عنهم، فرد عليه أحدهم بقوله: «إن الله عز وجل أعدل من أن يجمع عليهم الطاعون وولايته!»(171).

ثالثًا: خلاصة ومراجعات

سجلت المصادر العربية، على اختلاف مشاربها، نحو 20 فورة من الطاعون في العصر الأموي، ضربت مصر والشام والعراق، إلاّ أن من الملاحَظ أنه لم تُسجل بقاع أخرى خارج هذه الدائرة إلا نادرًا؛ فعندما تعرض المسعودي لأخبار الطاعون العام، ذكر امتداده إلى الجزيرة الفراتية والحجاز. وبينما اقتصرت المصادر العربية، في وصف طاعون مسلم بن قتيبة، على ذكر ضربه للبصرة ومدن العراق والشام، علمنا من خلال راهب دير زُقنين أن ذلك الطاعون كان حادثًا شبه عالمي، لأنه امتد من الأناضول وآسيا الصغرى إلى الجزيرة والعراق والشام وصولًا إلى مصر. ولم تُذكر ولاية أفريقيا إلا مرة واحدة عند ذكر طاعون الشام في عام 126هـ/ 743م، وهذه المرة طال مكث الطاعون فيها سبعة أعوام لم ينقطع في خلالها إلا قليلًا.

---

(169) ابن الجوزي، **المدهش**، ص 70.

(170) أبو عبد الله محمد الزبير بن بكار، **الأخبار الموفقيات**، تحقيق سامي العاني (بيروت: عالم الكتب، 1996)، ص 112.

(171) أبو نصر أحمد بن محمد الكلاباذي، **رجال صحيح البخاري المسمى الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد الذين أخرج لهم البخاري في جامعه**، تحقيق عبد الله الليثي (بيروت: دار المعرفة، 1986)، ج 2، ص 869؛ أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب** (القاهرة: دار المعارف، [د. ت.])، ص 68؛ الزمخشري، ج 2، ص 65؛ ابن حجر العسقلاني، **تهذيب التهذيب**، ج 1، ص 236؛ ابن تغري بردي، ج 1، ص 313؛ وثمة طاعون وقع في مصر في عام 133هـ/ 750م. أي في ولاية أبي عون عبد الملك بن يزيد الخراساني فهرب أبو عون واستخلف عكرمة على الفسطاط، وخرج أبو عون إلى دمياط في شوال سنة خمس وثلاثين ومئة. عنه يُنظر: الكندي، ص 77.

على هذا، فإن الشك لا ينفك يراودنا في أن الطواعين في المجمل كانت تمتد عبر آسيا الصغرى إلى العراق والشام، ومن ثم الحجاز واليمن ومصر، وربما شمال أفريقيا، على الأقل في تلك الفورات العظمى التي حملت ذلك اللقب المريع «الجارف». بالتالي، لا يُعقل أن يضرب الطاعون العراق والشام ولا يمتد إلى الجزيرة، كما لا يُعقل أن يصل الطاعون إلى مدن الحجاز من دون أن يمتد إلى اليمن، ولا أن يضرب مصر من دون أن يمتد إلى شمال أفريقيا. إن حركة السفر والهجرة والتبادل التجاري لم تنقطع بين تلك البقاع التي صهرها الإسلام في وحدة سياسية واحدة طوال عصرَي الراشدين وبني أمية. فإذا أضفنا إلى ذلك أنه لا وجود لموانع أو فواصل طبيعية من شأنها منع الامتزاج البشري بين سكان تلك البقاع أو حتى الحد منه، وكذلك إذا حكَّمنا معلوماتنا عن طواعين العصور الوسطى المتأخرة (التي سُجِّلت ووُثِّقَت على نحو أكثر إحكامًا من طواعين العصر الأموي)، وذلك من ناحيتي المنشأ والامتداد الجغرافي، فسيقودنا ذلك إلى استحالة افتراض ضرب وباء شديد العدوى، مثل الطاعون، للقلب من دون الامتداد إلى الأطراف[172].

في أي حال، إن ما وثّقته الدراسة من طواعين وقعت في العصر الأموي يمكن عرضه وإجماله على النحو التالي:

الشكل (2-2)
فورات الطواعين في العصر الأموي

م	السنة	الطاعون	ملاحظات
1	49-50هـ/ 669م- 670م	طاعون المغيرة بن شعبة	
2	53هـ/ 672م	طاعون زياد بن أبيه	

يتبع

(172) يُراجع في هذا الصدد محمد حسن في: محمد حسن، «صفة الطاعون في مصنفات العصر الوسيط»، في: **ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف** (749هـ/ 1348م)، تحقيق ودراسة محمد حسن (تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة)، 2013)، ص 52 وما بعدها.

تابع

3	64هـ/ 683م	طاعون البصرة في ولاية عبيد الله بن معمر	
4	65هـ/ 684م	طاعون الشام	
5	66هـ/ 685م	طاعون مصر	
6	69هـ/ 688م	طاعون ابن الزبير	جارف
7	70هـ/ 689م	طاعون مصر	
8	79-80هـ/ 698-699م	الطاعون العام	جارف
9	85هـ/ 704م	طاعون مصر	
10	86هـ/ 705م	طاعون الأشراف	
11	87هـ/ 706م	طاعون الفتيات	جارف
12	96هـ/ 714م	طاعون الشام	
13	100هـ/ 718م	طاعون عدي بن أرطأة	
14	105هـ/ 723م	طاعون مصر	
-	107هـ/ 725م	طاعون الشام في خلافة هشام بن عبد الملك	(ليس طاعونًا على الأرجح)
15	114هـ/ 732م	طاعون واسط	
16	115هـ/ 733م	طاعون الشام	
17	119هـ/ 737م	طاعون البصرة	جارف
18	126هـ/ 743م	طاعون الشام	
19	127هـ/ 744م	طاعون غراب	جارف
20	131هـ/ 748م	طاعون مسلم بن قتيبة	جارف

امتد العصر الأموي بين عامي 41هـ/ 661م و132هـ/ 749م، أي نحو 91 عامًا، ويمكننا القول إن الطاعون لم ينقطع منذ عهد معاوية بن أبي سفيان حتى عهد مروان بن محمد. وما أحسن ما عقَّب به ابن حجر العسقلاني على ما ذكره الرواة والأخباريون على أخبار الطواعين في الإسلام بقوله: «إن الطواعين لم تنقطع في خلافة بني أمية، ثم خفَّ الطاعون في الدولة العباسية!»[173].

(173) ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص 363-364.

شهدت تلك الحقبة من تاريخ العالم الإسلامي نحو 20 طاعونًا، بمعدل طاعون واحد لكل 4 أعوام ونصف تقريبًا، وهو معدل هائل، وتكفي المقارنة بين هذا المعدل ومعدل تجدد الوباء في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وأوروبا في العصور الوسطى المتأخرة للتدليل على عمق الأثر الذي خلفه الطاعون في العصر الأموي؛ إذ بلغ معدل بلوغ الوباء فورته في العصور الوسطى المتأخرة مرة واحدة كل 12 عامًا تقريبًا[174]. بعبارة أخرى، فإن مقارنة نسبة بلوغ الوباء فورته في الشرق الأوسط بين العصرين الأموي والمملوكي تبلغ طاعونًا واحدًا للعصر المملوكي في مقابل 2.6 من الطواعين للعصر الأموي، وهذه النسبة كفيلة بتوضيح تلك المعاناة التي عانتها الدولة الأموية جراء تقارب مدد بلوغ الوباء فورته.

هذا بخلاف أن ستة طواعين من إجمالي 20 طاعونًا في العصر الأموي (30 في المئة) حملت لقب جارف، فيناهز معدل ضرب الطواعين الجارفة وحدها طاعونًا واحدًا لكل 15 عامًا في المتوسط، وهو ما يقترب من معدلات الطواعين بصفة عامة (خفيفة وجارفة) في الشرق الأوسط في العصور الوسطى المتأخرة. ومن ثم، كان لتوالي فورات الطواعين في عصر بني أميَّة آثار كبيرة وواضحة في العمران وأوجه الحياة المختلفة في ذلك العصر، وهذا هو محور موضوع الفصل التالي.

---

(174) تفصيلًا يُنظر: Michael W. Dols, *The Black Death in the Middle East* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1978), and Yossef Rapoport, *Marriage, Money and Divorce in Medieval Islamic Society* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 2005).

الفصل الثالث

الآثار الديموغرافية للطواعين وانعكاساتها على المجتمع والدولة في العصر الأموي

«... فلما شارفا منزله قال أحمد للأعشى: إني أرى عجبًا! قال: وما هو؟ قال: أرى فوق قصر سليم ثعلبًا، قال: لئن كنت صادقًا فما بقي في القرية أحد. فدخلا القرية، فوجدا سليمًا وأهل القرية جميعهم قد أصابهم الطاعون، فمات أكثرهم وانتقل باقيهم».

من حوار دار بين أحمد النّصبي والأعشى الهمداني عندما همَّا بدخول قرية سليم بن صالح لاسترداد أمانةٍ لهما عنده.

أبو الفرج الأصفهاني[1]

(1) علي بن الحسين أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1994)، ج 6، ص 337.



أولًا: آثار الطاعون الديموغرافية

لا يمكننا الوقوف على آثار الطاعون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية قبل درس تأثيره في الصعيد الديموغرافي أولًا؛ ذلك أن الأثر الرئيس لوباء الطاعون تمثَّل في ما ألحقه بعدد السكان وتوزيعهم الجغرافي من أضرار جسيمة، وفي تنوع النشاط السكاني، فانعكست تلك الاختلالات الديموغرافية على النظم والهياكل الاجتماعية والاقتصادية، ومن ثم على الصعيد السياسي في نهاية المطاف، حيث كان الطاعون يحصد أرواح الناس حصدًا، مخلِّفًا آثارًا ديموغرافية كارثية، تتعدى النطاق الضيق للأسرة والعشيرة والقبيلة، لتعم بلواها المجتمع ككل.

في العصر الأموي، كما في العصور الوسطى عمومًا، كان الناس يجهلون تمامًا أسباب الوباء، ومن ثم شكّل ذلك الجهل سببًا إضافيًا عمل على تسريع وتيرة انتشار الوباء؛ إذ اعتاد الناس مسّ الأورام الطاعونية للمرضى من باب التنبؤ بحال المريض، اعتقادًا منهم أنه إذا كان الورم الطاعوني لينًا، طُمع لصَاحبه في الشفاء منه، وإذا كان خشنًا يُئِس من صاحبه. يمكننا أن نستشف بعضًا من تلك المعتقدات التي سرت بين الناس في رواية موت عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز نتيجة طاعون عدي بن أرطأة الذي ضرب دمشق في عام 100هـ/ 718م؛ فعندما دخل الخليفة على ابنه المحتضر، أراد مس القرحة الطاعونية ليعرف إذا كانت خشنة أم لينة، ولما كانت خشنة، تمنع عبد الملك خشية إثارة جزع الخليفة عليه[2].

إضافةً إلى ذلك، مثّلت الإجراءات غير الصحية التي لجأ إليها الناس،

---

(2) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، **التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا**، تحقيق إبراهيم محمد حسن الجمل (القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، [د. ت.])، ص 79.

بدءًا من فصد المريض، ومرورًا باستعمال الآنية نفسها التي كان يتناول طعامه فيها، وانتهاءً بالتعامل مع جثث الضحايا، عوامل مساعدة في انتشار الوباء، حيث يمكن تمثيل انتشار الوباء بين الناس، آنذاك، باشتعال النيران في كومة من القش الجاف. كتب أحد الشعراء يرثي أهله الذين قضُوا في عقب طاعون الأشراف الذي وقع في عام 87هـ/ 705م في خلافة الوليد بن عبد الملك، قائلًا:

وما ترك الطاعون من ذي قرابةٍ إليه إذا كان الإياب يؤوب[3]

بتلك الكلمات المؤثرة التي توحي أن ذلك الطاعون لم يُبقِ ولم يذر، وصف ذلك الشاعر تلك الكارثة التي أصابته في أهله وذويه، فعدمهم بالكُلية. وقول الشاعر هُنا لا يبدو من قبيل تلك المبالغات المعهودة من الشعراء؛ إذ ثمة شهادات معاصرة أخرى، أكثر صدقية من مجرد بيت شعر لرجل كُتبت له النجاة دون عشيرته وذويه عقب موجة جارفة من الطاعون.

من بين روايات المصادر عن الموتان في الطاعون؛ لدينا روايتان على قدر كبير من الأهمية في ما يتعلق بآثار الطاعون الديموغرافية، وربما نستطيع من خلالهما تبيُّن آثار الطواعين على الصعيد الديموغرافي في العصر الأموي؛ ذلك أن كلًّا من القشيري (المتوفى في عام 334هـ/ 945م) وأبي نعيم الأصبهاني (المتوفى في عام 430هـ/ 1038م) حفظ لنا نص رسالة كتبها أحد فُقهاء الجزيرة، وهو ميمون بن مهران الجزري (المتوفى في عام 117هـ/ 735م)، ردًا على رسالة أرسلها إليه أحد فقهاء البصرة، ويدعى يونس بن عُبيد بن دينار العبدي (المتوفى في عام 139هـ/ 756م)، وكان يونس قد سأل ميمونًا عن أحواله وأحوال ذويه بعد أن ارتفع الوباء عن الناس، فأجابه الأخير[4]:

(3) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، **المعارف**، تحقيق ثروت عكاشة (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992)، ج 1، ص 602. والمبرد يعزو هذا البيت إلى أحد أبناء شبل بن معبد البجلي وقد أفنى الطاعون أهله، بينما كان في شيراز لبعض شأنه. يُنظر: المبرد، **التعازي**، ص 219. بينما يعزو ابن عبد ربه البيت إلى شبل بن معبد البجلي نفسه. يُنظر: أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، **العقد الفريد** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1983)، ج 3، ص 230.

(4) أبو علي محمد بن سعيد بن عبد الرحمن القُشيري، **تاريخ الرقة ومن نزلها من أصحاب رسول الله** =

بلغني كتابك تسألني عن أهلي، **وإنه مات من أهلي وخاصَّتي سبعة عشر إنسانًا**. وإني أكره البلاء إذا أقبل، فإذا أدْبَر لم يسرني أنه لم يكُن. أما أنت فعليك بكتاب الله، وإن الناس قد لهوا عنه ...

هنا سنجد صعوبة كبيرة في ربط تلك الرسالة وذلك الجواب بطاعون بعينه؛ فميمون الجزري الذي ولد في عام 40هـ/ 660م[5]، أدرك طواعين العصر الأموي كلها تقريبًا، بما فيها طاعون ابن الزبير الجارف الذي وقع في عام 69هـ/ 688م، وكان على مشارف العقد الرابع من عمره وقتذاك. وآخر طاعون أدركه ميمون كان ذاك الذي ضرب مدن الشام في عام 115هـ/ 733م. بعبارة أخرى، عاصر الرجل الطواعين جميعها التي ضربت مدن العراق والشام، باستثناء طاعوني غراب ومسلم بن قتيبة اللذين وقعا بعد وفاته، فأيًا من تلك الطواعين كان المعنيّ في الرسالة والجواب؟ ذلك ما لا سبيل إلى معرفته. ولو تطرق الرجل إلى عدد الناجين من أهله وعشيرته لأسْدى خدمة جليلة للباحثين في تاريخ الأوبئة والديموغرافيا التاريخية معًا. ومع ذلك، فإن هذا لا يمنع أننا مدينون للرجل بتلك الأسطر التي كتبها عن حال ذويه بعد الطاعون.

ثمة شهادة أخرى معاصرة، وعلى قدر كبير أيضًا من الأهمية، هي الرواية التي نقلها المبرد (المتوفى في عام 285هـ/ 898م) عن أبي الحسن المدائني عن لسان معمر بن المثنى عن علي بن القاسم الكندي الكوفي (المتوفى في عام 191هـ/ 806م)، حدثه فيها رجل (كذا) كان قد شهد إحدى فورات الطواعين الجارفة، في الكوفة على الأرجح، وإن لم يرد ذلك في تلك الرواية صراحة، جاء فيها:

قال علي بن القاسم: حدثني رجل قال: رأيت في المنام **أيام الطاعون** كأنه أخرجت من داري اثنتا عشرة جنازة، **وأنا وعيالي اثنا عشر، فمات منا أحد عشر**

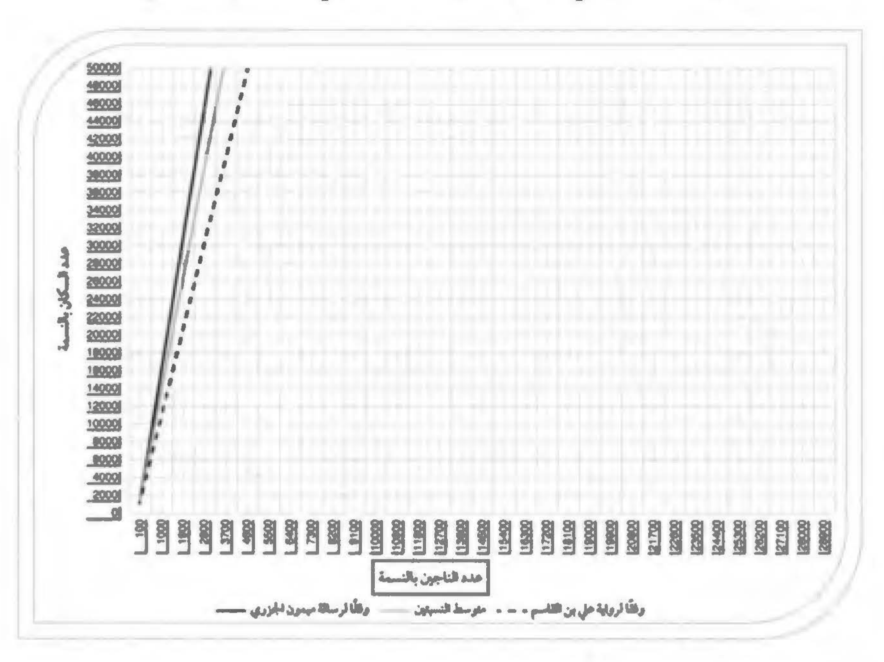
= **والتابعين والفقهاء والمحدثين**، تحقيق إبراهيم صالح (بيروت: دار البشائر، 1998)، ص 51، وأبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء** (القاهرة: مطبعة السعادة، 1974)، ج 4، ص 90.

(5) القُشيري، ص 43.

وبقيت وحدي. فقلت في نفسي: أنا تمام العدة، فخرجت من الدار ثم رجعت من غد إليها، فإذا لص قد دخل للسرقة فطُعن في الدار فمات، فأخرجنا جنازته[6].

إذا سمحنا لأنفسنا بقدرٍ ما من التعميم في هذه الأرقام والنسب، يمكننا أن نفترض، بناء على كلتا الروايتَين، أن نسبة الناجين إلى الضحايا بلغت في حدها الأقصى، وفي فورات الطواعين الجارفة في العصر الأموي 1 : 17 (كما في رسالة ميمون الجزري)، وفي حدها الأدنى 1 : 11 (كما في رواية علي بن القاسم)، وهنا سنخرج بمتوسط حسابي عام للنسبتين يبلغ 1 : 14.

الشكل (3-1)
إحصاء افتراضي لنسب الضحايا إلى الناجين في الطواعين الجارفة في العصر الأموي



(6) المبرد، **التعازي**، ص 216؛ أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء** (بيروت: دار الأرقم بن أبي الأرقم، 1999)، ج 2، ص 522. يُقارن أيضًا: أبو علي المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم داود التنوخي، **الفرج بعد الشدة**، تحقيق عبود الشالجي (بيروت: دار صادر، 1978)، ج 2، ص 330.

كما يشير التمثيل البياني الافتراضي السابق الذي اعتمد تلك النسب، فإن كل قرية ضربها الوباء، وزاد عدد سكانها على 5000 شخص، نجا منها (بناء على تلك النسبة الوسيطة المفترضة) نحو 333 شخصًا في مقابل 4.662 ضحية للوباء، في حين بلغت نسبة الناجين من الطاعون في المدن الكبرى نحو 7.700 شخص في مقابل 93.300 ضحية للطاعون لكل 100.000 نسمة.

ربما لا تتضح قسوة تلك الأرقام إلا في ضوء مقارنتها بالطاعون الكارثي الذي أصاب الشرق الأوسط، ثم انتقل إلى أوروبا بين عامي 748هـ/ 1347م و753هـ/ 1352م، ذلك أن هذا الطاعون هو أول ما يتبادر إلى أذهان المؤرخين والديموغرافيين وعلماء الميكروبيولوجيا عند ذكر «الطاعون» أو «الموت الأسود» أمامهم؛ إذ أسفر ذلك الطاعون الكارثي عن هلاك ثلثي سكان أوروبا آنذاك، على أقصى تقدير، وهذا يعني أن شخصًا واحدًا من كل ثلاثة أشخاص كُتبت له النجاة من هذا الطاعون الكارثي، أي نجا قرابة 33 ألف نسمة من كل 100 ألف نسمة. وهذه المقارنات تجعل من بعض طواعين العصر الأموي كوارث ونكبات إنسانية كبرى سقطت من ذاكرة الإنسانية.

مع ذلك، فإن بعض طواعين العصر الأموي يجاوز هذه التقديرات كثيرًا، كان أبرزها طاعون ابن الزبير الجارف الذي قدَّر الأخباريون فورة ذلك الطاعون الذي ضرب العراق والشام في عام 69هـ/ 688م بثلاثة أيام، قضى في خلالها نحو 200 ألف شخص في مدينة البصرة وحدها، بمعدل وفيات يقترب من 70 ألف ضحية لليوم الواحد من أيام فورة الوباء الثلاثة. وبحلول اليوم الرابع، كان سكان تلك المدينة المزدهرة بين فارٍّ بنفسه أو جثة هامدة، إلى درجة أن سبعة رجال وامرأة فحسب من سكان البصرة أدركوا صلاة الجمعة في مسجد المدينة الجامع، كما مر بنا من قبل.

لا تتوقف المصادر عن رواية بعض صور الإبادة الجماعية لذلك الطاعون الجارف؛ إذ مات فيه لأنس بن مالك 83 ابنًا[7]، ومات لعبد الرحمن بن أبي بكرة

(7) لم أستطع الاعتماد على تلك الأرقام في إحصاء معدلات الناجين إلى الضحايا لتضارب

40 ابنًا[8]، ولعبيد الله بن عمر 30 ابنًا[9]، وفقد فيه صدقة المازني سبعة من البنين في يوم واحد[10]. ويقول المبرد: «كانت الدار تُصبح وفيها خمسون، وتصبح الغد

المصادر في ما بينها في تقديرها، من جهة؛ فبالنسبة إلى أنس بن مالك، قيل «ثلاثة وسبعون» وقيل أيضًا «ثلاثون ابنًا»، وينبغي ألّا نعتبرهم بالضرورة أعقابًا مباشرين، وإنما هم بتعريف الأسرة الممتدة يشكلون الأبناء وأبناء الإخوة وأبناء الأبناء. كما أن بعضها لا يرتبط بحالات موثوقة ومحدّدة. عن هذه الأرقام وتضارب المصادر حولها، يُنظر: الراغب الأصفهاني، ج 2، ص 530؛ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، **المدهش في علوم القرآن والحديث واللغة وعيون التاريخ والوعظ**، تحقيق مروان قباني (بيروت: دار الكتب العلمية، 1985)، ص 70؛ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، **البداية والنهاية**، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي (القاهرة: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، 2003)، ج 11، ص 719؛ وزكريا بن محمد الأنصاري، «تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين»، مخطوط بمكتبة جامعة الملك سعود، برقم 3113 ز، ص 6ظ، وعبد القادر بن عمر البغدادي، **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1997)، ج 1، ص 281.

(8) أبو عمرو خليفة بن أبي هبيرة بن خياط العصفري، **تاريخ خليفة بن خياط**، تحقيق أكرم ضياء العمري (دمشق: دار القلم؛ بيروت: مؤسسة الرسالة، 1976)، ص 265؛ عبد الرحمن بن محمد بن اسحاق الأصبهاني بن منده العبدي، **المستخرج من كتب الناس للتذكرة والمستطرف من أحوال الرجال للمعرفة**، تحقيق عامر حسن صبري التميمي (المنامة: وزارة العدل والشؤون الإسلامية، [د. ت.])، ج 3، ص 71؛ محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، **الأذكار**، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1994)، ص 153؛ أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي: **العبر في خبر من غبر**، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول (بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.])، ج 1، ص 56؛ **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1997)، ص 31؛ **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق بشار عواد معروف (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2003)، ج 2، ص 1062؛ عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، تحقيق خليل المنصور (بيروت: دار الكتب العلمية، 1997)، ج 1، ص 116؛ ابن كثير، ج 12، ص 126؛ أبو المحاسن يوسف بن عبد الله الظاهري بن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1929-1972)، ج 1، ص 224؛ جلال الدين أبو بكر عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **المحاضرات والمحاورات** (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2003)، ص 331؛ الأنصاري، ص 6 ظ؛ حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري، **تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس** (بيروت: دار صادر، [د. ت.])، ج 2، ص 304، وعبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق محمود الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط (دمشق: دار ابن كثير، 1986)، ج 1، ص 297.

(9) الراغب الأصفهاني، ج 2، ص 530.

(10) ابن تغري بردي، ج 1، ص 182، والأنصاري، ص 6 ظ.

وليس فيها واحد»[11]. كما رُوي أن سليمان بن ذكوان القحذمي كان في مكة إبان الطاعون الجارف، فلما عاد إلى الكوفة لم يجد من أبنائه وأهله وعشيرته في قيد الحياة إلا والده وجدّته، وكانت داره مشحونة، على حد تعبير المبرد[12].

كذلك حصد طاعون مسلم بن قتيبة أرواح الناس حصدًا، حيث كان يتجمع في كل يوم على بوابات المدن ما بين مئة إلى خمسمئة نعش[13]، في كل نعش ما بين ثلاث إلى أربع جثث[14]. وكانت بوابات المدن، ولا سيما في إقليم الجزيرة، لا تُغلق على مدار اليوم بسبب خروج حاملي الجثث الذين سرعان ما كانوا يعودون سريعًا لحمل غيرها، في حركة لا تهدأ على مدار اليوم[15]. وعم الموت إلى درجة أن أحد الرهبان كتب قائلًا: «وشملهم الموت جميعًا من دون تفرقة بين صغير وكبير. لم يبق منهم أحد! أما الذين تصادف أن نجوا من تلك الكارثة، ولم يلقوا حتفهم، فقد أسرعوا بالفرار إلى خارج المدن»[16]. ومن ثم، تحولت المدن الكبرى وحواضر الأقاليم، ولا سيما إبان حمى الطواعين الجارفة، إلى مدن أشباح.

أسفرت فورات الطاعون المتتالية عن تراجع أعداد العرب، وهم عماد جيوش بني أمية، في العراق والشام، تراجعًا حادًا. ونجم عن هذا في نهاية المطاف عجز الدولة الأموية عن مقاومة الثورة العباسية الوليدة التي انطلقت من أماكن بعيدة نسبيًا عن تلك الأماكن التي اعتاد الطاعون ضَربها؛ إذ أحسن الثوار العباسيون اختيار الوقت الملائم لإعلان ثورتهم بين طاعونين كبيرين أصابا الشام والعراق بين عامي 127هـ/ 743م و131هـ/ 748م، هما طاعون غراب وطاعون مسلم بن قتيبة.

---

(11) المرجع نفسه، ص 217.

(12) المبرد، **التعازي**، ص 216.

(13) ديونسيوس التلمحري، «تاريخ الأزمنة»، في: شادية توفيق حافظ، «ديونسيوس التلمحري ومخطوطته تاريخ الأزمنة: ترجمة ودراسة» (أطروحة دكتوراه غير منشورة، قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب، جامعة القاهرة، 1982)، ص 137.

(14) المرجع نفسه، ص 136.

(15) المرجع نفسه، ص 136.

(16) المرجع نفسه، ص 141.

من نافلة القول إن هذين الطاعونين خصوصًا قاما بدور كبير في نجاح العباسيين في إزالة دولة بني أميَّة في الأخير، فكان طاعون مسلم بن قتيبة في عام 131هـ/ 748م بمنزلة فصل الختام بالنسبة إلى الدولة الأموية؛ إذ أسفر عن خسائر مادية وبشرية هائلة أصَابت قلب الدولة، وحرمت مروان بن محمد آخر خلفاء بني أميَّة، إرسال المدَد إلى واليه على خراسان ليوقف به زحف العباسيين.

داوم نصر بن سيار، والي خراسان على مراسلة الخليفة مروان بن محمد، وكذلك واليه على العراق يزيد بن عمر بن هبيرة بإلحاح، طالبًا سرعة المدد بالرجال كي يتسنى له قتال العباسيين والقضاء عليهم قبل أن يستفحل أمرهم[17]، ومن ثم أمر الخليفة مروان بن محمد عامله على العراقين (البصرة والكوفة) يزيد بن عمر بن هبيرة أن يُسعف ابن سيار بطلبته. ولا بد لنا من التوقف مليًا عند رد ابن هبيرة على الخليفة؛ إذ أجاب ابن هبيرة الخليفة أن جنده ومن هم تحت إمرته لا يزيدون بحالٍ من الأحوال على اثني عشر ألف مقاتل[18]. كما أنه تعلل بأن عرب العراق ليس لهم ولاء لبني أميَّة وربما ينحازون إلى أبي مُسلم الخراساني فيزداد موقف نصر بن سيار سوءًا[19].

إذا أخذنا تقدير ابن هبيرة لعدد جنده على محمل الجد، فإن ذلك كفيل بتبيان المدى الذي بلغه الاختلال الديموغرافي الذي تسبب به الطاعون للقبائل العربية في العراق، خصوصًا إذا قارنّاه برواية البلاذري عن الوليد بن هشام بن قحذم عن والده هشام بن قحذم بن ذكوان الذي تولى النظر في ديوان جُند العرب في العراقين في عهد زياد بن أبيه أيام الخليفة معاوية بن أبي سفيان، فأحصى عدد المقاتلة

(17) أحمد بن اسحق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي: وهو تاريخ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي**، 2 ج (ليدن: مطبعة بريل، 1883)، ج 2، ص 408؛ أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، **الأخبار الطوال**، تحقيق عبد المنعم عامر (القاهرة: دار إحياء الكتاب العربي، 1960)، ص 357؛ أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري، **أنساب الأشراف**، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي (بيروت: دار الفكر، 1996)، ج 9، ص 313، وأبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك**، 10 ج (بيروت: دار التراث، 1967)، ج 7، ص 369.

(18) الدينوري، ص 360.

(19) المرجع نفسه، ص 360.

المسجلين في ديوان البصرة بنحو 80 ألف مقاتل و120 ألفًا من ذراريهم[20]، مع وضع مماثل تقريبًا للكوفة التي بلغ عدد المقاتلة فيها نحو 60 ألفًا وذراريهم قرابة 80 ألفًا[21].

من حيث المبدأ، تستعصي رواية البلاذري على الرد لأنها صادرة عن مصدر أولي، أي عن رجل تولّى النظر في ديوان جند العرب بنفسه. بيد أن تلك الأرقام ستثير، بلا شك، ريبة علماء الديموغرافيا وعجبهم، فلا يُمكن القبول بنسبة 2 للمقاتلة لكل 3 من النساء والأطفال في البصرة، أو 3 للمقاتلة لكل 4 من النساء والأطفال في الكوفة لكن ذلك لا يقوم مبررًا لرد تلك الرواية؛ إذ إن الغرض من التسجيل في ديوان الجند ارتبط بالعطاء وليس بالإحصاء ابتداءً. وكان دأب بني أميّة إسقاط من شاءوا وإثبات من شاءوا في الديوان. وغني عن البيان أن الأوضاع الاقتصادية والسياسية قامت بدور كبير في تضييق نطاق التسجيل في الديوان وتوسعته، بيد أن هذا المعيار الانتقائي في إثبات العرب في الديوان لم يكن له كبير أثر في نهايات عصر الدولة الأموية، كما يبدو؛ فمع ثبات العامل الاقتصادي عاملًا حاكمًا في أمر التسجيل في الديوان، من الواضح أن تلك الندرة النسبية للرجال القادرين على حمل السلاح في عقب الطواعين زادت في إلحاح الحاجة إلى تسجيل أكبر عدد ممكن منهم، وذلك بغضّ النظر عن الانتماءات والأهواء السياسية، ولا سيما أن ابن هبيرة صرح في ردّه على الخليفة بأن ولاء جنده ليس لبني أمية، وأنه لا يرى أمر إرسالهم إلى خراسان من الحكمة في شيء.

في أي حال، فإن وجود 12.000 رجل قادر على حمل السلاح في البصرة

---

(20) أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري، **فتوح البلدان** (بيروت: مكتبة الهلال، 1988)، ص 341.

(21) لم يُظهر هشام جعيط ارتياحًا بخصوص نسب الرجال إلى النساء والذرية المستنبطة من رواية البلاذري، فعلّق على رواية البلاذري بقوله: «مع أن النسبة بين الرجال من جهة، والنساء والأطفال من جهة أخرى من شأنها أن تدعو العالم الديموغرافي إلى التفكير». يُنظر: هشام جعيط، **الكوفة: نشأة المدينة العربية الإسلامية** (الكويت: مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، 1986)، ص 365. ومع ذلك، بنى تقديره لسكان العراقين اعتمادًا على تلك الرواية، فأضاف نحو 20 ألفًا من الموالي والعبيد (ومن يجري مجراهم ممّن لا يحصيهم الديوان) لسكان البصرة، ونحو 10 آلاف لسكان الكوفة، وانتهى إلى أن تعداد سكان المدينتين معًا في عهد زياد بن أبيه ناهز 370 ألف نسمة (ص 364-365).

والكوفة معًا، في عهد ابن هبيرة، وباستخدام المعدلات نفسها لأعداد الذراري في العراقين في عهد زياد بن أبيه، يعني أن الرقم الإجمالي الذي سيخرج لنا لِتعداد العرب في العراقين في عام 131هـ/ 748م هو 29 ألف نسمة، وهذا تقدير متواضع ولا شك. أما إذا سمحنا لخيالنا بالجموح، فوضعنا أمام كل مقاتل أربع نساء وعشرة من الأطفال دون الخامسة عشرة (وهو سن تسجيل المقاتلة في الديوان)، فإننا لا نكاد نصل إلى نصف تعداد العرب المثبتين في الديوان (وليس العرب كلهم القاطنين في العراقين) في عام 53هـ/ 672م، والبالغ عددهم 340 ألفًا. وهذا في حد ذاته يؤشر إلى تراجع حاد في تعداد عرب العراق في نهايات عصر بني أمية.

لا يغيب عن الذهن أن تراجع عدد المقاتلة المثبتين في الديوان في العراقين في عهد مروان بن محمد إلى أقل من 10 في المئة من تعدادهم في عصر معاوية بن أبي سفيان هو أمر يحمل في طياته دلالة واضحة على تدهور اقتصادي حاد، إضافةً أيضًا إلى أنه يعكس تراجعًا حادًا في عدد السكان بصورة عامة مقارنةً بمعدلاتها في صدر العصر الأموي.

تأسيسًا على هذا، لا يمكن التعاطي مع مزاعم ابن أعثم الكوفي (المتوفى نحو 314هـ/ 926م) الذي قدر جنود مروان بن محمد بمئة ألف مقاتل يوم الزاب[22]. وتقدير الدينوري (المتوفى في عام 282هـ/ 895م) لعدد جنود مروان في 30 ألفًا[23] يبدو أكثر واقعية في ضوء الأحوال الديموغرافية التي واكبت معركة الزاب الفاصلة. وهذا الحشد المتواضع الذي حشده الخليفة في معركة مصيرية يبرر لنا بوضوح أسباب رفضه إمدادَ واليه على خراسان بجندي واحد، بل إن لدينا ما يشير إلى أن ذلك الفراغ الديموغرافي الناجم عن الطواعين المتتالية ألجأ خلفاء بني أميَّة إلى جمع الفلاحين من الحقول وإلحاقهم بالخدمة في الجيش قسرًا؛ إذ قُتل

---

(22) أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي، **كتاب الفتوح**، تحقيق علي شيري (بيروت: دار الأضواء، 1991)، ج 8، ص 331. لاحظ هشَام جعيط أن رقم 100 ألف فارس أصبح رقمًا تقليديًّا تكراريًّا في المصادر منذ مواجهة الحجاج بن يوسف مع ابن الأشعث. ويعكس رمزية رياضية لذروة حشد البصرة والكوفة معًا. يُنظر: جعيط، ص 366-367.

(23) الدينوري، ص 364.

نحو خمسة آلاف فلاح، أغلبهم من أهل الذمة كانوا قد جُمعوا قسرًا من حقولهم، وذلك في مواجهة جرت بين مروان بن محمد وشيعة إبراهيم بن الوليد بقيادة ثابت بن نُعيم قرب حمص في عام 127هـ/ 744م[24].

في كل حال، عانت المدن الكبرى في العراق والشام اختلالًا ديموغرافيًا جسيمًا نجمت عنه مشكلة أخرى واجهت الدولة جراء الطاعون، وهي نسبة الوفيات العالية بين الطبقتين العليا والوسطى من ذوي الملكيات والحيازات الزراعية الذين كانوا يقضُون من دون وريث. يمكننا أن نستشعر بعضًا من آثار تلك المشكلة من حديث ابن حزم عن فناء نَسْل خالد بن الوليد، بقوله: «وكثر ولد خالد بن الوليد .... وكانوا كلهم بالشام، ثم انقرضوا كلهم في طاعون وقع، فلم يبق لأحد منهم عقب»[25]. وكان «للربيع بن العلاء التيمي اثنا عشر ولدًا، ماتُوا جميعًا»[26]. كما فنيت قبائل بأسرها، فلم يُبق الوباء منهم أحدًا ليرث ما خلفوه[27]. كما بلغ من حدة الطاعون الذي ضرب الكوفة في عام 50هـ/ 670م أن فنِي فيه بنو زر بن حبيش العامري[28] وبنو غاضرة[29] عن آخرهم، فلم يبق لهم عقب واحد.

ثانيًا: أثر الطاعون في الحياة الاجتماعية

لم تتخذ الدولة الأموية أي إجراءات في الطواعين سوى النداء في الناس ليُخلوا المناطق الموبوءة على الفور. وسبق أن مرَّ بنا أمر المغيرة بن شعبة لسكان

(24) التلمحري، ص 144. ورد اسم ثابت بن نعيم محرفًا في نص الراهب الزقنيني ليصبح ثابت بن نعمان!

(25) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، **جمهرة أنساب العرب** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1983)، ج 1، ص 148.

(26) علي بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدي، **البصائر والذخائر**، تحقيق وداد القاضي (بيروت: دار صادر، 1988)، ج 4، ص 201.

(27) أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر، 1994)، ج 2، ص 203.

(28) أبو الفرج الأصفهاني، ج 2، ص 608، وابن خلكان، ج 2، ص 203.

(29) أسامة بن منقذ، **المنازل والديار**، تحقيق مصطفى حجازي، ط 2 (القاهرة: دار سعاد الصباح، 1992)، ص 450.

الكوفة بالخروج منها عند ضرب الطاعون لها، عندما نادى في الناس «هذا العذاب قد وقع فاخرجوا عنه»[30]. وكان الخليفة معاوية بن أبي سفيان يرى الخروج في الطاعون، لكن الصحابيّ أبا الدرداء حال دون تنفيذ قرار لمعاوية، عندما كان أميرًا على الشام، بإجلاء أهالي داب عندما تفشى الطاعون فيهم[31]. إن الأمر بإجلاء السكان عن المناطق المنكوبة أسفر، ولا ريب، عن انتشار الطاعون من مدينة إلى مدينة، ومن قرية إلى أخرى بالسرعة نفسها التي بلغها هؤلاء الفارُّون بأنفسهم من الوباء.

بيد أن سياسة إخلاء المناطق الموبوءة التي انتهجها خلفاء بني أميَّة كانت تتعارض كليًا مع حديث النهي عن الخروج في الطاعون بطبيعة الحال. ومن ثم، لم تكن لتمر من دون معارضة قوية من جانب الصحابة وبعض فقهاء التابعين، ما كان يحرج مركز الخليفة أحيانًا؛ إذ وصلت المحاجحة في أمر الفرار من الطاعون إلى التلاسن في المساجد وعلى رؤوس الأشهاد؛ فعندما وقف الخليفة معاوية يخطب على المنبر في الناس بإباحة الفرار من الطاعون، قام الصحابي عبادة بن الصّامت الأنصاري من مجلسه مُغضبًا، قائلًا للخليفة «أمُّكَ هِنْدٌ أَعْلَمُ منك»، فأتم الخليفة خطبته، ثم صلَّى بالناس متجاهلًا الرد على عبادة. وبعد الصلاة، أرسل إليه يستدعيه، فلما مثل بين يديه لامه الخليفة على تكذيبه على المنبر على رؤوس الأشهاد، وطلب منه طاعة إمامه. فرد عليه عبادة بأنه بايع رسول الله يوم العقبة على ألا يخشى في الله لومة لائم، الأمر الذي اضطر الخليفة إلى التراجع في صلاة العصر، فخطب في الناس قائلًا: «كنت قد ذكرت لكم حديثًا، فلما دخلت البيت وجدته كما حدثنيه عبادة، فخذوا عنه فإنه أفقه مني»[32].

---

(30) يُراجع ما ذُكر أعلاه في الفصل الثاني عن طاعون المغيرة بن شعبة.

(31) عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان بن بطة العكبري، **الإبانة الكبرى** (الرياض: دار الراية للنشر والتوزيع، 1994-2005)، ج 4، ص 226.

(32) سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الطبراني، **المعجم الأوسط**، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني (القاهرة: دار الحرمين، [د. ت.])، ج 8، ص 133، وأبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**، تحقيق مجموعة من الباحثين في 17 رسالة جامعية، تنسيق سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشثري (الرياض: دار العاصمة للنشر والتوزيع، 1998؛ دار الغيث للنشر والتوزيع، 2000)، ج 13، ص 676.

على الرغم من إقرار معاوية بن أبي سفيان، في هذه الرواية على الأقل، بصحة حديث النهي عن الخروج في الطاعون، واصل خلفاء بني أميَّة دعوة الناس إلى إخلاء الأماكن الموبوءة بالفرار من الطاعون، كما خرجوا بأنفسهم وأبنائهم من دمشق، حاضرة الخلافة، معتزلين الناس، قاصدين البرية[33] أو الأديرة النائية[34] للإقامة فيها حتى ارتفاع الوباء. ولم يشذ عن خلفاء بني أميَّة في هذا إلا فقيههم عمر بن عبد العزيز، ففي رواية محمد بن سعد قال[35]:

حدَّثنا أحمد بن أبي اسحاق قال: حدَّثني هشام بن المُفضَّل قال: أخبرنَا أشْعَثُ عن أرْطأة بن المنذر قال: كان عند عمر بن عبد العزيز نفرٌ يسألُونَه أن يتحفَّظَ في طعامه. ويسألُونَه أَن يكون له حرسٌ إذا صَلَّى لئلا يثور ثائرٌ فيقتله. **ويسألُونَه أن يتنحَّى عن الطاعون، ويخبرونه أن الخلفاء قبله كانوا يفعلون ذلك.**

مع أن الفرار من الطاعون ربما كان أمرًا تحتمه غريزة البقاء، ولدينا بالفعل ما يشير إلى فرار عدد كبير من العوام في الطواعين من مدنهم وقراهم، فلا يبدو لي أن الفرار من الطاعون مُورس على نطاق واسع بين النخبة، باستثناء الخلفاء وولاتهم على الأمصار؛ إذ قام تحريم الفرار من الطاعون وتشبيهه بالفرار من الزحف بدور كبير في إحجام كثير من الناس عن الخروج في الطاعون، حيث يمكننا القول إن الفرار من الطاعون لم يكن يقدح في شجاعة ومروءة الرجل فحسب، بل يقدح في إيمانه أيضًا. وينبغي ألّا نتجاهل أن أحد الطواعين عُرف بين الناس بـ «طاعون الأشراف» لشدة فتكه بهم دون الناس.

هذا إلى أن أدبيات ذلك العصر تغصُّ بصور التعريض والإنكار على الفارِّ من الطاعون[36]. وليس ثمة رواية أبلغ من تلك الرواية التالية في تصوير حرج

---

(33) المبرد، **التعازي**، ص 221؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 8، ص 389؛ عز الدين بن الأثير، **الكامل في التاريخ**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري (بيروت: دار الكتاب العربي، 1997)، ج 4، ص 283، وابن تغري بردي، ج 1، ص 313.

(34) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 8، ص 411.

(35) أبو عبد الله محمد بن منيع بن سعد، **الطبقات الكبرى**، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر، 1968)، ج 5، ص 398.

(36) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 7، ص 154.

الشخص الذي كان يُعرف عنه الفرار من الطاعون؛ فمحمد بن سعد روى أن أنس بن سيرين وأخاه محمد بلغهما أن مسروق بن الأجدع، وهو من أعلام التابعين، كان يفر في الطاعون، فأنكرا ذلك عليه، وسألا زوجته عن حاله في الطاعون، فأجابتهما بقولها: «كلا واللَّهِ ما كان يفرُّ ولكنه كان يقُول: أيامُ تشَاغُلٍ فأحبُّ أن أخلُو للعبادة، فكان يتنحَّى فيخلُو للعبادة»[37].

كان علي بن زيد بن جُدعان (المتوفى بعد عام 121هـ/ 738م) يرى الفرار من الطاعون، فخرج فارًّا بنفسه في أيام الطاعون إلى البرية بظاهر الكوفة. وكان يُضطر إلى العودة إلى المدينة كل جمعة ليصلي الفرض، ثم يعود مجددًا إلى البرية[38]. وكان إذا انصرف من الصلاة عيَّره سكان المدينة بالفرار من الطاعون[39]. وكذلك كان المحدث مطرف بن عبد الله الشخير إذا ضرب الطاعون يتنحّى عن الناس[40]، وبقي بينهم مضربًا للمثل؛ إذ لقي حتفه في طاعون الفتيات، كما مر بنا من قبل.

روى المدائني أيضًا أن شُريح بن الحارث قاضي الكوفة (المتوفى نحو عام 80هـ/ 699م) كتب إلى صديق له يلومه على الفرار من الكوفة وطلب النجاة بنفسه، قائلًا: «أما بعد، فإنك بالمكان الذي أنت فيه بعين من لا يعجزه هرب، ولا يفوته طلب. وإن المكان الذي خلَّفته لا يُعجِّلُ أحدًا إلى حِمامِه، ولا يظلمه شيئًا من أيامه. وإنا وإياك لعَلى بساط واحد»[41]. وأدرك جابر بن زيد الأزدي (المتوفى في عام 93هـ/ 711م) جماعة خرجوا من الطاعون فرارًا، محاولًا إثناءهم عن الخروج بقوله: «ما أقرَبَكُم ممَّن أرَادكُم»[42]، وتندَّر بعض الشعراء على الفارين من الطاعون بقوله[43]:

---

(37) ابن سعد، ج 6، ص 81.

(38) هذا الطاعون هو طاعون مسلم بن قتيبة على الأرجح؛ لأنه دام بضعة شهور.

(39) المبرد، **التعازي**، ص 218.

(40) ابن سعد، ج 7، ص 144.

(41) أبو حيان التوحيدي، ج 2، ص 174، ومحمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، تحقيق إحسان عباس وبكر عباس (بيروت: دار صادر، 1996)، ج 5، ص 232.

(42) ابن سعد، ج 7، ص 180.

(43) المبرد، **التعازي**، ص 222، وأبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **البيان والتبيين** (بيروت: دار ومكتبة الهلال، 2002)، ج 3، ص 185.

لـــن يُشْـــبَقَ الله علـــى حمار
ولا علـــى ذي ميعـــة مطـــارِ .

أو يأتـــي الحتفُ علـــى مقدار
ويصبـــح اللـــه أمام السَّـــاري

لم ينجُ الخلفاء أنفسهم من اللوم والتعريض والاتهام بالفرار من قضاء الله وقدره؛ إذ تلا رجل من العوام على مسامع الوليد بن عبد الملك، عندما كان يهم بالخروج من دمشق في طاعون الفتيات، قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: 16][44].

أما العوام، فدأبوا على ترك قراهم ومدنهم الموبوءة، سالكين طريقهم إلى بقاع أكثر أمنًا من الوباء[45]. وسرعان ما تحولت هذه الهجرات العشوائية الموقتة إلى هجرات دائمة لقطاع عريض منهم، الأمر الذي ساهم في خلق مشكلات كثيرة ذات بُعدين اجتماعي واقتصادي لمواطن تلك الهجرات، أبرزها وجود عدد كبير من الأكرة والفلاحين بلا عمل أو مأوى أو مورد رزق. وفي حين تحول بعضهم

(44) الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج 2، ص 142؛ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، **عيون الأخبار** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1997)، ج 1، ص 231، وابن عبد ربه، ج 3، ص 142.

(45) الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج 3، ص 185؛ ابن قتيبة، **عيون الأخبار**، ج 1، ص 231؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 7، ص 154؛ عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن أبي الدنيا، **العقوبات**، تحقيق محمد خير رمضان يوسف (بيروت: دار ابن حزم، 1996)، ص 188؛ المبرد، **التعازي**، ص 222؛ ابن بطة العكبري، ج 4، ص 290؛ أبو حيان التوحيدي، ج 2، ص174؛ الأصبهاني، ج 4، ص 136؛ إبراهيم بن علي بن تميم الحصري القيرواني، **زهر الآداب وثمر الألباب** (بيروت: دار الجيل، [د. ت.])، ج 4، ص 1066؛ الراغب الأصفهاني، ج 2، ص 523؛ أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي، **سراج الملوك** (القاهرة: مطبعة بولاق، 1872)، ص 184؛ ابن حمدون، ج 5، ص 232؛ أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، **ربيع الأبرار ونصوص الأخيار** (بيروت: مؤسسة الأعلمي، 1991)، ج 5، ص 43؛ برهان الدين أبو إسحق محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي الوطواط، **غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة**، ضبطه وصحّحه وعلّق حواشيه ووضع فهارسه إبراهيم شمس الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، 2008)، ص 448.

للعمل في الرعي، تحول معظمهم إلى متسولين يتكفّفون الناس[46]، بينما وقع بعضهم في أيدي قطاع الطرق وانتهت بهم الحال إلى البيع في أسواق الرقيق[47]، ما أدى إلى خراب البقاع التي أتوا منها وكانت عامرة بهم.

كانت المجاعات رديفًا للطواعين، ولا سيما الجارفة منها؛ فالطاعون كان يسبب شللًا شبه تام للنشاط الاقتصادي، وللنشاط الزراعي على وجه الخصوص، فيندر المعروض في الأسواق من الغذاء، ومن ثم تقع المجاعة في عقب الطواعين مباشرة، مثل المجاعة الكبرى في الجزيرة في عقب طاعون مسلم بن قتيبة، حيث نصّ أحد الرهبان السريان على أن عدد الموتى جراء المجاعة فاق عدد ضحايا الطاعون[48]، فكانت كسرة الخبز «أنفس وأعلى قيمة من الذهب والفضة اللذين باتا محتقرين كروث الماشية، حتى إنه لو كان على الموتى، ولا سيما النساء، شيء من الذهب أو الفضة، فإن أحدًا لم يكن يدنس يده ليأخذ شيئًا منها»، على حد تعبير ذلك الراهب السرياني[49].

حاول الحجاج بن يوسف الثقفي وضعَ حد لهذه الهجرات العشوائية من الريف إلى المدن والبرية، حتى باتت ظاهرةً تهدد التوازن السكاني. كما أنها ساهمت في تغيير التركيبة السكانية في كلٍّ من البصرة والكوفة، ومثّلت العامل الأهم في ذلك النقص الحاد في موارد الدولة بسبب رفض الفلاحين والأكرة العودة إلى قراهم فكُسر الخراج والجزية. من ثم قرر الحجاج إعادة كل من كان

---

(46) أبو الحسين مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم، المسمّى المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1991)، ج 1، ص 21؛ أبو الفضل عياض بن موسى عياض [القاضي]، **إكمال المعلم بفوائد مسلم**، تحقيق يحيى إسماعيل (القاهرة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 1998)، ج 1، ص 146؛ محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، **شرح النووي على مسلم المسمى المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1972)، ج 1، ص 105؛ يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف المزي، **تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف**، تحقيق عبد الصمد شرف الدين، ط 2 (القاهرة: المكتب الإسلامي؛ الدار القيمة، 1983)، ج 13، ص 338.

(47) التلمحري، ص 135.

(48) المرجع نفسه، ص 136.

(49) المرجع نفسه، ص 140.

أصله من السواد إلى قراهم ورساتيقهم التي هاجروا منها بالقوة[50]. وعندما لم يجدِ ذلك نفعًا تطرّف الحجّاج في ردة فعله، فأمر بوشم الفلاحين والأكرة على أياديهم باسم القرية والرُّستاق ليعرفُوا خارجها، فتسهل إعادتهم إليها[51].

يبدو أن تلك الحلول والسياسات لم تنفع في إعادة تعمير السواد، الأمر الذي حدا بالحجاج إلى انتهاج سياسة أكثر فاعلية لإحداث التوازن الديموغرافي المنشود ولو قسريًّا، فطلب من عامله على السِّند محمد بن القاسم إجلاء قبائل الزُّط والسَّبابجة (هنود نهر السند) المزارعين لتعمير السواد[52]. فجاء هؤلاء الزُّط من بلاد السند ليدخلوا معهم سلالة من جاموس الماء المستأنس (Bubalus bubalis) أول مرة إلى ديار الإسلام[53]، وذلك بديلًا من بقرِ العراق الذي أفنته الأوبئة[54]، فأمر الحجاج بتوطينهم نواحي كَسْكَر وكُور دجلة لإعادة تعميرها[55].

---

(50) الطبري، ج 6، ص 381 و617، وأبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، **الوزراء والكتاب** (بيروت: دار الفكر الحديث، 1998)، ص 41.

(51) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **الحيوان**، ط 2 (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003)، ج 7، ص 100؛ أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، **كتاب الكامل في اللغة والأدب**، عارضه بأصوله وعلّق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 3 (القاهرة: دار الفكر العربي، 1997)، ج 2، ص 74؛ أحمد بن محمد بن الفقيه الهمذاني، **كتاب البلدان**، تحقيق يوسف الهادي (بيروت: عالم الكتب، 1996)، ص 307؛ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، **تاريخ مدينة السلام وأخبار مُحَدِّثيها وذكر قُطانِها العلماء من غير أهلها ووارديها**، حققه وضبط نصه وعلق عليه بشار عواد معروف (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2001)، ج 1، ص 411؛ الزمخشري، ج 4، ص 309. ومن الواضح أن الأسباب الحقيقية التي دعت الحَجاج إلى هذا الإجراء كانت قد أضحت في طي النسيان؛ إذ كتب الصفدي في ترجمة الحجاج بن يوسف أنه سُئل عن السبب وراء قراره إجلاء النبط وإعادتهم إلى قراهم، فاستشهد بحديث منسوب إلى النبي «مَا ازدادت النبط فِي الْإِسْلَام عزاً إِلَّا ازْدَادَ الْإِسْلَام ذُلًّا». يُنظر: خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، **الوافي بالوفيات**، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى (بيروت: دار إحياء التراث، 2000)، ج 11، ص 240.

(52) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص 162.

(53) المرجع نفسه، ص 168. يُقارن أيضًا: أبو الفرج قدامة بن جعفر، **الخراج وصناعة الكتابة**، شرح وتحقيق محمد حسين الزبيدي (بغداد: دار الرشيد للنشر، 1981)، ص 309.

(54) ابن حمدون، ج 4، ص 298.

(55) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص 168. ولمزيد من التفصيلات عن شعوب الزُّط وتهجيرها إلى بلاد ما بين النهرين يُنظر: عبادة كحيلة، **الزُّط والأصول الأولى لتاريخ الغجر** (القاهرة: [د. ن.]، 1994).

على صعيد آخر، أثار الطاعون مشكلات شرعية عدة وثيقة الصِّلة بما كان يطرأ على حياة الناس في الوباء. وهي مشكلات تطلبت حلولًا شرعية وعملية عاجلة وناجعة لها، فأباح الفقهاء التيمُّمَ للمصاب بالقرحة الطاعونية التي تجعله لا يُطيق الماء عند التطهر من الجنابة أو الوضوء[56]. كما أباح الفقهاء للناس الصلاة على الرجال والنساء مجتمعين في صلاة جنازة واحدة بلا حَرج، وأفتى جَابر بن زيد الأزدي بجواز الصلاة على الرجال والنساء معًا في جنازة واحدة إذا ألجأت الضرورة إلى ذلك[57]. وصَلَّى واثلة بن الأسقع اللَّيثي (المتوفى في عام 83هـ/ 702م) بالفعل على الرجال والنساء معًا، في عقب طاعون ضرب دمشق، بيد أنه «فصل نعوش الرجال عن نعوش النساء بحيث جعل رأس سرير المرأة عند رجلي صاحبتها، ورأس الرجل عند رجلي صاحبه»[58]، في حين سكت التَّابعون، في العصر الأموي، تمامًا عن مسألة غُسْل الرجل زوجته وتكفينه إياها في الوباء[59].

برز اصطلاح «المرض المَخُوفِ» ليشمل على رأس تلك الأمراض الطاعون وأمراض عدة أُخر تستمر فيَها حياة الإنسان مع تغليب الإياس من نجاته. فلم يُسْمَح للمريض بالبيع ولا الشراء أو الهبة أو الشراكة إلا في حدود الثُّلث من أمواله أسوةً بالوصية[60]. على أن الطاعون لم يكن يأخذ المورِّث ويذر وارثه إلا في القليل النادر، ومن ثم، فإن هذه المشكلة تعد ثانويةً بالنسبة إلى المشكلة الكبرى التي واجهت الناس في الطاعون، ألا وهي قسمة تلك المواريث نفسها؛ إذ أشكلت قسمة المواريث على الولاة والعمال في المدن والأمصار في عقب الطواعين

(56) أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، **السنن الكبرى**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط 3 (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003)، ج 1، ص 350.

(57) عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي بن أبي شيبة، **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**، تحقيق كمال يوسف الحوت (الرياض: مكتبة الرشد، 1988)، ج 3، ص 7-8؛ البيهقي، **السنن الكبرى**، ج 4، ص 53، والذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 3، ص 717.

(58) ابن أبي شيبة، ج 3، ص 7-8، والذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 3، ص 717.

(59) ابن أبي شيبة، ج 2، ص 465.

(60) مالك بن أنس، **موطأ الإمام مالك**، صححه ورقّمه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1985)، ج 2، ص 764.

بسبب تعاقب وفيات الأقارب، لا يُقطع بأيهم تُوفي قبل الآخر. ورأى بعض التابعين في عصر بني أميّة العمل باتفاق أبي بكر الصديق مع عمر بن الخطاب في إرث قتلى اليمامَة، فتُفْحص الجثث وهي على حالها من دون مساس، فمن وُجد ويده أو رجله فوق يد أو رجل ميت آخر، أو كان ثمة ما يدل على موت أحد الوارثَين قبل الآخر، ورثَ الأعلى الأسفل[61]، في حين رأى بعض التابعين العمل بما أمر به عمر بن الخطّاب في المواريث في عقب طاعون عمواس، بعد أن كثُرت شكاوى الناس من أن بعض القبائل كان يرث قبائل أخرى إذا عصَّبَ الموتى الموتى. ومن ثم أمر عمر ولاته وعماله بتوريث الأحياء من الأموات مباشرة، ومن تِلاد أموالهم (أي أصول أموالهم التي ماتوا وهم يمكلونها) فحسب، من دون اعتبار لمواريثهم من الموتى الآخرين، أي تجاهل القرابة بين الموتى، فلا يرث ميت من ميت شيئًا[62].

يبدو لي أن العمل في عقب الطواعين في ما يخص المواريث في عصر بني أميّة دار على تعصِيب الأحياء للأموات مباشرة، وذلك لأن عمر بن عبد العزيز رأى الجمع بين الرأيين معًا، فإن وُجد دليلٌ على وفاة مورث قبل وريثه ورث الميتُ الميتَ، ثم انتقل الإرث إلى الأحياء بالفريضة الشرعية، وإن لم يوجد عصَّبَ الأحياء الأموات مباشرة[63].

لنا أن نخمن حجم التغيرات الاجتماعية التي ترتبت عن بقاء أعداد كبيرة من الأرامل والأيامى من النساء اللائي غدون بلا قيّم بعد فورات الطاعون[64]،

---

(61) محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي، **المبسوط** (بيروت: دار المعرفة، 1993)، ج 30، ص 27.

(62) البيهقي، **السنن الكبرى**، ج 6، ص 364.

(63) السرخسي، ج 30، ص 27.

(64) أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر بن طيفور، **بلاغات النساء**، صحّحه وشرحه أحمد الألفي (القاهرة: مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، 1908)، ص 196؛ عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن أبي الدنيا، **من عاش بعد الموت**، تحقيق محمد حسام بيضون (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، 1992)، ص 54؛ المبرد، **التعازي**، ص 218؛ أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، **طبائع النساء وما جاء فيها من عجائب وأخبار وأسرار** (القاهرة: مكتبة القرآن، [د. ت.])، ص 205، وأسامة بن منقذ، ص 470.

التي قامت بدور كبير، ولا شك، في نشأة أسر جديدة على أنقاض تلك الأسر القديمة التي شتَّتَ الطاعون شملها. إن المصادر المعاصرة لا تُعيننا على رسم صورة واضحة لأثر الطاعون في زيادة وتيرة الزواج والطلاق في العصر الأموي، بيد أننا نستشعر أن وفرة الأرامل والمطلقات عملت على زيادة وتيرة الزواج والطلاق آنذاك[65]؛ فنحن نعرف أن الوليد بن عبد الملك تزوج ثلاثًا وستين امرأة، وكان يطلّق الثلاث والاثنتين والواحدة[66]، وأن ابنة محمد بن عروة بن الزبير تزوجت من أربعة رجال في خلال مدة وجيزة قبل أن يردها زوجها الأول[67]. وكذلك تزوجت حفصة بنت محمد بن عمران من ستة رجال، أحدهم هشام بن عبد الملك[68].

من المسلَّم به أن الروابط الاجتماعية تكون أكثر ما تكون وهنًا في الأوبئة والمجاعات، فكل امرىء يُشغل بنفسه، وهو ما يتجلى في قول المبرد:

الذي بلغنا من خبر الطاعون أن الناس لا يجزعون فيه على موتاهم كجزعهم في غير الطاعون، وذلك لتأسِّي الناس بعضهم ببعض، ولما يدخلهم من الخوف، فكل إنسان يخاف على نفسه فيسلو عن الولد والأهل والقرابة[69].

دفن الناس موتاهم، في بداية الوباء، كما هي العادة، فكفنوهم وصلُّوا عليهم[70]، إلا أن وفرة أعداد الموتى في أيام فورة الوباء، وصعوبة إيجاد من

(65) عن تناول عام لأثر الطاعون في الأسرة الإسلامية في مجتمعات العصور الوسطى المتأخرة يُنظر: Yossef Rapoport, *Marriage, Money and Divorce in Medieval Islamic Society* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 2005), pp. 26-30.

وعن مجتمع حلب على وجه الخصُوص، يُنظر: Abraham Marcus, *The Middle East on the Eve of Modernity: Aleppo in the Eighteenth Century* (New York: Columbia University Press, 1989), p. 198.

(66) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 8، ص 66.

(67) المرجع نفسه، ج 9، ص 445.

(68) المرجع نفسه، ج 10، ص 132.

(69) المبرد، **التعازي**، ص 215.

(70) أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، **شعب الإيمان**، حقّقه وراجع نصوصه وخرّج أحاديثه عبد العلي عبد الحميد حامد (الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع؛ بومباي: الدار السلفية في الهند، 2003)، ج 11، ص 473.

يتكفل بهم من تجهيز وتكفين وحفر للقبور كانتا أمرًا فوق طاقة الأحياء[71]، حتى إن أكثر الضحايا كانوا يُدفنون من دون أداء صلوات الجنازة بالنسبة إلى المسلمين والنصارى وحتى اليهود[72]. ويجب أن نأخذ في الحسبان أيضًا ذلك الجنون الذي كان يصيب الأسعار في أيام الوباء، حيث كان ثمن صَاع القمح يقفز في الوباء إلى ما يعادل ثُمن الدينار تقريبًا[73]، بارتفاع لا يقارن بسعر القمح في الأوقات الاعتيادية، حيث كان في وسع من يمتلك دينارًا واحدًا شراء أربعة عشر أردبًّا من القمح (في المتوسط) في أواسط العصر الأموي. وفي طاعون مُسلم بن قتيبة الذي دام في الناس قرابة أربعة شهور، فقدت العملة قيمتها تمامًا أمام السِّلع الغذائية عندما استعر الوباء[74]. ومن ثم، كان تجهيز المتوفى للدفن عملًا فوق طاقة أغلب الأسر المنكوبة. كما أن أراضي المقابر في ظاهر المدن كانت تمتلئ بحفر الموتى، وكان إيجاد موضع جديد للحفر في المقابر أمرًا مشْكلًا على الراغبين في دفن موتاهم[75]. ومن ثم، لا غرابة في حديث المصادر من أن أمير البصرة عبيد الله بن معمر وجد صعوبة في دفن أمه التي ماتت في الطاعون الذي ضرب المدينة في عام 64هـ/ 683م[76]. وعندما كان الطاعون يستعر، كان الأحياء مجبرين على إخراج جثث الموتى بسبب الروائح الكريهة التي تفوح منها في أثناء تحللها، ليلقوها خارج المدن كيفما اتفق، «كما لو كانوا يلقون بحجارة فوق كومة»[77].

(71) التلمحري، ص 137.
(72) المرجع نفسه، ص 135.
(73) المرجع نفسه، ص 131.
(74) المرجع نفسه، ص 140.
(75) المرجع نفسه، ص 136.
(76) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 6، ص 38؛ الطبري، ج 5، ص 612؛ ابن منده العبدي، ج 3، ص 71؛ ابن الجوزي: **المدهش**، ص 70؛ **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992)، ج 6، ص 25؛ ابن الأثير، ج 3، ص 289؛ الذهبي، **العبر**، ج 1، ص 56؛ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ط 2 (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، 2002)، ج 21، ص 63، وابن كثير، ج 11، ص 719.
(77) التلمحري، ص 139.

لجأ بعض الناس في الطواعين الجارفة إلى حلٍّ عملي، تمثّل في تحويل الدُّور إلى قبُور بسد أبوابها ومنافذها بالطين على أسر كاملة هلك أفرادها جميعهم في الوباء. وعند ارتفاع الطاعون كان الناجون يقومون بفتح تلك الدور ودفن رفات المتوفين، وتسليم الممتلكات إلى وارثيها إن وجِدوا[78]. ولعل هذا التصرف الفِطري ساهم في الحد من انتشار الوباء وأسرع باتجاه انحساره سريعًا. لكن ما كان يزيد معاناة الناجين بحق، في المدن والقرى الموبوءة، أن رائحة الموت كانت تغري الضواري وآكلات الجيف بالنزول من الجبال والغابات المجاورة لالتهام تلك الجثث[79]. كما كانت معدلات الجريمة تصل إلى ذروتها في أوقات الأوبئة أو بعدها لغياب الأمن وانحسار قبضة السلطة، فتكثر السرقات وكذلك الاعتداء على النساء[80]، كما يُستشعر ذلك في قول المبرد: «وكان الرجل بعد الطاعون يلقى المرأة، فلو شَاء أن يغصِبها نفسها فعل قبل أن يمر أحد»[81]. بل كان بعض سكان القرى يعتدي على سكان القرى الأخرى في الجوار طلبًا للطعام والغذاء[82]؛ لذا، لم يكن من الممكن أن يُغادر الرجل داره من دون أن تُنهب أو تُسلب[83].

---

(78) الجاحظ، **الحيوان**، ج 2، ص 334؛ المبرد، **التعازي**، ص 217؛ أبو بكر محمد بن خلف بن المرزبان، **فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب**، تحقيق ركس سميث ومحمد عبد الحليم (كولونيا: دار الجمل، 2003)، ص 49؛ أبو علي المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم داود التنوخي، **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**، تحقيق عبود الشالجي (بيروت: دار صادر، 1973)، ج 4، ص 154؛ الأصبهاني، ج 10، ص 148؛ ابن حمدون، ج 8، ص 67؛ الزمخشري، ج 5، ص 418، وجلال الدين أبو بكر عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون»، مخطوط ضمن مجموع بالمكتبة السليمانية، م. إسماعيل لالا، برقم 678، ص 177ظ.

(79) عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن أبي الدنيا، **الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان**، تحقيق نجم عبد الرحمن خلف (عمّان: دار البشير، 1993)، ص 58؛ ابن منده العبدي، ج 3، ص 71؛ ابن الجوزي، **المنتظم**، ج 6، ص 26؛ عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري بن الملقن، **التوضيح لشرح الجامع الصحيح**، تحقيق دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث (دمشق: دار النوادر، 2008)، ج 27، ص 463، والديار بكري، ج 2، ص 309.

(80) المبرد، **التعازي**، ص 216؛ التنوخي، **الفرج**، ج 2، ص 330؛ ابن منده العبدي، ج 3، ص 72، والراغب الأصفهاني،ج 2، ص 522.

(81) المبرد، **التعازي**، ص 217، يُقارن مع: التلمحري، ص 135.

(82) التلمحري، ص 135.

(83) المرجع نفسه، ص 135.

ثالثًا: آثار الطاعون الاقتصادية

فرَّغت الطواعين المتتالية قرى وضياعًا كاملة من سكانها، فخربت من بعد عمران، حتى إن عاملًا لعمر بن عبد العزيز كتب للخليفة يستأذنه في ضَمِّ قرية خَربة، أباد الوباء سكانها، إلى ولايته، فكتب له الخليفة كأنما يعظه، قائلًا له: «إن أتيتها فسَلْها عن أهلها. والسَّلام»[84]. وتحدث الراهب الزُّقنيني عن تحول المناطق المأهولة إلى صحارى جرداء لا يمر فيها أو يسكنها أحد في عقب طاعون مسلم بن قتيبة[85].

من ثم، وصل سواد العراق وريف الشام إلى حالةٍ لا مزيد عليها من الخراب بسبب ارتفاع معدلات وفيات الفلاحين في الطواعين، إضافة إلى نفوق الحيوان الذي يُستخدم في البذر والحرث والسقي. وبلغ ذلك الخراب مداه في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي؛ إذ قدَّر عمر بن عبد العزيز ما جباه الخليفة عمر بن الخطاب من خراج السواد بمئة ألف ألف درهم (100 مليون درهم)، وما جباه الحجاج بن يوسف من خراج السواد بأربعين ألف ألف درهم (أربعين مليونًا)[86]. بعبارة أخرى، تشير التقديرات المعاصرة إلى تدنِّي خَراج سواد العراق في أواسط العصر الأموي إلى نحو 60 في المئة عن معدله في عصر الراشدين.

إن ذلك الانخفاض الحاد في الموارد بسبب هلاك الناس في الطاعون أضر ضررًا بالغًا بالجزية وبالخراج. ومن ثم وقف بلا ريب خلف قرار الحجاج بن يوسف بعدم رفع الجزية على من أسلم من أهل الذمة[87]. ولا ريب في أن ذلك الإجراء المخالف لتعاليم الإسلام شرعت فيه الدولة بسبب الحاجة الملحة إلى

---

(84) عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن أبي الدنيا، **قصر الأمل**، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، ط 2 (بيروت: دار ابن حزم، 1997)، ص 191؛ الراغب الأصفهاني، ج 2، ص 522.

(85) التلمحري، ص 138.

(86) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص 266. ويبرّر هشام جعيط هذا الانخفاض الحاد بكثرة الاضطرابات، وكسر شبيب بن يزيد الشيباني للخراج، وكذلك ثورة ابن الأشعث. يُنظر: جعيط، ص 361.

(87) الطبري، ج 6، ص 617.

تعويض ذلك النقص الحاد في الموارد. ومن ثم لم يلبث الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز أن أبطل ما شرعه الحَجاج في شأن جباية الجزية ممن أسلم[88]. وعلى ما يبدو، فإن يزيد بن عبد الملك الذي استحكمت في عهده أزمة عجز الموارد عن الوفاء بالتزامات الدولة، أصدر أوامره إلى عماله بإعادة العمل بجباية الجزية ممن أسلم من أهل الذمة[89].

استفحلت أزمة نقص الموارد، وانعكست على سلوك الولاة والعمال؛ فهناك ما يشير إلى أن الحَجاج كان يحمل الأراضي الخربة على المزروعة عند تقدير الخراج على الفلاحين، وذلك لأن عمر بن عبد العزيز طلب من عماله ألا يحملوا الخراب على العامر عند تقدير الخراج، مع الرفق والتسكين لأهل الأرض[90]. إضافة إلى ذلك، فكر الحَجاج بن يوسف جديًا في زيادة الخراج المفروض على أراضي السواد منذ أيام عمر بن الخطاب، إلا أن عبد الملك بن مروان زجره ونهاه عن المضي قُدمًا في ذلك[91].

كذلك كان من الآثار الديموغرافية الجانبية للطاعون هروب عدد كبير من أهل المناطق الموبوءة إلى الجبال والبرية. ومع مرور الوقت، يبدو أنهم تحولوا للإقامة الدائمة في تلك البقاع، واستبدلوا الزراعة بالرعي، الأمر الذي أضر ضررًا

(88) يعقوب بن إبراهيم أبو يوسف، **كتاب الخراج**، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد وسعد حسن محمد (القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث، [د. ت.])، ص 144؛ أبو عُبيد القاسم عبد الله الهروي بن سلّام، **كتاب الأموال**، تحقيق سيد رجب (المنصورة: دار الهدي النبوي؛ الرياض: دار الفضيلة، 2007)، ج 1، ص 103، وحميد بن مخلد بن زنجوية، **كتاب الأموال**، تحقيق شاكر ذيب فياض (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 1986)، ص 172.

(89) يتحدّث البلاذري عن تعمُّد يزيد بن عبد الملك إبطال ما شرّعه عمر بن عبد العزيز كله، «من دون أن يرهب فيه شنعةً عاجلةً، ولا إثمًا آجلًا». يُنظر: البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 8، ص 244. قارن أيضًا الطبري الذي ينصّ على أن يزيد بن أبي مسلم عامل يزيد بن عبد الملك على أفريقيا أراد أن يسير في أهل أفريقيا سيرة الحَجاج بن يوسف في أهل العراق، فيفرض الجزية على رقاب من أسلم من أهل الذمة منهم، وأن هذا كان سبب ثورة أهل أفريقيا عليه وقتله في نهاية المطاف. يُنظر: الطبري، ج 6، ص 617.

(90) ابن سلّام، ج 1، ص 103؛ أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، **الاستخراج لأحكام الخراج** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1985)، ص 88.

(91) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، **الأحكام السلطانية** (القاهرة: دار الحديث، [د. ت.])، ص 231.

بالغًا بالزراعة في أماكن إقامتهم الأصلية، وهو ما اضطر الحجاج بن يوسف إلى الأمر بإعادتهم قَسْرًا إلى قراهم ورسَاتيقهم الأصلية، ومباشرة ما تركوه من الأعمال هناك[92].

الحق أن الحَجاج بذل جهدًا كبيرًا في سبيل مقاومة الطبيعة وإعادة الاتزان إلى خراج السواد الذي انكسر في عقب طاعون ابن الزبير الجارف، فقام بإقراض الفلاحين نحو مليوني درهم لإعادة إعمار قراهم التي خرَّبها الطاعون، وإعادة تأهيل مزارعهم وبساتينهم[93]. كما أنه نهاهم عن ذبح الأبقار التي فنت في الطواعين المتتالية، فعانى الناس ندرتها، وهي أداة الحرث والسقاية الرئيسة. وخلَّد هؤلاء الفلاحون البائسون الذين أضحوا أشبه بالأقنان في قراهم، قرار الحَجاج ببيت شعر يمكننا أن نستشعر من خلاله حالة الخراب العامة التي أصابت سواد العراق في عقب الطواعين؛ إذ قال شاعرهم[94]:

شـــكونا إليــه خراب السَّـــواد
فحـــرَّم فِينَـــا لحـــوم البقـــر

يلوح لي أن سياسة ربط الفلاحين بقراهم ومنعهم من مغادرتها كانت سياسة عامة في العصر الأموي، ولم تكن سياسة انتهجها الحجاج في العراق فحسب؛ فوثائق البردي التي عُثر عليها بكوم أشقاو (Aphrodito) في مصر تتضمن وثيقة لافتة مؤرخة في عام 91هـ/ 710م، وهي عبارة عن رسالة من قُرة بن شريك، والي

(92) الطبري، ج 6، ص 617.

(93) ابن الفقيه الهمذاني، ص 391.

(94) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 13، ص 360؛ ابن الفقيه الهمذاني، ص 391؛ أبو القاسم محمد بن حوقل، **صورة الأرض** (بيروت: دار صادر، 1938)، ج 1، ص 234؛ الحسن بن عبد الله أبو هلال العسكري، **الأوائل** (القاهرة: دار البشير، 1987)، ص 168؛ أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة** (بيروت: عالم الكتب، 1982)، ص 427؛ أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، **المسالك والممالك** (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992)، ج 1، ص 425؛ ابن حمدون، ج 4، ص 298؛ أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحِميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس (بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة، 1980)، ص 332.

مصر من الوليد بن عبد الملك، إلى باسيل عامله على كوم أشقاو تتضمن شكاية من أحد عمال قُرة (هشام بن عمر) في حق باسيل، ذلك أن باسيل آوى إليه عددًا من الفلاحين الذين جلوا عن قرية تقع في زمام هشام، واستوطنوا كوم أشقاو. وتتضمن الرسالة تعنيفًا من قُرة لباسيل لقبوله إيواء هؤلاء الجالين، مع التأكيد من جانب قُرة أنه كتب إلى عماله في أنحاء مصر بالتشديد على منع إيواء الجالين عن قراهم ومدنهم، وضرورة إعادتهم إلى قراهم الأصلية في أقرب وقت ممكن[95].

من الواضح أن عمر بن عبد العزيز شرع في سياسة إصلاح واسعة هدفت إلى الحد من آثار الطواعين، فكتب إلى واليه على العراق عدي بن أرطأة يطلب منه النظر إلى أهل كل أرض جلُوا عن أرضهم، فيعيدهم إليها بالرفق، فإن تعذر ذلك فليعرضها على المسلمّين[96]، ما يشير إلى بوار مساحات كبيرة من الأراضي التي لم تجد من يزرعها في ظل النقص الحاد في أعداد الفلاحين من النبط وغيرهم، بسبب الهلاك في الطواعين، وكذلك الأعراض الديموغرافية الجانبية للطاعون كالهجرات، الموقتة منها والدائمة.

ذلك النقص العددي في أعداد الفلاحين يتجلّى واضحًا في لائحة تحفيز متدرجة أمر بها عمر بن عبد العزيز ولاته وعماله بشأن أراضي الصوافي[97]؛ إذ طلب عمر بن عبد العزيز إلى ولاته على الأمصار أن ينظروا في أراضي الصافية، فمن رغب في استغلالها للزراعة، فعليه مشاركة بيت مال المسلمين بالنصف، فإن لم يجدوا عرضوها بالثلث، فإن لم يجدوا عرضوها بالعُشر، فإن لم يجدوا

(95) يُنظر: أدولف جروهمان، **أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية**، ترجمة حسن إبراهيم حسن (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، 1955)، ج 3، ص 23-24 (برقم 151). وثمة وثيقة أخرى مبتورة (لعلّها من قرّة بن شريك أيضًا) تتضمن إعادة التشديد على العمال في هذا الأمر. وهي محفوظة بمكتبة هيدلبرج برقم B.10. وقد اشتبه المستشرق كارل هينريش بيكر (Karl Heinrich Bekker) في أنها جزء من تلك الوثيقة المذكورة أعلاه. يُنظر: Karl Heinrich Bekker, «Neue arabische Papyri des Aphroditofundes,» *Der Islam*, vol. 2, no. 5 (1911), p. 257.

(96) ابن زنجوية، ج 2، ص 634.

(97) أراضي «صوافي الإمام»، وهي الأراضي والملكيات التي كان أهلها قد فرُّوا عنها أو قُتلوا إبان الفتوح، فلم يبق فيها ساكن ولا لها عامر، فكان حكمها إلى بيت مال المسلمين، فأقطعها عثمان بن عفان لمن يعمرها ويقوم بخراجها. يُنظر: البلاذري، **فتوح البلدان**، ج 268.

من يزرعها فليمنح الولاة والعمال من شاءوا من الناس حق فلاحتها وإصلاحها وحصد نتاجها من دون مشاركة بيت المال بدرهم واحد، فإن لم يتقدم أحد فليُنفق على زراعتها من بيت مال المسلمين مخافة البوار[98].

من الملاحَظ أيضًا، أن عمر بن عبد العزيز أمرَ بإعادة فرض العطاء للطفل الوليد. وكانت عادة خلفاء بني أميّة قد جرت منذ عهد معاوية بن أبي سفيان بحظر العطاء للأطفال إلا بإذن شخصي من الخليفة نفسه، فلما تولى عمر بن عبد العزيز فرض لكل طفل يُولد 10 دنانير[99]. وربما تنتابنا الدهشة إذا نظرنا إلى هذا القرار باعتباره ترفًا لا داعي له في ظل أزمة اقتصادية خانقة. وفي اعتقادي أن لهذا القرار سببين: **أولهما** معاونة الناس على احتمال الغلاء ومواجهة الارتفاع الحاد في الأسعار التي ارتفعت إلى مستويات غير مسبوقة في عهود عبد الملك بن مروان، ثم الوليد بن عبد الملك، ومن بعده سليمان[100]، ووصلت إلى ذروتها في عهد عمر بن عبد العزيز[101]. أما السبب **الثاني**، فتمثّل في تشجيع الناس على الإنجاب لمواجهة النزيف الديموغرافي الحاد الذي سبّبته فورات الطاعون المتتالية.

لاحظ أحد الباحثين في التاريخ الاقتصادي للدولة الأموية ذلك الارتفاع الكبير في الأسعار في أواسط العصر الأموي، مُبديًا استغرابه من عدم وجود مبرر لحدوثه في فترة وصفها بفترة استقرار نِسْبي للنظم الإدارية والمالية والسياسية، وهي الفترة الممتدة بين عامي 80هـ/ 699م و 100هـ/ 718م، حيث لاحظ أن القوة الشرائية للدينار الأموي (حديث العهد) قُدّرت بـ 20 أردبًا من القمح في الفترة بين عامي 80هـ/ 699م و87هـ/ 705م، ثم انخفضت انخفاضًا حادًّا لتصل إلى 12 أردبًّا في عام 88هـ/ 706م، ثم وصلت في الفترة من عام 88هـ/ 706م إلى 100هـ/ 718م إلى 10 أرادب. ثم من المؤكد أنها انخفضت مرة أخرى في

(98) أبو زكريا يحيى بن سليمان بن آدم القرشي، **كتاب الخراج**، تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة: المطبعة السلفية، 1964)، ص59، وابن رجب، ج 1، ص 22.

(99) ابن سلّام، ج 1، ص 348.

(100) ابن حمدون، ج 4، ص 298.

(101) أبو يوسف، ص 145.

عهد عمر بن عبد العزيز إلى حدٍّ أقل لم تعيّنه المصادر المعاصرة، بيد أنه يُشتبه أن يكون ذلك الانخفاض حادًّا أيضًا[102].

ليس الغريب أن يصل معدل التضخم إلى ما دون النصف في خلال 20 عامًا فحسب، وإنما الغريب أيضًا أن يحدث هذا في هذه الفترة التي شهدت استقرارًا سياسيًّا يفترض أن تكون له استحقاقاته الاقتصادية؛ إذ استقرت الأحوال في العراق وبلاد ما وراء النهر وأفريقيا، واتسعت رقعة الدولة بضم أراضي السِّند شرقًا والأندلس غربًا، والأناضول وأرمينيا وبلاد الخزر، بل وقف مسلمة بن عبد الملك تحت أسوار القسطنطينية وكاد يدخلها فاتحًا.

من الواضح أن الطاعون مثّل ذلك العامل الخفي الذي كمن خلف ارتفاع نسبة التضخم، وانخفاض القوة الشرائية للدينار الأموي؛ فمع ذلك التضخم الناشئ عن تداول العملة في أيدي أعداد أقل من السكان، جنبًا إلى جنب مع ذلك الانخفاض الحاد في أعداد الأيدي العاملة جراء النزيف الديموغرافي، إضافةً إلى تغيير نسبة معتبرة من الفارين من الطاعون نشاطها من العمل في الزراعة إلى الرعي، هذه العوامل كلها أثرت سلبًا في الإنتاج الزراعي بوجه عام، ومن ثم أدى ذلك أخيرًا إلى قِلة المعروض في الأسواق، فإلى ارتفاع سعره.

رابعًا: آثار الطاعون السياسية

إضافة إلى تسبّب الطاعون في وفاة بعض الخلفاء، كيزيد بن الوليد، أو بعض كبار الولاة في العصر الأموي، كالمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه، فإنه تسبب أيضًا في اختفاء شخصيات فاعلة في العصر الأموي، كان يمكن أن تصل إلى الخلافة إن امتد بها العمر، كالوليد بن عتبة وعبد العزيز بن مروان وأيوب بن سليمان بن عبد الملك وعبد الملك بن عمر بن عبد العزيز.

بيد أن أهم ما تمخض على توالي فورات الطاعون في العصر الأموي، كان

(102) عصام هاشم عيدروس الجعفري، «التطور الاقتصادي في العصر الأموي: دراسة تحليلية وتقويمية» (رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، 1992)، ص 139.

عزوف خلفاء بني أميَّة عن الإقامة في دمشق، فكان الخلفاء قبل هشام بن عبد الملك ينتبذون إلى البرية والصحراء(103)، أو يقيمون في الأماكن المنعزلة كالأديار اتقاءً للوباء(104)، كما مر بنا. وقام عبد العزيز بن مروان، والي عبد الملك على مصر، بإعمار منطقة حلوان، وأقام بها، نائيًا بنفسه عن الفسطاط بسبب الطاعون(105). ولم تقتصر ظاهرة الفرار من الطاعون على الخلفاء، بل شملت كذلك من هم دونهم من الولاة والأعوان الذين خرجوا من ولاياتهم واستخلفوا فيها من يدير شؤونها، كما فعل عبد الملك بن محمد بن الحَجاج بن يوسف الذي خرج من دمشق في الطاعون مستخلفًا ابنه(106)، وهو الأمر الذي ساهم في مزيد من الاضطراب الإداري في أوقات اندلاع الوباء.

أخيرًا، استقر رأي هشام بن عبد الملك على تغيير قصبة الخلافة، ولم تكن ثمَّة أسباب أو دواعٍ أُخر، بحسب المصادر المعاصرة، وراء إقدام هشام على ترك دمشق إلا الطاعونُ. ولم يمر الأمر من دون معارضة قوية من أهل الحل والعقد في بني أميَّة الذين جادلوه بأن أحدًا من الخلفاء لم يُطعن قبله قط(107). لكن الخليفة أصر على الخروج من دمشق، واختار الرُّصافة(108) بالقرب من الرقة، وهي مدينة قديمة بنتها الروم، فأعاد هشام بناءها ورتب بها الدواوين وشيَّد بها قصرين، واستبدل دمشق بها عاصمةً للدولة(109).

---

(103) ابن تغري بردي، ج 1، ص 313.

(104) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 8، ص 411؛ ابن عبد ربه، ج 5، ص 193، والزمخشري، ج 5، ص 42.

(105) ابن كثير، ج 12، ص 130.

(106) أحمد بن محمد بن مسكويه، **تجارب الأمم وتعاقب الهمم**، تحقيق أبو القاسم إمامي، ط 2 (طهران: سروش، 2000)، ج 3، ص 183.

(107) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 8، ص 389؛ المبرد، **التعازي**، ص 221؛ الطبري، ج 7، ص 207؛ ابن مسكويه، ج 3، ص 161؛ ابن الأثير، ج 4، ص 283، والراغب الأصفهاني، ج 2، ص 522.

(108) ابن مسكويه، ج 3، ص 161؛ أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي، **المختصر في أخبار البشر**، 2 ج (القاهرة: المطبعة الحسينية المصرية، [د. ت.])، ج 1، ص 205.

(109) المبرد، **التعازي**، ص 221؛ الطبري، ج 7، ص 207؛ ابن الأثير، ج 4، ص 283؛ زين الدين عمر بن مظفر بن الوردي، **تاريخ ابن الوردي** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1996)، ج 1، ص 176؛ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **بذل الماعون في فضل الطاعون**، تصنيف =

ربما تقول لنا صفات رُصافة هشام شيئًا عن بعض الاعتقادات التي ظن الناس، آنذاك، أن توافرها في مكان ما يمكن أن يمنع انتشار الوباء في هذا المكان؛ فالمدينة طيبة الهواء، وبعيدة نسبيًا عن مناطق تفشي الوباء[110]. والأهم أنها تخلو من الأنهار، وآبارها عميقة جدًا، وأرضها ملحية[111]. كما أن قسمًا لا بأس به من المياه الصالحة للشرب يأتي من المطر الذي احتجزته صهاريج كبيرة لتخزينه[112]. بعبارة أخرى، تميز هواء المدينة بالجفاف، ومن ثم كانت معدلات الرطوبة (المتهم الرئيس في قضية فساد الهواء) في الرصافة في حدودها الدنيا.

ليس هناك ما يشير إلى أن مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية، عدل عن الرصافة ودمشق، ومدن الشام الكبرى جميعها، واختار حرَّان بسبب الطاعون أيضًا، وإنما على الأرجح لأن حرَّان كانت قصبة إمارة والده محمد بن مروان بن الحكم إبان ولايته على الجزيرة وأرمينيا، في عهد عمه عبد الملك بن مروان[113]، أي كانت مسقط رأسه ومستقر حاشيته وشيعته.

على صعيد آخر، لنا أن نخمن معاناة مُصعب بن الزبير، والي البصرة من أخيه عبد الله بن الزبير، بُعَيد الطاعون الجارف الذي أتى على الأخضر واليابس في البصرة، بل حسم معركته المترقبة مع جُند عبد الملك بن مروان قبل وقوعها. تمامًا كما سيحسم طاعون مسلم بن قتيبة معركة مروان بن محمد مع أبي مسلم الخراساني

= أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب (الرياض: دار العاصمة، 1990)، ص 223، وابن تغري بردي، ج 1، ص 313.

(110) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 8، ص 389، وأحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، **مآثر الإنافة في معالم الخلافة**، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط 2 (الكويت: مطبعة حكومة الكويت، 1985)، ج 1، ص 150.

(111) أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود القزويني، **آثار البلاد وأخبار العباد** (بيروت: دار صادر، [د. ت.])، ص 198.

(112) ابن شمائل عبد المؤمن بن عبد الحق، **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع** (بيروت: دار الجيل، 1991)، ج 2، ص618.

(113) ابن أعثم الكوفي، ج 6، ص 351 وما بعدها؛ الطبري، ج 6، ص 220، وأبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، **كتاب التنبيه والإشراف**، تصحيح عبد الله إسماعيل الصاوي (القاهرة: دار الصاوي، [د. ت.])، ص 281.

قبل وقوعها، كما سنرى بعد؛ إذ إن ذلك الفراغ الديموغرافي الذي سببه طاعون البصرة الجارف في كلٍّ من البصرة والكوفة وأعمالهما كان وراء قرار الحَجاج بن يوسف الثقفي، والي العراق من عبد الملك بن مروان، فرض التجنيد الإجباري على كل قادر على حمل السلاح من أهل العراق؛ فلأول مرة في تاريخ الإسلام، كُتبت أسماء النّاس في البعوث على الرغم من أنوف أصحابها، وأُتيحت لأصحاب تلك الأسماء مهلة للانضمام إلى البعث في الوقت المحدد، وإلا واجه المتخلف عقوبة القتل الفوري[114]، بل لجأت الدولة إلى تجنيد الصبيان والبالغين والقادرين على حمل السلاح لمواجهة ذلك النقص العددي في المقاتلة[115]. وكان ذلك مؤشرًا مهمًا على أثر الطاعون في القبائل العربية، وهم عماد جيش بني أميَّة.

كما ساهم الطاعون في تغيرات ديموغرافية مهمة، كان لها استحقاقاتها السياسية لاحقًا؛ إذ قامت الدولة بتهجير عدد كبير من الزنج إلى السَّواد بغرض ملء الفراغ الديموغرافي الذي كان الطاعون يتسبب به في تلك البقاع، ولولا ثورتهم على الحَجاج بن يوسف بزعامة أحدهم، ويدعى «رياح شيرزنجي» (أسد الزنج)[116]، ما كنا لنسمع بهم في هذا العهد؛ إذ لم تأت المصادر إلى ذكر زنج السواد في عصر بني أميَّة إلا في سياق أخبار هذه الثورة. كما قام الحجاج بتهجير سكان حوض نهر السند إلى العراق لإعادة إعماره بعد أن أفنى الطاعون سكان السَّواد أو كاد يفنيهم، فأجلى محمد بن القاسم، عامل الحَجاج على السند، قبائل الزُّط والسَّبابِجة المزارعين لتعمير كور دجلة[117]. وقُدِّر للدولة العباسية أن تجني الشَّوك جراءَ هذا التهجير؛ فالزُّط والسَّبابجة ثاروا ثورة عارمة في عهد الخليفة المأمون، واستمرت ثورتهم حتى قضى عليها المعتصم بعد لأيٍ[118]، تمامًا كما ثار الزنج مجددًا ثورة عارمة كادت تطيح خلافة بني العباس.

ليس في المصادر تقديرات محددة لأعداد هؤلاء المزارعين الذين أجلاهم

(114) أبو هلال العسكري، ص 327.

(115) أبو الفرج الأصفهاني، ج 2، ص 612.

(116) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 7، ص 299-300.

(117) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص 162.

(118) الطبري، ج 9، ص 9-10.

الحجاج من موطنهم في حوض نهر السند إلى سواد العراق، لكن لا ريب في أنهم كانوا عددًا كبيرًا؛ ذلك أن قسمًا منهم انتقل إلى خطوط المواجهة مع الروم بغرض تشكيل درع بشريٍّ في الثغور. وكان البيزنطيون قد اعتادوا، عقب سماعهم بوقوع الطاعون فيِّ الشام، مهاجمة تلك المدن الواقعة على التخوم، مثلما حدث في طاعون ابن الزبير الجارف في عام 69هـ/ 688م، كما مر بنا من قبل، فقام الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني (66-77هـ/ 685-695م) بانتهاز تلك الفرصة، وقام بحملة واسعة استهدفت إخضاع أرمينيا وإعادتها إلى السيادة البيزنطية ثانيةً، ونجح بالفعل في سلخ أرمينيا عن جسد الدولة الأموية، وولّى عليها أحد النخرار (النُّبلاء) الأرمن وهو الأمير نرسيه كامساركان[119]، وعندما بدأت جيوش جستنيان بالاقتراب من أعالي الشام وحصار أنطاكية، طلب عبد الملك الصُّلح نظير دفع جزية للروم قدرها 1000 دينار أسبوعيًا[120].

تكرر في عام 79هـ/ 698م مسلك الروم نفسه في الطاعون العام؛ إذ أقدم البيزنطيون على مهاجمة أنطاكية. ويبدو أن الأمر تكرر في عقب طاعون الأشراف أو الفتيات، وهو الأمر الذي دعَا الوليد بن عبد الملك إلى الأمر بنقل بعض من زُط البصرة الذين سبق أن نقلهم الحجاج قسرًا من بلاد السند، إلى أنطاكية كي يستخدمهم حائطًا بشريًا لردع الروم[121].

إن إقدام الوليد على تلك الخطوة يعكس إلى حد كبير أثر الطاعون في القبائل العربية. ولعلنا الآن أصبحنا أكثر تفهمًا لتجاهل مروان بن محمد مطالبَ نصر بن سيار بسرعة المدد بالرجال ليتسنى له قتال الثائرين من بني العباس؛ إذ لم يكن ثمة رجال يرسلهم الخليفة إلى واليه على خراسان، بل أفنى طاعونا غراب ومسلم بن قتيبة سكان العراق والشام، وكانا من قبل قد أعملا منجلهما في مصر

---

(119) Aram Ter-Ghivondian, «The Armenian Rebellion of 703 Against the Caliphate,» in: *The Legacy of Jihad; Islamic Holy War and the Fate of Non-Muslims*, Andrew G. Bostom (ed.) (New York: Prometheus Books, 2010), pp. 405-406.

(120) الطبري، ج 6، ص 150-322؛ ابن الجوزي، **المنتظم**، ج 6، ص 203؛ ابن الأثير، ج 3، ص 479؛ النويري، ج 21، ص 199؛ ابن كثير، ج 12، ص 285، وابن تغري بردي، ج 1، ص 199.

(121) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص 162.

وأفريقيا. ومن نجَا من جند مروان الذين خاض بهم معاركه المظفرة ضد الروم ثم قبائل الخزر في أصقاع روسيا، من الطاعون الذي فتك بأهل حران فتكًا، لم يكن الخليفة على استعدادٍ أن يجازف ويمد واليه على خراسان بهم، ويجلس على كرسي الخلافة في حران عاريًا من ذلك الغطاء الذي مكّنه من تولّي الخلافة وإزاحة منافسيه. ومن ثم، كان خيار مروان أن يقود بنفسه معركته الأخيرة، وبمن نجا من جنده من الطاعون الذي فتك بأهل حران فتكًا.

ذكر المؤلف المجهول، صاحب كتاب **أخبار الدولة العباسية**، أن دُعاة بني العباس الذين اندسوا بين الناس بشروا بزوال خلافة بني أميّة، بعد مقتل الوليد بن يزيد، بناء على علامات حدَّدُوا أولها بظهور العصبية، وثانيها بوقوع الطاعون الجارف[122]. والحق أن ذلك المؤرخ المجهول كان موفقًا إلى حد كبير حينما عد وقوع الطاعون، وإن اختصره في طاعون مسلم بن قتيبة الجارف، ضمن عوامل زوال دولة بني أميّة في المشرق.

آملُ أنني تمكنت أخيرًا من الإجابة عن تساؤل طرحه بيت شعر يُنْسب إلى نصر بن سيار، عبَّر فيه عن الدهشة من ردة فعل الخليفة غير المكترث إزاء ازدياد خطر الثوار العباسيين بقوله:

فقلت من التعجّب ليت شعري
أأيقـــاظ أميَّـــة أم نيـــام؟[123]

في الواقع لم يكن بنُو أميَّة نيامًا، لكن أيديهم كانت مغلولة، كما كانت خياراتهم محدودةً جدًّا، فحسم الطاعون معركتهم الأخيرة مع أبناء عمومتهم من بني العباس، ربما حتى قبل أن تقع.

---

(122) **أخبار الدولة العباسية وفيه أخبار العباس وولده**، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي (بيروت: دار الطليعة، [د. ت.])، ص 250.

(123) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج 9، ص 313؛ الدينوري، ص 357؛ أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق أسعد داغر (قم: دار الهجرة، 1989)، ج 3، ص 240؛ محمد بن علي بن طباطبا بن الطقطقي، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، تحقيق عبد القادر محمد مايو (بيروت: دار القلم العربي، 1997)، ص 142.



خاتمة

«بأيّ دموع سأبكي الآن يا أحبائي؟ أي تأوُّهات ستكفيني؟!
أيّ قلب محطم! أيّ عزاءٍ! أي نواحٍ! أي حسرةٍ! أي آلام
ستكون كافيةً عندما نرى كهولًا ورجالًا من الأحجام
والأعمار المختلفة خائري القوى ملقيين كأعجاز الأرُز؟».

راهب سُرياني من دير زُقنين بنواحي ديار بكر يرثي ضحايا طاعون مسلم بن قتيبة 131هـ/ 748م.

ديونسيوس التلمحري[1]

رأى كلٌّ من برنار روزنبرجي وحميد التريكي في دراستهما عن المجاعات والأوبئة في المغرب في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين علاقة واضحة بين تعاقب فورات الطواعين وتعاقب أنظمة الحكم[2]. وفي الواقع، يبدو العصر الأموي عصرًا مثاليًا لاختبار تلك الفرضية.

في خلال 91 عامًا هي قوام عصر الخلافة الأموية، ضربت 20 فورة من الطاعون أجزاءً وبقاعًا واسعة من الدولة الأموية، وذلك بمعدل فورة للوباء كل 4

---

(1) ديونسيوس التلمحري، «تاريخ الأزمنة»، في: شادية توفيق حافظ، «ديونسيوس التلمحري ومخطوطته تاريخ الأزمنة: ترجمة ودراسة» (أطروحة دكتوراه غير منشورة، قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب، جامعة القاهرة، 1982)، ص 140.

(2) برنار روزنبرجي وحميد التريكي، **المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين 16 و17م**، ترجمة عبد الرحيم حزل، ط 2 (الرباط: دار الأمان، 2010).

أعوام ونصف عام تقريبًا، ما ساهم في حدوث كوارث ديموغرافية لدولة الخلافة بلغت ذروتها بين عامي 67هـ/ 686م و 96هـ/ 715م. وقدَّر الباحثان، بناء على المعطيات المتوافرة، نسبة الناجين إلى الضحايا في الطواعين الجارفة بـ 1: 14، الأمر الذي ينبئ بحجم الكوارث الديموغرافية التي سبَّبها الطاعون لبقاع تمثِّل القلب من أراضي الدولة الأموية، حيث تراجع عدد السكان في نهايات العصر الأموي تراجعًا حادًّا مقارنة بأعدادهم في صدر العصر الأموي.

أظهرت الدراسة كيف أبادت الطواعين المتتالية سكان القرى والضياع، ولا سيما في سواد العراق الذي مثَّل المنطقة الأكثر تضررًا من الطاعون في العصر الأموي. ومن ثم أثرت الطواعين تأثيرًا بالغًا في موارد الدولة المتمثلة في الجزية والخراج، الأمر الذي اضطر الدولة في كثير من الأحيان إلى جباية الجزية ممن أسلم من أهل الذمة. هذا إضافةً إلى فناء قطاع كبير من العمال والحرفيين في المدن الكبرى، الأمر الذي أثّر سلبًا في الأسعار التي ارتفعت، جراء نقص الأيدي العاملة، إلى مستويات غير مسبوقة، وصلت إلى ذروتها في عهد عمر بن عبد العزيز، ما أدى إلى وصول معدل التضخم إلى حد فاق 50 في المئة في خلال عشرين عامًا مثّلت ذروة الاستقرار السياسي والإدراي والمالي في خلافة بني أمية.

تسبب الطاعون أيضًا في انتهاج الدولة لسياسة التهجير القسري لإعادة التوازن الديموغرافي إلى البقاع الأكثر تضررًا بسبب الطاعون، فقامت الدولة بتهجير الزنج من أفريقيا، إضافةً إلى قبائل الزُّط والسَّبابجة من حوض نهر السند إلى وسط العراق، في محاولة لرأب ذلك الصَّدع الديموغرافي الذي كان الطاعون يحافظ على وجوده باستمرار، فهاجروا واصطحبوا معهم سلالة نادرة من مستأنسة جاموس الماء الذي عرفته ديار الإسلام أول مرة من خلالهم، فدخل إلى المزارع للخدمة بديلًا من البقر التي أفنتها، أو كادت تفنيها، فورات الطاعون المتتالية.

كما ساهم الطاعون أيضًا في تراجع عدد العرب من أبناء القبائل في العراق والشام، الأمر الذي حدا بعمر بن عبد العزيز إلى إعادة فرض العطاء للأطفال، بعد مدة طويلة من إبطاله، وذلك تشجيعًا لأبناء القبائل العربية على الإنجاب؛ ذلك النقص الحاد في عدد العرب سبَق وأن أجبر الوليد بن عبد الملك على إعادة

تهجير قسم من قبائل الزُّط والسَّبابجة من سواد العراق إلى أنطاكية لاتخاذهم درعًا بشريًّا في مواجة الروم، وهي المهمة التي كانت تناط دومًا بالقبائل العربية. ولعل الطاعون وما أسفر عنه من تراجع حاد في عدد رجال القبائل العربية السبب الذي كمن خلف ضعف معدلات انتشار الإسلام، وكذلك تعريب الأناضول وأرمينيا في عصر بني أميَّة.

كان الطاعون هو المسبب المباشر أيضًا لتلك الهجرات العشوائية التي قام بها الناس هربًا من مدنهم وقراهم إلى بقاع أخرى فرارًا من الوباء، حيث تحولت أكثر تلك الهجرات إلى هجرات دائمة في مناطق الاستيطان الجديدة، مسببةً بذلك آثارًا مضاعفة للخلل الديموغرافي الذي دأب الوباء على إحداثه، الأمر الذي تسبب في اتخاذ الدولة إجراءات صارمة وصلت إلى حدٍّ منع الفلاحين من مغادرة قراهم، ثم لجأت إلى وشم الفلاحين والأكرة على أياديهم بأسماء القرى والرساتيق التي ينتمون إليها حتى يسهل أمر إعادتهم إليها.

انتهت الدراسة أيضًا إلى أنه من غير الممكن فهم تراجع ثقل دمشق، عاصمة الخلافة في العصر الأموي، وتفسير سلوك خلفاء بني أميَّة الرامي إلى هجرها والنأي عنها إلا في ضوء الطاعون. هذا إضافةً إلى أن الطاعون حسم معارك كبرى جرت في العصر الأموي، منها على سبيل المثال ذلك الاجتياح المظفر للإمبراطور جستنيان الثاني لأرمينيا في عقب طاعون ابن الزبير الجارف. كما حسم الطاعون معركة مصعب بن الزبير مع عبد الملك بن مروان في البصرة التي مثّلت بداية النهاية لخلافة عبد الله بن الزبير.

على صعيد متصل، حسم الطاعون أمر سقوط الخلافة الأموية؛ إذ أحسن الثوار العباسيون اختيار الوقت الملائم لإعلان ثورتهم بين طاعونين كبيرين أصابا الشام والعراق بين عامي 127هـ/ 743م و131هـ/ 748م، هما طاعون غراب وطاعون مسلم بن قتيبة. وقام هذان الطاعونان بدور كبير في نجاح العباسيين في إزالة دولة بني أمية، فكان طاعون مُسلم بن قتيبة في عام 131هـ/ 748م بمنزلة فصل الختام بالنسبة إلى الخلافة الاموية؛ إذ أسفر عن خسائر مادية وبشرية هائلة، أصابت قلب الدولة في عهد مروان بن محمد بصورة خاصة.

إن أسباب انهيار البيوت الخشبية يمكن أن تكون كثيرة بدءًا من طبيعة التربة التي أقيم عليها، ومرورًا بسرعة الرياح إلى طبيعة الطقس ونوع الخشب المستخدم في البناء ...إلخ. ولكن ماذا عن العثور على آثار لبيض النمل الأبيض في حطام أخشاب المبنى؟! تركت بكتيريا «يرسينيا بيستس» آثارًا واضحة جدًّا لها في العصر الأموي، حيث يمكن القول إنها مثَّلت ذلك النمل الأبيض الذي عمل بدأبٍ على تآكل أركان البيت في صمت ومن دون أن يشعر به أحد!

ملحق

طاعون مُسْلم بن قُتَيْبَة 131هـ/ 748م
رواية راهب سُرياني وشَاهد عيان
في وصف الطاعون العظيم

نُشر هذا النص منحولًا للبطريرك ديونسيوس التلمحري (المتوفى نحو عام 231هـ/ 845م)، بيد أن التمعن في النص السُّرياني يُشير إلى أن كاتبه كان راهبًا في دير زُقنين، أحد أكبر أديار الجزيرة والكائن قريبًا من ديار بكر. فرغ ذلك الراهب الزُّقنيني من كتابه بعد عام 159هـ/ 775م على أقل تقدير، وقام بنشره أول مرة في عام 1895، الأب يوحنا شابو (J. B. Chabot) مترجَمًا من السُّريانية إلى الفرنسية[1]. وظهرت الترجمة العربية الأولى لهذا النص بعد أن نقلته شَادية توفيق حافظ من السريانية إلى العربية في أطروحتها للدكتوراه. بيد أنها وافقت شابو في ما ذهب إليه من نحل هذا الكتاب لديونسيوس التلمحري[2]، وما يلي من نص ذلك الراهب هو من ترجمتها، وقمت بإثبات أرقام صفحات الأصل في الأطروحة

(1) Jean Baptiste Chabot (éd. & trad.), *Chronique de Denis de Tellmahre* (Paris: H. Champion, 1895).

(2) يُنظر: شادية توفيق حافظ، «ديونسيوس التلمحري ومخطوطته تاريخ الأزمنة: ترجمة ودراسة» (أطروحة دكتوراه غير منشورة، قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب، جامعة القاهرة، 1982)، وأعاد الأب سهيل قاشا، مؤخرًا، نشر النص السرياني مترجمًا إلى العربية في: سهيل قاشا، **تاريخ الزوقنيني المنحول لديونيسيوس التلمحري**، سلسلة الكنائس المسيحية الشرقية 4 (بيروت: المكتبة البولسية، 2006). بيد أنني لم أستطع الاطلاع على هذه النشرة على الرغم من الجهد الذي بذلته في سبيل ذلك.

بين معقوفين. ولم يكن هناك بُد من إصلاح بعض الهنات الطفيفة التي وقعت فيها المترجمة، من غير أن أرى حاجة إلى الإشارة إليها.

[132] عودة إلى [أخبار] الطاعون العظيم[3] الذي حدث في ذلك الوقت

عندئذ عاونًا النبي إرميا، فهو أعلمُ بنا من أي شخص آخر؛ لذا فقد أخذ يبكي من أجل العذاب الذي يحيط بنا من كل جانب: «يا ليت رأسي ماء وعيني ينبوع دموع فأبكي نهارًا وليلًا قتلى بنت شعبي» (سفر إرميا، الأصحاح 9: 1). [133] كما قال أيضًا: «على الجبال أرفعُ بكاءً ومرثاةً على مراعي البرية ندبًا؛ لأنها احترقت فلا إنسان عابر ولا يُسمع صوتُ الماشية .... ويُسرعن ويرفعن علينا مرثاةً، فتذرف أعيُنُنا دموعًا وتفيض أجفانُنا ماءً ... بل اسْمَعْن أيتها النساء كلمة الرب، ولتقبل آذانكن كلمة فمه، وعلِّمْن بناتَكُنَّ الرِّثايَة، والمرأة صاحبتها الندب؛ لأن الموت طلع إلى كوانا، دخل قصورنا؛ ليقطع الأطفال من خارج والشبان من السَّاحات ... وتسقط جثة الإنسان كدِمْنة على وجه الحقل وكقبضة وراء الحاصد، وليس من يجمع» (سفر إرميا، الأصحاح 9: 10-22).

ليعُد النبيُّ الآن وليبكِ، ليس على شعب بعينه أو على مدينة القدس فحسب، بل على سائر الشعوب، وأيضًا على المدن الكثيرة التي أحالتها الكارثة إلى مَعْصرةٍ غاصَّة بالأرجل، تفري ساكنيها دونما رحمة أو شفقة كأنهم العنب اللذيذ. وليبكِ أيضًا على المعمورة جميعها لأن الواقع أشبه بالحاصد الذي وقف وسط حقل من القمح قد أشرف على النضج، فهدَّد[4] واستأصل العيدان كلها من دون تمييز لأحدها عن الآخر. وليبكِ أيضًا على الجثث المتعفنة المتناثرة في شوارع البلاد قاطبةً، إن الصديد كان يسيل منها أشبه بالماء في السَّاحات، ولم تجد من يواريها أكفانها، وليبك أيضًا على المنازل والديار الرائعة، الكبيرة منها والصغيرة التي ما

(3) من اللافت أن أبا الحسن المدائني أطلق الاسم نفسه على هذا الطاعون. يُقارن: أبو المحاسن يوسف بن عبد الله الظاهري بن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1929-1972)، ج 1، ص 313.

(4) كذا في الأصل.

لبثت أن أصبحت قبورًا لساكنيها، حيث لقيَ الجميعُ فيها حتفهم على حين غفلة، عبيدًا وأسيادًا من دون أن ينجو أحد، ولم يُتَمكَّن من إخراج الجثث من تحت الأنقاض[5].

ليبكِ أيضًا على الشوارع [134] المهجورة، وليبكِ أيضًا على القرى الكثيرة التي هلك سكانها جميعهم. وليبكِ أيضًا على القصور التي تصدعت الواحد تلو الآخر. وليبكِ أيضًا على معاقل الزوجية التي أُعدت للأزواج فظهروا فيها فجأةً أمواتًا. وليبكِ أيضًا على الكواعب الأبكار المعتصمات وراء الأبواب انتظارًا للانتقال إلى عش الزوجية، وإذا بهن ينتقِلن فجأة إلى القبر. وليبكِ أيضًا على أشياءَ كثيرةٍ من هذا القبيل تقصر من دونها خطب الخطباء وأحاديث المحدِّثين.

على كل هذه الأشياء أقول إن النبي كان له الحق في أن يبكي ويقول: الويل لي، ليس «من أجل سحق بنت شعبي انسحقت» (سفر إرميا، الأصحاح 8: 21) ولكن من أجل الدمار الذي حل بكل أرجاء المعمورة، وكل الشعب الذي أباده الطاعون بسبب أخطائه، وكان يستحسن أن يستخدم الأقوال النبوية لأتباعه، وليحضر ويقول لباقي الأحياء: «تنطقوا ونوحوا أيها الكهنة، ولْوِلُوا يا خدام المذبح، ادخلوا بيتُوا بالمسوح يا خدام إلهي؛ لأنه قد امتنع عن بيت إلهكمَ التقدمة والسَّكيب» (سفر يوئيل، الأصحاح 1: 13). ولكن من أجل البشر الذين أبيدوا من على سطح الأرض، «تأمَّلُوا وادعُوا النادِبات فيأتين وأرسلوا إلى الحكيمات فيُقْبلن» (سفر إرميا، الأصحاح 9: 17). [135] ليس على جثةٍ واحدة فقط ولكن على شَعوب، بل على أمم بأكملها «انسحقت الأرض انسحاقًا. تشقَّقت الأرض تشققًا. تزعزعت الأرضُ تزعزعًا. ترنَّحت الأرض ترنحًا كالسَّكران، وتدلدلت كالعِرْزَال[6]، وثقل عليها ذنبها فسقطت ولا تعود تقوم» (سفر أشعياء، الأصحاح 24: 19-20) كل هذه الأشياء تحققت في هذا الوقت.

إن الكوارث الكبيرة والهزات الأرضية والقوات والحروب وعداوات العرب

---

(5) كذا في الأصل.

(6) موضعٌ يُعده حراس الزروع والبساتين فوق أطرافِ النخل والأشجار العالية، توقّيًا لهجوم الضواري.

في ما بينهم بسبب الرياسة، وأيضًا المجاعة التي تفشَّت بشدة بين البشر، حتى إن أهالي المنطقة الجنوبية والشرقية قاموا وضغطوا على المناطق الشمالية والغربية واستخدموا الفتنة وأشد أنواع العذاب. وقال النبي إرميا «وارسل عليهم السَّيف والجُوع والوبَاء» (سفر إرميا، الأصحاح 24: 10). كل هذه الأشياء حدثت في أيّامنا بغير استثناء. ها هو سيف العرب يدور في ما بينهم، ها هو السَّلب ينتشر حتى بات من غير الممكن أن يبرح الرجل داره من دون أن تُنْتَهب أو تُسْلب، وها هي المجاعة تتفشَّى في الداخل والخارج. فإذا دخل الرجل إلى داره واجه المجاعة والطاعون، وإذا خرج إلى الطريق وقع فريسة السيف والأسر. من كل جانب حصَار مرير وحزن أليم ورغبة ملحة «قد سكِرُوا وليس من الخمر. ترنَّحُوا وليسً من المُسْكِر» (سفر أشعياء، الأصحاح 29: 9).

أخذ الناسُ يتجولُون وينتقلون من بلدةٍ إلى أخرى ومن مكان إلى مكان. [136] كانوا يترنحون كما لو كانوا سُكارى. قد قال النبي إنهم كانوا يطلبون الخبز فلا يجدونه. في أول الأمر بدأت أعداد غفيرة من كبار العائلات تمرضُ وتموتُ نتيجة تلوث الدم والثآليل. ظل الأمرُ على هذه الحال طوال فصل الشِّتاء، ولم يتمكن أحدٌ من دفن الموتى. كان الناس يرقدُون في الساحات وفي الأروقة والأبراج والمعابد وفي كل الأبنية. كانوا يعانون شدة المرض وعُنف المجاعة المُميتة، حتى إن الذين راحُوا ضحية الجوع كانوا يفوقون بكثير أولئك الذين فتك بهم المرض. وكان الذين يملكون الخبز لدرجة الشبع هم أنفسهم الذين وقعُوا فريسة للمرض. عندما بدأ الدفء يحل على الأرض[7] بدأت الثآليل تطفُو على أبشَار المرضى، وأخذوا يتساقطون في الأسواق كالبعر على سطح الأرض من دون أن يجدوا من يقوم بدفنهم. بدأ هذا الطاعون بأَن ظهر على الفقراء الملقَيْنَ في الساحات، وكان الناس يكفنُونهم باحترام بتلاوة التراتيل،

(7) تحدث خليفة بن خياط عن أن فورة هذا الطاعون بدأت في رجب واشتدت في شعبان، وكانت حمته وشدّته في رمضان وشوَّال، ثم سكن فكان كنحو ما بدأ. يُنظر: أبو عمرو خليفة بن خياط العصفري، **تاريخ خليفة بن خياط**، تحقيق أكرم ضياء العمري (دمشق: دار القلم؛ بيروت: مؤسسة الرسالة، 1976)، ص 398. ووافقت غرة شعبان في عام 131هـ يوم الأربعاء الموافق فيه 26 آذار/ مارس في عام 749م.

وكانوا يدفنونهم مكرمين كما لو لم يكونوا فقراء. اسْتَشرى الطاعون وأطبق على نُبلاء القُرى والمدن بقسوة.

حينما أراد الكهنة أن يقوموا بدفن الموتى، تجمع في الصباح في مكان واحد قرابة خمسين أو ستين أو خمسة وثمانين أو حتى مئة نعش. وقد وُضِعت بداخل كل نعش جثتان أو ثلاثة أو حتى أربعة أطفال. وهكذا طوال اليوم من دون هُدنةٍ أو راحةٍ، كان يُقْضَى اليوم في دفن جثث البشر. ملأ العرب الأرض بالحفائر، وكذلك اليهود. وكانت مقابر المسيحيين مكتظةً بالموتى حتى إنهم أصبحوا هم أنفسهم مضطرين إلى القيام بالحفر. في يوم واحد خرج [137] أكثر من خمسمئة نعش من باب واحد. كانت الأبواب لا تفتح طوال اليوم إلا لخروج حاملي الجثث وعودتهم، كانوا يخرجون لدفنها ثم يعودون لحمل غيرها، حتى إن بعض الموتى لم يكن يقام له القداس لقلة عدد الكهنة وكثرة عدد الموتى. في الصباح أصدر الكهنة تعليماتهم إلى أهالي الموتى بتجميع ذويهم في أماكن مجاورة لمناطق سكناهم. فكان سكان كل منطقة أو حي يتجمعون في المكان المحدَّدِ لهم.

منذ الصباح، كان الكهنة ينقسمون للذهاب في كل اتجاه لتجهيز الموتى وحملهم إلى مدافنهم في جماعات. حدث أن تجمّع في مكان واحد أكثر من مئة نعش حيث كان يوجد في تلك النعوش أكثر من مئتين أو مئتين وخمسين جثة مكدسًا بعضها فوق بعض، فلم تكن هناك أي تفرقة بين الخادم والمخدوم ولا بين السيدة والأمة ولا بين الأجير والمستأجر. فلم تكن الحال إلا مَعْصَرة تمتزج فيها النهاية بالعقاب الإلهي للبشر. كانَ العبيد والسَّادة يعذبون من دون استثناء لفريق دون الآخر. إن الرجل سواء كان من عامة الشعب أم من سادة القوم كان يسقط ويُعاني سكرات الموت، والكل في ذلك سواء. فليتأمل كل شخص الأمر الإلهي ولتستبد به الدهشة والحيرة تجاه أحكام الرب التي تخفى على البشر ويتعذر عليهم تفهُّمها «أحكامُك لجةٌ عظيمةٌ» (سفر المزامير، الأصحاح 36: 6).

إن الكارثة عمَّت وامتد أثرها حتى شمل أولئك الذين يتولون مقاليد السلطة في البلاد، وكذلك الذين ينعمون برغد من العيش ومن ينغمسُون في [138]

الآثام ويرتكبون الكبائر. أصبحت ديار كثيرين منهم تنعي أصحابها ولا تجد من يرثُها. كان الرجال يتنازلون لأصدقائهم فجأة عن ممتلكاتهم وثرواتهم ومزارعهم وقصورهم المنيفة أيضًا. كم من قصورٍ مُشيدة خربت؟!، وكم من عائلات أبيدت لأنها لم تجد من يرثها؟!

إن اللسان البشري ليعجز عن وصف الكوارث الهائلة التي حلت بالبقعة التي تمتد من الفرات حتى الغرب. وشملت كل إقليم فلسطين وعمت المنطقة الشمالية والوسطى حتى البحر الأحمر. كذلك باقي كيليكيا[8] وليكأونية[9] وآسيا الصغرى وبتينا ليسانياس وغلاطية[10] وأيضًا كبدوكية[11]. إن عذاب هذا الانتقام الجائر قاسى منه العالم كله، فهو كالمطر الذي يصيب كل مكان على الأرض، أو كأشعة الشمس التي تصل إلى كل مكان. هذا الوباء قد خيم أيضًا على العالم كله، وكان أثره أشد في المناطق سالفة الذكر.

تحولت فجأة تلك الساحات والمناطق إلى صحارى جرداء لا يمر فيها أو يسكنها أحد. كانت مليئةً بالجثث المتعفنة الملقاة على الأرض كالبعر على قارعة الطريق، لا تجد من يقوم بدفنها، حيث لم ينج منهم أحد، حتى كانت تبدو لمن يراها في حالة انتفاخ وتحلل، أي في حالة تعفن شديد. وهكذا كانوا يلقون بالبشر في داخله، كانوا منتفخين ومقيحين وفي حالة تعفن. كانت المنازل مفتوحة كالمقابر وكان أصحابها في داخلها في حالة تعفن، أثاثهم وذهبهم وأموالهم ومدخراتهم كلها كانت مبعثرة في الطرقات، ولم يكن هناك أحدٌ ليجمعها. [139] كانوا لا يحفلون بالذهب أو المال. وقد كانت ثرواتهم ملقاة في كل مكان دونما صاحب أو مالك.

---

(8) إقليم يقع جنوب آسيا الصغرى، ويضم مدينة طرسوس.

(9) مقاطعة في آسيا الصغرى وعرة التضاريس، وكان يحدّها شمالًا غلاطية وجنوبًا كيليكية وشرقًا كبدوكية وغربًا فريجية.

(10) منطقة قديمة تقع في وسط الأناضول بين نهري هاليس، المسمى اليوم قيزيل إرماك، وسانجاريوس في صقاريا.

(11) أكبر ولايات آسيا الصغرى القديمة، وكانت واقعة على الجهة الشرقية. يحدّها شمالًا بنطس، ونهر الفرات شرقًا، وسوريا وكيليكية جنوبًا، وغلاطية غربًا.

كان كهول ومُسنات اشتعلت رؤوسهم شيبًا يرجون أن يغادروا الدنيا وسط مظاهر التكريم من ورثتهم، وكانوا يتمنون أن يُدفنوا بتكريم، فكانوا يسيرون في الشوارع فاغرين أفواههم من الدهشة والذهول، وكانوا يتساقطون في المنازل وفي الأماكن العامة وهم متهالكون أو في حالة تعفن، عذارى جميلات وفتيات على قسط وافر من الجمال كن ينتظرن الانتقال إلى عش الزوجية وارتداء أفخر الثياب، كن ملقّيات عاريات متعفنات بعضهن فوق بعض. وأصبحن مثار حسرةٍ وألم لكل من تقع عينه عليهن. راق إلى الرب ما حدث في المقابر. ولكن كان بين جدران المنازل وفي الطرقات فتيان وفتيات قد أصبحوا محزونين مطرودين كانوا ملقيين في الطرقات قد اختلط صديدهم بصديد ذويهم.

هذا أيضًا ما حدث في تلك المناطق. الذين بقوا قليلو العدد، فظلوا يحملون الموتى طوال اليوم من دون توقف، كانوا يحملونهم ويلقون بهم كما لو كانوا يلقون بحجارة على كومةٍ ثم يعودون ليحملوا جثة أخرى ليلقوها كما ألقوا سابقتها. كثيرٌ من المحتاجين كان من دون أهل، وكنا نراهم ملقيين في الشوارع، وتنهش لحومهم الكلاب، حيث لم يجدوا من يواريهم القبور. كل واحد كان لا يكفيه إلا منزله، كانوا يستأجرون عمالًا كثيرين لنقل الجثث من المنازل أو من الساحات بسبب عفونتها. وهكذا أنجز هذا القول «أصْعَدتُ نَتن محالكم حتى إلى أنوفكم» (سفر عاموس، الأصحاح 4: 10) والأخرى «ناحت ذبلت الأرض» (سفر أشعياء، الأصحاح 24: 4).

[140] عما قريب لن يكون بكاء ولا حزن ولا غم؛ لأن كل واحد سيطرق باب القبر. كان الذهب والفضة محتقرَين كروث الماشية حتى إنه لو كان على الموتى من الأزواج أو الفتيات ذهب أو فضة أو حُلي ثمينة لا يدنس أحدٌ يده ليأخذ شيئًا، حتى الأهالي لا تمتد أيديهم للأخذ من أبنائهم لأنهم كانوا يعرفون أن صديدهم سيختلط بصديدهم، وعما قريب سيلحقون بهم.

بأي دموع سأبكي الآن يا أحبائي؟! أي تأوُّهات ستكفيني؟! أي قلب محطم! أي عزاءٍ! أي نواح! أي حسرةٍ! أي آلام ستكون كافيةً عندما نرى كهولًا ورجالًا من الأحجام والأعمار المختلفة خائري القوى وملقيين كأعجاز الأرُز؟

إن رحمة الرب الكبرى حلَّت حتى في تلك الكارثة أيضًا لأنها أولًا قد حلت على المساكين الذين كانوا ملقيين في طرقات المدن. في كل مكان كان البدء بهم. وفي النهاية رحلوا، حينئذ تحولت العصَا تجاه الأغنياء وأسياد المدن كلهم. إن هذين الأمرين قد نُفِّذا بواسطة رحمة الرب، حيث حقَّقَا فائدة لكلا الطرفين: أولًا لسكان المدن لأنهم كانوا يُظهرون حماسةً للعدالة، ويحققون لأنفسهم أعظم كسب عن طريق اهتمامهم بالفقراء، ما جعل الفقراء يعنون بهم [و] يكفنونهم ويهتمون بجنازتهم، وكانوا يوارونهم القبور بأسى كبير وعناية. ثانيًا للفقراء أنفسهم، لأنه لو كانت الكارثة قد حلَّت بهم وسكان المدن في آن، فكيف سيتم نقل عظامهم النخرة الناشرة من اللحم من الشوارع؟ ولكان ذلك مما لا يتسنَّى معه للقائمين على هذا الأمر إقناع الأغنياء به، إذا لم يكن الفقراء يترددون عليهم قبل وقوع الكارثة حينما كان كل منهم سالمًا ومعافًى. لذلك كانوا يقبلون على نقل الجثث من أجل دفن الذين لم يكن لهم أحد ليدفنهم [141]، حتى إن الذين كانوا يعتمدون على وجود مقابر ومُكفِّنين لهم أصبحوا من دون قبور، ولم يجدوا من يقيم لهم القُدَّاس. في الحقيقة لقد تحولت الكارثة إلى العظماء بمجرد أن دُفن الفقراء، وشملهم الموت جميعًا من دون تفرقة بين صغير وكبير [فـ]ـلم يبق منهم أحد. أما الذين تصادَف أن نجوا من تلك الكارثة، ولم يلقوا حتفهم، فقد أسرعُوا بالفرار إلى خارج المدن.

في النهاية، حتى من كُتبت لهم النجاة أصابهم داء عظيم، وهو انسداد الحالب، بعضهم أصيب من جانب واحد، وبعضهم الآخر أصيبَ من الجانبين. إن الذي نزل بالأموات نزل مثله بالأحياء حتى لم يلبثوا أن [أصَابهم] ألمُ الحالب. وكان ذلك نذيرًا بأن من سينجو من الموت سوف يتألم بأقسى مما في الموت من آلام. ستنتفخ الكاذة[12] وتتورم وتنفجر فتنتجُ منها قروح كبيرة وعميقة، يسيل منها الدم والصديد والماء ليلًا ونهارًا كالنهر، مما يصيب الشخص بالذبول والهزال، ويستمر هذا المرض مع بعضهم لمدة شهر ومع آخرين لمدة شهرين أو خمسة أو ستة شهور وحتى عام، ومنهم من يمكث معه لمدة عامين وكثيرون منهم لازمهم

(12) كل ما نتأ من اللحم في أعالي الفخذين.

طوال حياتهم. وهكذا أُنْجِز قول النبي الذي يقول: «كل الرُّكب تصير ماءً» (سفر حزقيال، الأصحاح 7: 17)، «يذوب كل قلب إنسان» (سفر أشعياء، الأصحاح 13: 7)، «في كل رأس منها قَرْعَة» (سفر أشعياء، الأصحاح 15: 2).

[142] حدث هذا في الوقت الحاضر. فإذا هرب واحد من بيته أو من عائلته أصابه هذا الداء. حدث أنه كان يسيل من ركبته ماء ودم وصديد، كما يصبح رأسه أصلع. ولذا فإن من بقَوا أحياء، وكانوا قليلي العدد، لم يكونوا معروفين ولم نكن نعرفهم أو نميزهم حتى من ملابسهم، لا أحد كان يميز بين القُسس والرهبان، فقد أصبح جميعهم صُلعًا. كان هذا المرض يصيب الرقبة من الخلف، وقد أصاب كثيرين في الفخذ؛ إن معظمهم قد تخلصوا منه سريعًا وبعضهم شُفي بعد فترة من الوقت، وبعضهم الآخر لم يسترد صحته مطلقًا، بينما كانت تلك الكارثة مثل آلام الولادة، التي تستبدُّ بالمرأة الحامل؛ إذ خيمت على المنطقة من كل جانب.

لم يكفَّ العربُ أبدًا عن الشِّجار وتبادل الأذى. حينئذ خرج مروان من باب الأتراك فاضطربت الأرض كلها وثارت في سنة 1075 يونانية (129-128هـ/ 745-746م) خرج مروان من باب الأتراك[13]، حيث جاء في سفر النبي إرميا هكذا «لذلك هكذا قال الرب هأنذا جاعل لهذا الشعب معثرات، فيعثر بها الآباء والأبناء معًا والجار وصاحبه يبيدان (سفر إرميا، الأصحاح 6: 21)، [143] هذه الأشياء كلها حدثت للعرب وأولاد الإخوة وسقطوا في هاوية سحيقة بسبب طموحهم. إن أنصار [الـ]ـعبَّاس وأنصار هشام وأبناء الوليد وأنصار مروان الذين كانوا إخوةً وأبناء إخوةٍ وجيرانًا وأصدقاء انقض الواحد على الآخر، فأهلكوا أنفسهم كما هلك معهم نفرٌ كثيرٌ.

لقد قال إرميا بخصوص خروج مروان: «هكذا قال الرب هُو ذا شعب قادم من أرض الشمال وأمةٌ عظيمة تقوم من أقاصي الأرض. تمسك القوس والرُّمح، هي قاسية لا ترحم صوتها كالبحر يعج، وعلى خيلٍ تركب مصطفة كإنسان

(13) أي من جهة أرمينيا، حيث كان حاكمها.

لمحاربتك يا ابنة صهيون. سمعنا خبرها، ارتخت أيدينا، أمسكنا ضيقٌ ووجع كالماخض. لا تخرجوا إلى الحقل، وفي الطريق لا تمشوا لأنَّ سيف العدو خَوْفٌ من كل جهة» (سفر إرميا، الأصحاح 6: 22-25). وقال أشعيا أيضًا في الحديث عنهم «قد أنهضتُه من الشمال، فأتى من مشرق الشمس يدعو باسمي، يأتي على الولاة كما على الملاط، وكخزاف يدوس الطين» (سفر أشعياء، الأصحاح 41: 25). وأيضًا: «من الشمال ينفتح الشر على سكان الأرض كلها» (سفر إرميا، الأصحاح 1: 14).

المراجع

1 - العربية

كتب

الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد. **المستطرف في كلّ فن مستظرف**. بيروت: عالم الكتب، 1998.

ابن آدم القرشي، أبو زكريا يحيى بن سليمان. **كتاب الخراج**. تحقيق أحمد محمد شاكر. القاهرة: المطبعة السلفية، 1964.

ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان. **الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان**. تحقيق نجم عبد الرحمن خلف. عمّان: دار البشير، 1993.

______. **العقوبات**. تحقيق محمد خير رمضان يوسف. بيروت: دار ابن حزم، 1996.

______. **قصر الأمل**. تحقيق محمد خير رمضان يوسف. ط 2. بيروت: دار ابن حزم، 1997.

______. **من عاش بعد الموت**. تحقيق محمد حسام بيضون. بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، 1992.

ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي. **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**. تحقيق كمال يوسف الحوت. الرياض: مكتبة الرشد، 1988.

______. **مسند ابن أبي شيبة.** تحقيق عادل بن يوسف العزازي وأحمد فريد المزيدي. الرياض: دار الوطن، 1997.

ابن الأثير، عز الدين. **الكامل في التاريخ.** تحقيق عمر عبد السلام تدمري. بيروت: دار الكتاب العربي، 1997.

ابن الأثير الجزري، مجد الدين المبارك بن محمد. **جامع الأصول في أحاديث الرسول.** تحقيق عبد القادر الأرناؤوط وبشير عيون. دمشق: مكتبة الحلواني؛ مطبعة الملاح؛ مكتبة دار البيان، 1969-1972.

ابن الأزرق الغرناطي، محمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي. **بدائع السلك في طبائع الملك.** تحقيق علي سامي النشار. بغداد: منشورات وزارة الإعلام، 1977.

ابن أعثم الكوفي، أبو محمد أحمد. **كتاب الفتوح.** تحقيق علي شيري. بيروت: دار الأضواء، 1991.

ابن بشران، عبد الملك بن محمد بن عبد الله. **أمالي ابن بشران.** ضبط نصّه أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف العزازي. الرياض: دار الوطن، 1997.

ابن بطة العكبري، عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان. **الإبانة الكبرى.** الرياض: دار الراية للنشر والتوزيع، 1994-2005.

ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف بن عبد الله الظاهري. **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.** القاهرة: دار الكتب المصرية، 1929-1972.

ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف. **غاية النهاية في طبقات القراء.** تحقيق ج. برجستراسر. بيروت: دار الكتب العلمية، 2006.

ابن الجعد، علي بن الجعد بن عبيد الجوهري. **مسند ابن الجعد.** رواية وجمع أبي القاسم عبد الله بن محمد البغوي. تحقيق عامر أحمد حيدر. بيروت: مؤسسة نادر، 1990.

ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد. **صفة الصفوة.** تحقيق أحمد بن علي. القاهرة: دار الحديث، 2000.

______. **المدهش في علوم القرآن والحديث واللغة وعيون التاريخ والوعظ.** تحقيق مروان قباني. بيروت: دار الكتب العلمية، 1985.

______. **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم.** تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية، 1992.

ابن حبان البُستي، محمد بن حبان بن أحمد التميمي. **الثقات.** حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، 1973.

______. **مشاهير علماء الأمصار.** تحقيق مرزوق علي إبراهيم. المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 1991.

ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي. **الإصابة في تمييز الصحابة.** تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض. بيروت: دار الكتب العلمية، 1994.

______. **بذل الماعون في فضل الطاعون.** تصنيف أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب. الرياض: دار العاصمة، 1990.

______. **تقريب التهذيب.** تحقيق محمد عوامة. دمشق: دار الرشيد، 1986.

______. **تهذيب التهذيب.** حيدر آباد الدكن: مطبعة دائرة المعارف النظامية، 1908.

______. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري.** رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار المعرفة، 1959.

______. **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية.** تحقيق مجموعة من الباحثين في 17 رسالة جامعية. تنسيق سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشثري. الرياض: دار العاصمة للنشر والتوزيع، 1998؛ دار الغيث للنشر والتوزيع، 2000.

ابن حجر الهيتمي، أحمد بن محمد بن علي. **أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل.** تحقيق أحمد بن فريد المزيدي. بيروت: دار الكتب العلمية، 1998.

______. **الفتاوى الفقهية الكبرى**. جمعها عبد القادر بن أحمد بن علي الفاكهي المكي وعلى هامشه فتاوى الرملي. القاهرة: ملتزم الطبع والنشر عبد الحميد أحمد حنفي، [د. ت.].

ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد بن سعيد. **جمهرة أنساب العرب**. بيروت: دار الكتب العلمية، 1983.

______. **المحلى بالآثار**. بيروت: دار الفكر، [د. ت.].

ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي. **التذكرة الحمدونية**. تحقيق إحسان عباس وبكر عباس. بيروت: دار صادر، 1996.

ابن حنبل، أحمد بن محمد. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**. تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين. 50 ج. سلسلة الموسوعة الحديثة 1. بيروت: مؤسسة الرسالة، 2001.

ابن حوقل، أبو القاسم محمد. **صورة الأرض**. بيروت: دار صادر، 1938.

البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز. **المسالك والممالك**. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992.

ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي. **ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف** (749هـ/ 1348م). تحقيق ودراسة محمد حسن. سلسلة التاريخ. تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة)، 2013.

ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد. **تاريخ ابن خلدون، المسمّى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**. تحقيق خليل شحادة. بيروت: دار الفكر، 1988.

ابن خلدون: البحر المتوسط في القرن الرابع عشر: قيام وسقوط إمبراطوريات، معرض بالقصر الملكي في إشبيلية، مايو-سبتمبر 2006: دراسات. تنسيق

ماريا خيسوس فيجيرا مولينز. تقديم النسخة العربية إسماعيل سراج الدين، المنجي بو سنينة ومشعل بن جاسم آل ثاني. الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية للنشر والتوزيع، 2007.

ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**. تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار صادر، 1994.

ابن راهويه، أبو يعقوب اسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي المروزي. **مسند اسحاق بن راهويه**. تحقيق عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي. المدينة المنورة: مكتبة الإيمان، 1991.

ابن رجب، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد. **الاستخراج لأحكام الخراج**. بيروت: دار الكتب العلمية، 1985.

ابن زنجوية، حميد بن مخلد. **كتاب الأموال**. تحقيق شاكر ذيب فياض. الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 1986.

ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن منيع. **الطبقات الكبرى**. تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار صادر، 1968.

ابن سلّام، أبو عُبيد القاسم عبد الله الهروي. **كتاب الأموال**. تحقيق سيد رجب. المنصورة: دار الهدي النبوي؛ الرياض: دار الفضيلة، 2007.

ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله. **القانون في الطب**. وضع حواشيه محمد أمين الضناوي. بيروت: دار الكتب العلمية، 1999.

ابن الشجري، هبة الله بن علي بن حمزة. **أمالي ابن الشجري**. تحقيق محمود محمد الطناحي. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1991.

ابن الصيرفي، علي بن داود بن إبراهيم نور الدين الخطيب الجوهري. **نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان**. تحقيق حسن حبشي. 4 ج. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1970–1974.

ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا. **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**. تحقيق عبد القادر محمد مايو. بيروت: دار القلم العربي، 1997.

ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر. **بلاغات النساء**. صحّحه وشرحه أحمد الألفي. القاهرة: مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، 1908.

ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن محمد. **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**. تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري. الرباط: منشورات وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1967.

ابن عبد الحق، ابن شمائل عبد المؤمن. **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**. بيروت: دار الجيل، 1991.

ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله. **فتوح مصر والمغرب**. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1994.

ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد. **طبائع النساء وما جاء فيها من عجائب وأخبار وأسرار**. القاهرة: مكتبة القرآن، [د. ت.].

______. **العقد الفريد**. بيروت: دار الكتب العلمية، 1983.

ابن العبري، غريغوريوس بن أهرون بن توما الملطي. **تاريخ مختصر الدول**. تحقيق أنطون صالحاني اليسوعي. بيروت: دار الشرق، 1992.

ابن عذاري المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد. **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**. تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال. بيروت: دار الثقافة، 1983.

ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله. **المسالك في شرح موطأ مالك**. تحقيق محمد بن الحسين السليماني وعائشة بنت الحسين السليماني. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2007.

ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله. **تاريخ دمشق**. تحقيق عمرو بن غرامة العمروي. دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1995.

ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. تحقيق محمود الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط. دمشق: دار ابن كثير، 1986.

ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى. **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**. أبو ظبي: منشورات المجمع الثقافي، 2002.

ابن الفقيه الهمذاني، أحمد بن محمد. **كتاب البلدان**. تحقيق يوسف الهادي. بيروت: عالم الكتب، 1996.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم. **الشعر والشعراء**. القاهرة: دار الحديث، 2002.

______. **عيون الأخبار**. بيروت: دار الكتب العلمية، 1997.

______. **المعارف**. تحقيق ثروت عكاشة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992.

ابن قرقول، إبراهيم بن يوسف بن أدهم. **مطالع الأنوار على صحاح الآثار**. تحقيق دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث. الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2012.

ابن قليج، أبو عبد الله مغلطاي. **الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفا**. تحقيق محمد نظام الدين الفتيح. دمشق: الدار الشامية؛ بيروت: دار القلم، 1996.

______. **إكمال تهذيب الكمال**. تحقيق عادل بن محمد وأسامة بن إبراهيم. القاهرة: دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، 1991.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد. **زاد المعاد في هدى خير العباد**. ط 27. بيروت: مؤسسة الرسالة؛ الكويت: مكتبة المنار الإسلامية، 1994.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. **البداية والنهاية**. تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي. القاهرة: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، 2003.

ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد. **سنن ابن ماجة**. تحقيق شعيب الأرناؤوط [وآخرون]. بيروت: دار الرسالة العالمية، 2009.

ابن المرزبان، أبو بكر محمد بن خلف. **فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب**. تحقيق ركس سميث ومحمد عبد الحليم. كولونيا: دار الجمل، 2003.

ابن مسكويه، أحمد بن محمد. **تجارب الأمم وتعاقب الهمم**. تحقيق أبو القاسم إمامي. ط 2. طهران: سروش، 2000.

ابن المفضل المقدسي، علي بن مُفرِّج بن حاتم. **الأربعون على الطبقات**. تحقيق محمد سالم بن محمد بن جمعان العبادي. الرياض: أضواء السلف، 1993.

ابن الملقن، عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري. **التوضيح لشرح الجامع الصحيح**. تحقيق دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث. دمشق: دار النوادر، 2008.

ابن منده العبدي، عبد الرحمن بن محمد بن اسحاق الأصبهاني. **المستخرج من كتب الناس للتذكرة والمستطرف من أحوال الرجال للمعرفة**. تحقيق عامر حسن صبري التميمي. المنامة: وزارة العدل والشؤون الإسلامية، [د. ت.].

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي. **مختصر تاريخ دمشق**. تحقيق روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد ومحمد مطيع. دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، 1984.

ابن الناجي، إبراهيم بن محمد بن محمود بن بدر. **التعليق الرشيق في التختم بالعقيق**. تحقيق جمال عزون. الرياض: دار التوحيد، 2008.

ابن النجار الحنبلي، محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي. **مختصر التحرير: شرح الكوكب المنير**. تحقيق محمد الزحيلي ونزيه حماد. الرياض: مكتبة العبيكان، 1997.

ابن نجيم المصري، زين الدين إبراهيم بن محمد. **الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة النعمان**. وضع حواشيه وخرج أحاديثه زكريا عميرات. بيروت: دار الكتب العلمية، 1999.

الأفطسي، أمين الدولة محمد بن محمد بن هبة الله العلوي. **المجموع اللفيف**. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2004.

ابن هشام، أبو محمد عبد الملك. **سيرة ابن هشام**. تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1955.

ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر. **تاريخ ابن الوردي**. بيروت: دار الكتب العلمية، 1996.

أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس. **البصائر والذخائر**. تحقيق وداد القاضي. بيروت: دار صادر، 1988.

أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني. **سنن أبي داود**. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت: المكتبة العصرية، [د. ت.].

أبو سعد الآبي، منصور بن الحسين الرازي. **نثر الدر في المحاضرات**. تحقيق خالد عبد الغني محفوظ. بيروت: دار الكتب العلمية، 2004.

أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي. **المختصر في أخبار البشر**. 2 ج. القاهرة: المطبعة الحسينية المصرية، [د. ت.].

أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين. **الأغاني**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1994.

أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله. **الأوائل**. القاهرة: دار البشير، 1987.

أبو يعلى الفراء، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف. **رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة**. تحقيق صلاح الدين المنجد. بيروت: دار الكتاب الجديد، 1972.

أبو يعلى الموصلي، أحمد بن علي بن المثنى بن هلال التميمي. **مسند أبي يعلى الموصلي**. تحقيق حسين سليم أسد. دمشق: دار المأمون للتراث، 1984.

أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم. **الآثار**. بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.].

______. **كتاب الخراج**. تحقيق طه عبد الرؤوف سعد وسعد حسن محمد. القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث، [د. ت.].

أخبار الدولة العباسية وفيه أخبار العباس وولده. تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي. بيروت: دار الطليعة، [د. ت.].

أسامة بن منقذ. **المنازل والديار**. تحقيق مصطفى حجازي. ط 2. القاهرة: دار سعاد الصباح، 1992.

الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله. **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**. القاهرة: مطبعة السعادة، 1974.

______. **موسوعة الطب النبوي**. دراسة وتحقيق مصطفى خضر دونمز التركي. 2 ج. بيروت: دار ابن حزم، 2006.

الأنباري، كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري. **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**. تحقيق إبراهيم السامرائي. عمّان: مكتبة المنار، 1985.

بَحْشَل الواسطي، أبو الحسن أسلم بن سهل الرزّاز. **تاريخ واسط**. تحقيق كوركيس عواد. بيروت: عالم الكتب، 1985.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. **التاريخ الأوسط**. تحقيق محمود إبراهيم زايد. حلب: دار الوعي، 1977.

______. **التاريخ الكبير**. حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، [د. ت.].

______. **صحيح البخاري، المسمى الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه**. تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر. طبعة مصوّرة عن طبعة بولاق 1312هـ/ 1894م. القاهرة: دار طوق النجاة، 2001.

البزاز، محمد الأمين. **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب العربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**. الرباط: جامعة محمد الخامس - كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1992.

البغدادي، عبد القادر بن عمر. **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1997.

البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء. **شرح السنة**. تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش. بيروت؛ دمشق: المكتب الإسلامي، 1983.

البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر بن داود. **أنساب الأشراف**. تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي. بيروت: دار الفكر، 1996.

______. **فتوح البلدان**. بيروت: مكتبة الهلال، 1988.

البوصيري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز. **إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة**. تحقيق دار المشكاة للبحث العلمي. الرياض: دار الوطن للنشر، 1999.

البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد. **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**. بيروت: عالم الكتب، 1982.

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى. **السنن الكبرى**. تحقيق محمد عبد القادر عطا. ط 3. بيروت: دار الكتب العلمية، 2003.

______. **شعب الإيمان**. حقّقه وراجع نصوصه وخرّج أحاديثه عبد العلي عبد الحميد حامد. الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع؛ بومباي: الدار السلفية في الهند، 2003.

الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى. **الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي**. تحقيق أحمد محمد شاكر، محمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة. ط 2. القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1975.

التنوخي، أبو علي المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم داود. **الفرج بعد الشدة**. تحقيق عبود الشالجي. بيروت: دار صادر، 1978.

______. **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**. تحقيق عبود الشالجي. بيروت: دار صادر، 1973.

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل. **الإعجاز والإيجاز**. القاهرة: مكتبة القرآن، [د. ت.].

______. **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**. القاهرة: دار المعارف، [د. ت.].

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. **البيان والتبيين**. بيروت: دار ومكتبة الهلال، 2002.

______. **الحيوان**. ط 2. بيروت: دار الكتب العلمية، 2003.

______. **رسائل للجاحظ**. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1964.

جروهمان، أدولف. **أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية**. ترجمة حسن إبراهيم حسن. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، 1955.

جعيط، هشام. **الكوفة: نشأة المدينة العربية الإسلامية**. الكويت: مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، 1986.

الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس. **الوزراء والكتاب**. بيروت: دار الفكر الحديث، 1998.

الحصري القيرواني، إبراهيم بن علي بن تميم. **زهر الآداب وثمر الألباب**. بيروت: دار الجيل، [د. ت.].

الحلبي، نور الدين علي بن إبراهيم. **إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون**. بيروت: دار الكتب العلمية، 2006.

الحِميري، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم. **الروض المعطار في خبر الأقطار**. تحقيق إحسان عباس. بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة، 1980.

الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي. **تاريخ مدينة السلام وأخبار مُحَدِّثيها وذكر قُطانِها العلماء من غير أهلها ووارديها**. حققه وضبط نصه وعلق عليه بشار عواد معروف. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2001.

الخوارزمي، أبو بكر محمد بن العباس. **مفيد العلوم ومبيد الهموم**. بيروت: المكتبة العصرية، 1997.

الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب. **مفاتيح العلوم**. تحقيق فان فلوتن. ليدن: مطبعة بريل، 1895.

الدميري، أبو البقاء كمال الدين محمد بن موسى. **حياة الحيوان الكبرى**. بيروت: دار الكتب العلمية، 2003.

الديار بكري، حسين بن محمد بن الحسن. **تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس**. بيروت: دار صادر، [د. ت.].

الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود. **الأخبار الطوال**. تحقيق عبد المنعم عامر. القاهرة: دار إحياء الكتاب العربي، 1960.

الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**. تحقيق بشار عواد معروف. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2003.

______. **سير أعلام النبلاء**. القاهرة: دار الحديث، 2006.

______. **العبر في خبر من غبر**. تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول. بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.].

______. **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار**. بيروت: دار الكتب العلمية، 1997.

الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا. **الحاوي في الطب**. حقّقه واعتنى به هيثم خليفة طعيمي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2002.

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**. بيروت: دار الأرقم بن أبي الأرقم، 1999.

الرافعي القزويني، عبد الكريم بن محمد. **شرح مسند الشافعي**. تحقيق وائل محمد بكر زهران. الدوحة: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2007.

الربعي، محمد بن عبد الله بن أحمد بن زبر. **تاريخ مولد العلماء ووفياتهم**. تحقيق عبد الله أحمد سليمان الحمد. الرياض: دار العاصمة، 1989.

روزنبرجي، برنار وحميد التريكي. **المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين 16 و17م**. ترجمة عبد الرحيم حزل. ط 2. الرباط: دار الأمان، 2010.

الزبير بن بكار، أبو عبد الله محمد. **الأخبار الموفقيات**. تحقيق سامي العاني. بيروت: عالم الكتب، 1996.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر. **ربيع الأبرار ونصوص الأخيار**. بيروت: مؤسسة الأعلمي، 1991.

سِبط ابن العجمي الحلبي، أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل. **كنوز الذهب في تاريخ حلب**. تحقيق شوقي شعث وفالح البكور. حلب: دار القلم العربي، 1996.

السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل. **المبسوط**. بيروت: دار المعرفة، 1993.

السرمري، أبو المظفر يوسف بن محمد. **كتاب فيه ذكر الوباء والطاعون**. علّق عليه وخرّج أحاديثه شوكت بن رفقي بن شوكت. عمّان: الدار الأثرية؛ دمشق: دار المحبة، 2005.

السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد. **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام**. تحقيق عمر عبد السلام السلامي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2000.

السيوطي، جلال الدين أبو بكر عبد الرحمن بن أبي بكر. **تاريخ الخلفاء**. تحقيق حمدي الدمرداش. مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، 2004.

______. **شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور**. تحقيق عبد المجيد طعمة حلبي. بيروت: دار المعرفة، 1996.

______. **المحاضرات والمحاورات**. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2003.

الشعراء الهذليون. **ديوان الهذليين**. تحقيق أحمد الزين ومحمود أبو الوفا. 3 ج. القاهرة: دار الكتب المصرية، 1965.

الشيباني، محمد بن الحسن. **كتاب الآثار**. بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.].

الصفدي، خليل بن أيبك بن عبد الله. **الوافي بالوفيات**. تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى. بيروت: دار إحياء التراث، 2000.

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي. **المعجم الأوسط**. تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني. القاهرة: دار الحرمين، [د. ت.].

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. **تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك**. 10 ج. بيروت: دار التراث، 1967.

______. **تهذيب الآثار**. تحقيق علي رضا بن عبد الله بن علي رضا. دمشق: دار المأمون للتراث، 1995.

الطرطوشي، أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري. **سراج الملوك**. القاهرة: مطبعة بولاق، 1872.

الطيالسي، أبو داود سليمان بن داود بن الجارود البصري. **مسند أبي داود الطيالسي**. تحقيق محمد بن عبد المحسن التركي. القاهرة: دار هجر، 1999.

عباس، إحسان. **شذرات من كتب مفقودة في التاريخ**. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988.

عبد الجبار الخولاني، أبو علي عبد الجبار بن عبد الله. **تاريخ داريا**. باعتناء سعيد الأفغاني. دمشق: مطبعة البرقي، 1950.

العصامي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي. **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي**. تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض. بيروت: دار الكتب العلمية، 1998.

ابن خياط العصفري، أبو عمرو خليفة بن أبي هبيرة. **تاريخ خليفة بن خياط**. تحقيق أكرم ضياء العمري. دمشق: دار القلم؛ بيروت: مؤسسة الرسالة، 1976.

______. **طبقات خليفة بن خياط**. تحقيق سهيل زكار. دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1993.

عياض، أبو الفضل عياض بن موسى [القاضي]. **إكمال المعلم بفوائد مسلم**. تحقيق يحيى إسماعيل. القاهرة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 1998.

______. **الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مذيلًا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء للشمني**. القاهرة: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، [د. ت.].

العيني، أبو محمد محمود بن أحمد. **شرح سنن أبي داود**. تحقيق أبي المنذر خالد بن إبراهيم المصري. الرياض: مكتبة الرشد، 1999.

______. **مغاني الأخيار في شرح أسامي رجال معاني الآثار**. تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل. بيروت: دار الكتب العلمية، 2006.

الفسوي، أبو يوسف يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي. **المعرفة والتاريخ**. تحقيق أكرم ضياء العمري. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1981.

قاشا، سهيل. **تاريخ الزوقنيني المنحول لديونيسيوس التلمحري**. سلسلة الكنائس المسيحية الشرقية 4. بيروت: المكتبة البولسية، 2006.

قدامة بن جعفر، أبو الفرج. **الخراج وصناعة الكتابة**. شرح وتحقيق محمد حسين الزبيدي. بغداد: دار الرشيد للنشر، 1981.

القزويني، أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود. **آثار البلاد وأخبار العباد**. بيروت: دار صادر، [د. ت.].

القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك. **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**. القاهرة: المطبعة الكبرى الأميرية، 1905.

القُشيري، أبو علي محمد بن سعيد بن عبد الرحمن. **تاريخ الرقة ومن نزلها من أصحاب رسول الله والتابعين والفقهاء والمحدثين**. تحقيق إبراهيم صالح. بيروت: دار البشائر، 1998.

القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف. **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**. تحقيق إبراهيم شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية، 2005.

______. **إنباه الرواة على أنباه النحاة**. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: دار الفكر العربي، 1982.

القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري. **صُبح الأعشى في صناعة الإنشا**. بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.].

______. **مآثر الإنافة في معالم الخلافة**. تحقيق عبد الستار أحمد فراج. ط 2. الكويت: مطبعة حكومة الكويت، 1985.

كحيلة، عبادة. **الزط والأصول الأولى لتاريخ الغجر**. القاهرة: [د. ن.]، 1994.

الكرماني، محمد بن يوسف بن علي بن سعيد. **الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري**. ط 2. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1981.

الكرمي الحنبلي، مرعي بن يوسف. **إخلاص الوداد في صدق الميعاد ويليه ما يفعله الأطباء والداعون بدفع شر الطاعون**. تقديم وتعليق خالد بن العربي مدرك. بيروت: دار البشائر الإسلامية، 2000.

الكلاباذي، أبو نصر أحمد بن محمد. **رجال صحيح البخاري المسمى الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد الذين أخرج لهم البخاري في جامعه**. تحقيق عبد الله الليثي. بيروت: دار المعرفة، 1986.

كلوت، أنطوان [كلوت بك]. **تنبيه في ما يخص الطاعون للأطباء ورؤساء المارستانات**. القاهرة: مطبعة ديوان الجهادية، 1885.

الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب. **كتاب الولاة وكتاب القضاة.** تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي. بيروت: دار الكتب العلمية، 2003.

مالك بن أنس. **موطأ الإمام مالك.** صحّحه ورقّمه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1985.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد. **الأحكام السلطانية.** القاهرة: دار الحديث، [د. ت.].

المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد. **التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا.** تحقيق إبراهيم محمد حسن الجمل. القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، [د. ت.].

______. **كتاب الكامل في اللغة والأدب.** عارضه بأصوله وعلّق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم. ط 3. القاهرة: دار الفكر العربي، 1997.

المدائني، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد اللّه بن أبي سيف. **التعازي.** تحقيق إبراهيم صالح. دمشق: دار البشائر، 2003.

المزي، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف. **تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف.** تحقيق عبد الصمد شرف الدين. ط 2. القاهرة: المكتب الإسلامي؛ الدار القيمة، 1983.

______. **تهذيب الكمال في أسماء الرجال.** تحقيق بشار عواد معروف. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1980.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي. **كتاب التنبيه والإشراف.** تصحيح عبد الله إسماعيل الصاوي. القاهرة: دار الصاوي، [د. ت.].

______. **مروج الذهب ومعادن الجوهر.** تحقيق أسعد داغر. قم: دار الهجرة، 1989.

مسلم بن الحجاج، أبو الحسين. **صحيح مسلم، المسمّى المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله**. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1991.

المقدسي، المطهر بن طاهر. **البدء والتاريخ**. بورسعيد: مكتبة الثقافة الدينية، [د. ت.].

المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر. **إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع**. تحقيق محمد عبد الحميد النميسي. بيروت: دار الكتب العلمية، 1999.

النووي، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف. **الأذكار**. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1994.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب. **نهاية الأرب في فنون الأدب**. ط 2. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، 2002.

______. **شرح النووي على مسلم المسمى المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1972.

الواحدي النيسابوري، أبو الحسن علي بن أحمد. **التفسير البسيط: 15 رسالة جامعية**. تحقيق مجموعة من الباحثين. إشراف وتنسيق عمادة البحث العلمي في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الرياض: منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 2008.

الوطواط، برهان الدين أبو إسحق محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي. **غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة**. ضبطه وصحّحه وعلّق حواشيه ووضع فهارسه إبراهيم شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية، 2008.

وكيع، أبو بكر محمد بن خلف. **أخبار القضاة**. صحّحه وعلّق عليه وخرّج أحاديثه عبد العزيز مصطفى المراغي. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، 1947.

اليافعي، عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان. **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان.** تحقيق خليل المنصور. بيروت: دار الكتب العلمية، 1997.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله. **معجم الأدباء المسمى إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب.** تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993.

ـــــــ. **معجم البلدان.** ط 2. بيروت: دار صادر، 1995.

اليعقوبي، أحمد بن اسحق بن جعفر بن وهب بن واضح. **تاريخ اليعقوبي: وهو تاريخ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي.** 2 ج. ليدن: مطبعة بريل، 1883.

دوريات

بوجرة، حسين. «الطاعون وبدع الطاعون: الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب بين الفقيه والطبيب والأمير (1350-1800م)». **المستقبل العربي.** العدد 383 (كانون الثاني/ يناير 2011).

الصغير، عبد المجيد. «الطاعون الأسود بين الواقع والتأويل في المغرب العربي: أحمد بن عجيبة وحمدان خواجة نموذجًا». **دراسات فلسفية** (الرباط) (1993).

موساوي، فلة القشاعي. «وباء الطاعون في الجزائر العثمانية: دوراته وسلم حدته وطرق انتشاره». **مجلة دراسات إنسانية** (كلية العلوم الإنسانية - جامعة الجزائر). العدد 1 (2001).

رسائل جامعية وأطروحات

الجعفري، عصام هاشم عيدروس. «التطور الاقتصادي في العصر الأموي: دراسة تحليلية وتقويمية». رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، 1992.

حافظ، شادية توفيق. «ديونسيوس التلمحري ومخطوطته تاريخ الأزمنة: ترجمة ودراسة». أطروحة دكتوراه غير منشورة، قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب، جامعة القاهرة، 1982.

مخطوطات

ابن أبي حجلة، أبو العباس أحمد بن يحيى بن أبي بكر التلمساني. «الطب المسنون لدفع الطاعون»، رسالة ضمن مجموع، بدار الكتب المصرية، مجاميع تيمور 266.

ابن نجيم المصري، زين الدين إبراهيم بن محمد. «رسالة في ما ضبط أهل النقل في خبر الفصل في حق الطاعون». مخطوط بمكتبة جامعة الملك سعود، برقم 5935.

الإسباني اليهودي، الياس بن إبراهيم. «مجنة الطاعون والوباء». مخطوط ضمن مجموع بمكتبة تشيستربتي. برقم 3676.

الأنصاري، زكريا بن محمد. «تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين». مخطوط بمكتبة جامعة الملك سعود. برقم 3113 ز.

البيلوني، فتح الله بن محمود. «خلاصة ما يعول عليه السامعون في أدوية دفع الوباء والطاعون». مخطوط بمكتبة جامعة الملك سعود، برقم 5065.

السيوطي، جلال الدين أبو بكر عبد الرحمن بن أبي بكر. «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون». مخطوط ضمن مجموع بالمكتبة السليمانية، م. إسماعيل لالا، برقم 678.

2 - الأجنبية

Books

Benedictow, Ole Jorgen. *The Black Death, 1346-1353: The Complete History*. Woodbridge: Boydell & Brewer, 2004.

Byrne, Joseph P. *The Black Death, Greenwood Guides to Historic Events of the Medieval World*. London: Greenwood Publishing Group, 2004.

_______. *Daily Life during the Black Death.* Westport: Greenwood Publishing Group, 2006.

_______. *Encyclopedia of the Black Death.* California: ABC, CLIOU, 2012.

Chabot, Jean-Baptiste (éd. & trad.). *Chronique de Denis de Tellmahre.* Paris: H. Champion, 1895.

Dols, Michael W. *The Black Death in the Middle East.* Princeton, NJ: Princeton University Press, 1978.

Findlay, Ronald [et al.] (eds.). *Eli Heckscher: International Trade, and Economic History.* Cambridge, MA: MIT Press, 2006.

Gottfried, Robert S. *The Black Death: Natural and Human Disaster in Medieval Europe.* New York: Simon and Schuster, 2010.

Gottlieb, Beatrice. *The Family in the Western World from the Black Death to the Industrial Age.* Oxford: Oxford University Press, 1993.

Herlihy, David. *The Black Death and the Transformation of the West.* Samuel Kline Cohn (ed. & intr.). Massachusetts: Harvard University Press, 1997.

Huppert, George. *After the Black Death: A Social History of Early Modern Europe.* Indiana: Indiana University Press, 1998.

The Legacy of Jihad; Islamic Holy War and the Fate of Non-Muslims. Andrew G. Bostom (ed.). New York: Prometheus Books, 2010.

Marcus, Abraham. *The Middle East on the Eve of Modernity: Aleppo in the Eighteenth Century.* New York: Columbia University Press, 1989.

Pestilential Complexities: Understanding Medieval Plague. Vivian Nutton (ed.). London: Wellcome Trust Centre for the History of Medicine at UCL, 2008.

Rapoport, Yossef. *Marriage, Money and Divorce in Medieval Islamic Society.* Cambridge, MA: Cambridge University Press, 2005.

Totaro, Rebecca. *Suffering in Paradise: The Bubonic Plague in English Literature from More to Milton.* Medieval & Renaissance Literary Studies. Pittsburgh: Duquesne University Press, 2005.

Periodicals

Achtman, Mark [et al.]. «Microevolution and History of the Plague Bacillus, Yersinia Pestis.» *PNAS.* vol. 101, no. 51 (December 2004).

Bekker, Karl Heinrich. «Neue arabische Papyri des Aphroditofundes.» *Der Islam.* vol. 2, no. 5 (1911).

Drancourt, Michel and Didier Raoult. «Molecular Detection of Yersinia Pestis in Dental Pulp.» *Microbiology.* vol. 150, no. 2 (2004).

Duncan, Christopher and Susan Scott. «What Caused the Black Death?.» *History of Medicine.* vol. 81 (2005).

Guiyoule, A. [et al.]. «Recent Emergence of New Variants of Yersinia Pestis in Madagascar.» *Journal of Clinical Microbiology.* vol. 35, no. 11 (November 1997).

Howard-Jones, Norman. «Was Shibasaburo Kitasato the Co-Discoverer of the Plague Bacillus?.» *Perspectives in Biology and Medicine.* vol. 16, no. 2 (Winter 1973).

Simond, M., M. L. Godley and P. D. Mouriquand. «Paul-Louis Simond and His Discovery of Plague Transmission by Rat Fleas: A Centenary.» *Journal of the Royal Society of Medicine.* vol. 91, no. 2 (February 1998).

Triki, Hamid et Bernard Rosenberger. «Famines et épidémies au Maroc aux XVIe et XVIIe siècles (1ère partie).» *Hespéris Tamuda.* vol. 14 (1973).

_______ et _______. «Famines et épidémies au Maroc aux XVIe et XVIIe siècles (2ème partie).» *Hespéris Tamuda.* vol. 15 (1974).



فهرس عام

- ي -

هذا الكتاب

تُدرج هذه الدراسة في إطار دراسات الديموغرافيا التاريخية، وهو حقل مهمّش ومُهمل عند الباحثين والدارسين في التاريخ الإسلامي الذين سَلّم أكثرهم بأن طبيعة المصادر الأدبية تحول دون تقديم مادة يُوثق بها تُعين على النهوض بمثل تلك الدراسات. وتهدف إلى إلقاء الضوء على آثار الطاعون في العصر الأموي، من خلال دراسة أثره في الأوضاع الديموغرافية في ذلك العصر، ومن ثم انعكاساتها على النظم والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في بلدان الدولة وأقاليمها، ولا سيما في الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا، وهي البقاع التي تُعد خاصرة الخلافة التي شهدت، دون غيرها، موجات كارثية عظمى من الطاعون، أبرزها طاعون ابن الزبير الجارف، وطاعون مُسلم بن قتيبة الذي قدّر له أن يتصدر المشهد الختامي للدولة الأموية.

أحمد العَدوي

باحث من مصر، حائز شهادة الدكتوراه في الآداب من قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة بمرتبة الشرف الأولى، يعمل مدرس التاريخ الإسلامي المنتدب في قسم التاريخ في الجامعة نفسها لطلاب مرحلة الدراسات العليا، وأستاذًا مساعدًا بكلية الإلهيات - جامعة 18 آذار بجناق قلعة - تركيا. صدر له **الصّابئة منذ ظهُور الإسْلام وحتى سقوط الخلافة العباسية؛ معجم الوراقين والنساخ والكتبيين في التراث العربي**.

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات

Arab Center for Research & Policy Studies

السعر: 6 دولارات

ISBN 978-614-445-183-0



9 786144 451830